
المجموعة الكاملة لمؤلفات الشهيد
سماحة آية الله
السيد عز الدين بحر العلوم
(٢)
أضواء
على دعاء كميل
الشهيد السعيد سماحة آية الله
السيد عز الدين بحر العلوم
مبرّة
المرحوم محمد رفيع حسين معرفي الثقافيّة الخيريّة
دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان



أضواء

على دعاء كميل

المجموعة الكاملة لمؤلفات الشهيد
سماحة آية الله
السيد عز الدين بحر العلوم (رحمه الله)
(٢)

أضـواء
علـى دعـاء كمـيـل

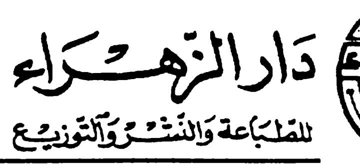
الشهيد السعيد سماحة آية الله
السيد عز الدين بحر العلوم (رحمه الله)

مبّرة
المرحوم محمد رفيع حسين معرفي الثقافيّة الخيريّة

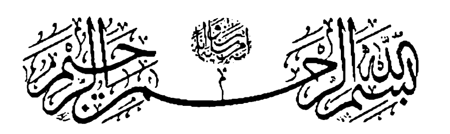
دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى

٢٠١١ م - ١٤٣٢ هـ



بيروت . لبنان . حارة حريك . شارع المقداد . بناية الهدى
هاتف : ٧٢٧٧٦٤ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٥٤٠٩٤ ١ ٠٠٩٦١
e-mail: najaf_86@yahoo.com



والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين

محمد وآله الطيبين الطاهرين

المقدمة

(١)

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

خطاب صادر من الله سبحانه وتعالى لعباده كافة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1]، فهو على علم واطلاع بأن عباده بحاجة ماسة إلى من يُعينهم في مسيرتهم الحياتية حين تضيق بهم السبل في ما يصطدمون به من قضايا خاصة يحتاجون لها من يعينهم في توجيههم، وخير من يعينهم هو الله سبحانه وتعالى، ويهديهم الصراط السوي.

وهذا الدعاء قد يراد به التوجه وإن اختلفت أسبابه وعلله، فكما تشير إليه المصادر «تارة به الاستعانة، وأخرى الاستغاثة، وثالثاً التوجه له سبحانه للمثوبة وحسن الحال»، وهذا كله دعاء كما تشير إلى ذلك بعض المصادر اللغوية، حيث تقول: «وإنما سمي هذا جميعه دعاء لأن الإنسان يصدر في هذه الأشياء بقوله: يا الله، يا رب يا رحمن. فلذلك سمي دعاء».

الدعاء عامل إيجابي للإنسان الذي يتعادل التفكير به بين السلب والايجاب، وهو في هذه الحالة بحاجة ماسة إلى ما يوجهه إلى أي من الجانبين وخير من يتوجه إليه هو الله سبحانه للأسباب التالية.

أولاً: إنه الخالق لهذا الإنسان، وهو أعرف بمصلحته من غيره من المخلوقات.

ثانياً: وإنه لا يخون سائله، وحاشا الله أن يشيح بوجهه عن عبده ساعة العسرة

---

(١) سورة غافر: الآية، ٦٠.

فهو الرحيم به.

ثالثاً: إنه الوحيد الذي يقدر مصلحة السائل، ولا يمكن لغيره أن يحيط بها، وهو الرحيم به فلا يدعه لحاجة أحد، فهو المتكفل له.

حين يقول الخالق لعبده: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، في ساعة العسرة أو في غيرها هل يتصور من هو أرأف بحاله، وأقرب إليه منه، يقول عز من قائل:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[١].

ولاشك أن مصلحة الإنسان لا يعرفها إلاّ خالقه، وتبعاً لمصلحته يستجاب له من مكونه فيما يعود عليه بالصلاح والإصلاح: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

هذه الحقيقة الإيمانية التي وضحها أمير المؤمنين الامام علي لولده الحسن (عليهما السلام): (واعلم يا ولدي أن الذي بيده خزائن السماوات والأرض، قد أذن لك في الدعاء، وتكفل لك بالإجابة، وأمرك أن تسأله ليعطيك، وتسترحمه ليرحمك، ولم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه)[٣].

إن هذه الفقرة الرحبة من عطاء الإمام علي (عليه السلام) لولده الامام الحسن (عليه السلام) تشعر الإنسان بمدى رحمة الله سبحانه إلى عبده حين ينطلق إليه، وقد فتح له باباً للإجابة لتهيئة وسائل الرحمة له، ومدى العلاقة بين العبد وسيده بما يضمن الإجابة له كما وعد الله عباده بقوله: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ ويقول الإمام علي (عليه السلام) في وصيته للإمام الحسن (عليه السلام):

(.... فإذا ناديته سمع نداءك، وإذا ناجيته علم نجواك، فأفضيت إليه بحاجتك وبثثته ذات نفسك، وشكوت إليه همومك، واستكشفته كروبك، واستعنته على

---

(١) سورة البقرة: الآية، ١٨٦.

(٢) سورة البقرة: الآية، ٢١٦.

(٣) راجع نص وصية الإمام لولده الإمام الحسن (عليه السلام) في مقدمة الشارح لدعاء كميل في هذا الكتاب.

أمورك، وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائه غيره...).

حاشا لله أن يغلق بابه بوجه عبده حين ينقطع إليه، فلا ييأس من رحمة الله إلاّ القوم الكافرون، وإذا تأخر عنه فهو لمصلحته التي يراها دون غيره، وحينها أن تكون الثقة من العبد بسيده كبيرة لتشعره بالرحمة والإحسان، والراحة النفسية لما قدر له إذ لم يكن التأخير تهاوناً إنما هو لأمر منه رحمة ولطفاً.

والدعاء قديم من يوم خلق آدم وحواء (عليهما السلام) وحين غواهما الشيطان بما خالفا أمر الله سبحانه عندما ذاقا من الشجرة التي نهاهما الله من الأكل منهما فغضب الله، ندما وطلبا منه المغفرة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1]. ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[2].

هكذا رحمة الله لعباده حيث عطف عليهما فقبل توبتهما بعد أن قاما بالمخالفة الكبرى، فانقطعا إليه بالدعاء، وهو العطوف على خلقه، فقد علمهما كلمات الدعاء، وأقسما بها عليه بأن يقبل توبتهما، فتاب عليهما أنه هو التواب الرحيم.

فقد نقل عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال:

«الدعاء سلاح المؤمن، وعهود الدين، ونور السماوات والأرض». والروايات كثيرة تخص الدعاء وتوجه الإنسان على الانقطاع إلى الله سبحانه عند مداهمة الملمة به فليس له إلاّ الله لينجيه منها.

وقد أسهب الشهيد السعيد شارح دعاء كميل ـ الكتاب الذي بين أيديكم ـ في البحث عن الدعاء وجوانبه بما يغني القارئ عن المتابعة في آثاره الهامة في الإنسان واستقراره النفسي في بناء الداعي.

---

(١) سورة الأعراف: الآية، ٢٣.

(٢) سورة البقرة: الآية، ٣٧.

(٢)

خصوصية دعاء كميل

إن ظاهرة اهتمام جماهير المسلمين الشيعة بـ ـ **دُعاء كُمَيْل** ـ تجاوزت أغلب الأدعية المعروفة عندهم، حيث ورد عن الأئمة (عليهم السلام) قراءة هذا الدعاء في ليلة النصف من شعبان، وليالي الجمعة، هذه الليالي الكريمة التي ينقطع بها الإنسان على خالقه بخشوع وخضوع له سبحانه بما يضفي على نفسه سمواً من الإيمان والاطمئنان إلى مناجاته بما توحيه إليه فقرات هذا الدعاء من التضرع والخشية والاعتراف والخضوع لخالق الكون، وبما ينقله من عالم المادة إلى درجات الاندماج في ذات الله وعظمته، مع أن هناك الكثير من الأدعية الواردة عن أئمة أهل البيت(عليهم السلام) مخصوصة لوقت محدود لا تتعداه، وقد لا تتكرر طيلة السنة إلاّ مرة أو مرتين.

إن هذه الخصيصة الهامة التي توفرت لدعاء كميل هل لها علاقة بمصدرها الأول، الإمام علي (عليه السلام)، فأغلب الأدعية مروية عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، أم أن الراوي له، وهو كميل بن زياد النخعي له خصيصة، لأنه من أصحاب الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، وحامل سره كما يصفه مترجموه.

لاشك أن للأمرين اعتبارات خاصة، وأهميتها المميزة:

أ ـ الإمام علي (عليه السلام) إمام البيان بعد كلام رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو الذي نقل عنه: أن رسول الله علّمه ألف باب، وانفتح له من كل باب ألف باب، وهو الذي قال عنه النبي العظيم ـ وهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى ـ «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**».

ب ـ وكميل بن زياد تصفه المصادر: بأنه من خواص أمير المؤمنين، وصاحب

سره. وتضيف بعض المصادر الأخرى أنه: كان تلميذ الإمام (عليه السلام)، كما كان رجلاً ركيناً، وله إدراك، ومن أجلاء علماء وقته، وعقلاء زمانه، ونسّاك عصره، ومن رووساء الشيعة، وجملة عباد أهل الكوفة، وينتهي البعض في ترجمته إلى القول: بأنه «من المفرطين في علي، وممن يروي عنه المعضلات». وحتى المختلفين معه في المذهب يصفوه بأنه كان (ثقة).

وتنقل الرواية: إن هذا الدعاء ينسب إلى ـ الخضر (عليه السلام) ـ كما نقل الإمام علي(عليه السلام) ذلك، وأضاف: إن كل من يدعو بدعاء الخضر (عليه السلام) إلاّ أجيب له، ثم أرشد الامام(عليه السلام) تلميذه قال: (يا كميل إذا حفظت هذا الدعاء ـ دعاء الخضر ـ فأدعو به كل ليلة جمعة، أو في الشهر مرة، أو في السنة مرة، أو في عمرك مرة تكف وتنصر وترزق، ولن تعدم المغفرة).

وقد عالج الأخ الشهيد السعيد الشارح لهذا الدعاء موضوع مصدريته بما وضح بدقة المحقق الشافي في مقدمته لهذا الكتاب، وصحة نسبته للامام علي (عليه السلام).

طبع هذا الكتاب مرتين، وهذه الطبعة الثالثة بين يدي القراء، ونرجو أن يكون موضع نفع المؤمنين.

مع القارئ..

أستميح ـ قارئي الكريم ـ العذر إذا طلبت منه أن يسمح لي من وقته الغالي دقائق معدودات لأتحدث معه عما يقوم به بعض القراء الذين يكون همهم الشاغل المرور على المكتبات، والتطلّع على ما تقدمه المطابع من نتاج جديد. فقد يقع كتابي هذا بين يديه، ويبدأ بتأمل عنوانه، ويشرع في تقليب بعض صفحاته. وقبل أن يقرأ منه المقدار الكافي أولاً، يتصفح جدول الفهرسة ويضعه جانباً والعجب يأخذ منه مأخذه، فهو لا يطيق أن يرى لمثل الدعاء موضوعاً يستدعي الاهتمام الكثير، في وقت وصل فيه ركب العلم، وموكب الحضارة إلى ما نحن عليه الآن من التطور، والتقدم بفضل ما يبذله العلماء من جهود مكثفة في سبيل الوصول إلى أكثر ما يمكن تحقيقه في مجال الاكتشاف العلمي، وإذا بالإنسان بفضل هذه الجهود يتجاوز فيصل، ويكتشف أسرار ما يحيط بهذا الكون من معلومات دقيقة، والتي كانت السبب في ازدهار هذه النهضة العلمية، لذلك نراه ينعى على مثل هذه البحوث التي ربما يرى فيها إضاعة للوقت، وإماتة للروح البشرية في عصر العلم، والتقدم.

ومن هنا، ومن هذا المنطلق، أبدأ حديثي مع هؤلاء النفر من القراء **فأقول:**

مهما تقدم العلم، وقطعت الحضارة أشواطاً بعيدة في هذه الحياة فإن كل ذلك يكون من موجبات ازدياد الثقة بالله تعالى، وترسيخ قواعد الإيمان به، والاعتراف بعظمته، وقدرته، ذلك لأن مجاهر العلم مهما اكتشفت وتقدمت فإنها لا تصل إلى حل غوامض بعض ما ينطوي عليه هذا الكون من أسرار أرضية، أو سماوية:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

وإذا كانت كل هذه الاكتشافات نوافذ نطّلع منها على عظمة الله، وقدرته، فإن الدعاء في حد ذاته هو المدرسة التي نتعلم فيها كيف نعيش، وكيف نفكر، وكيف

---

(١) سورة الاسراء: الآية، ٨٥.

نسلك مع الله، ومع الناس، ومع أنفسنا.

ولهذا فالدعاء ليس كما يحلو للبعض أن يعبر عنه بأنه: الملهاة المحببة لقلوب أماتها التصوف، وأفكار خيمت عليها العزلة، بل الدعاء هو المادة الأساسية للغذاء الروحي للإنسان، فكما يحتاج الفرد منا إلى الغذائين: **الجسمي والعقلي**، كذلك هو بأمس الحاجة إلى ما ينمي الروح، وينشّطها فإن نشاط الجسم بنشاط الروح، وتقوية معنوياتها.

لذلك نرى علماء النفس يؤكدون بأن نسبة القتل، والانتحار والطلاق، والتشاكس، وكل الأعمال التي تكون مسببة عن الغضب، واليأس، والحرمان عند المعتقدين بالدعاء أقل منها عند غير المعتقدين به.

ويأتي ذلك نتيجة تأثير الدعاء على النفس، وتصفيتها وتحليقها إلى أجواء الله الرفيعة لتعيش مطمئنة في رحابه الطاهرة وبذلك تنشط وتقوى على أداء أعمالها على النحو الأكمل.

قارئي العزيز :

أود أن لا أكون قد أثقلت عليك بهذه السطور، وكل ما أرجوه منك، وأنا اختتم حديثي معك أن تشاركني لنهمس معاً في إذن هؤلاء النفر الكلمة الأخيرة قائلين لهم: في هذه المواقف... إما أن يمر أحدكم على كل كتاب، أو مقالٍ يقع بين يديه مروراً عابراً من دون إبداء رأي، أو تعليق، أو يحكم، ويدلي برأيه... ولكن بعد أن يحيط بجوانب ذلك الموضوع، ويكوّن فكرة عنه. وفي هذه الصورة فقط تكون لك كامل الحرية في إبداء وجهة نظرك، وتقييم ما يقع بين يديك من كتاب، أو مقال.

وبذلك نضمن للمؤلف، أو الكاتب حقه في تقييم ما قدمه للقراء من نتاج فكري.

والله هو الموفق، وهو المسدد للصواب

النجف الأشرف - ١٣/شعبان/١٤٠١هـ عز الدين السيد علي بحر العلوم

في رحاب الله

لقد دأب المؤلفون على الكتابة في شتى العلوم ـ ومن قديم الزمان ـ ولم يتوجهوا إلى شيء إلاّ وتناولوه بحثاً، وتنقيباً فكان من ذلك أن زخرت المكتبات بنتاجهم في مختلف المواضيع، وعلى جميع الأشكال: تأليفاً، وتحقيقاً، وتعليقاً.

وتلقى القراء من معاصريهم، أو ممن سبقهم من المؤلفين القدامى ذلك النتاج، فكان الدرس النافع، والضوء الذي ينير الدرب للسالكين.

وانتشر الكتّاب، وزادت حدة التأليف نتيجة التوسع الفكري وعلى الأخص في الفترات الأخيرة حيث تكاثرت دور النشر والطباعة، وساعدت المطابع الحديثة على توفير الإنتاج وإخراجه بشكل جميل.

ولكن المطالع الكريم يلاحظ من خلال كل ذلك أن حصة الدعاء عرضاً، وشرحاً، وتحقيقاً من هذه المسيرة الراكضة قليل جداً رغم ما تزخر به المكتبة العربية، والإسلامية من كتب الأدعية، والأذكار من جميع المذاهب الإسلامية، بل وغير الإسلامية من بقية الأديان السماوية حتى كان نصيب الكثير منها التلف كما هو الحال في كثير من المخطوطات. لقد أهمل المؤلفون هذا الجانب، فكان من جراء ذلك وجود الفراغ في هذا الحقل.

وحيث كان الدعاء هو الواجهة التي يتوخى الداعي إيصال ما تنطوي عليه نفسه إلى الغير عبر الفقرات الدعائية.

لذلك كان هو المعبر عن حصيلة أفكار الداعي في المجال الذي يدعو به.

وإذاً: فلا غرابة لو كان الدعاء محتاجاً في كثير من فقراته، وفصوله إلى الشرح، والتحقيق، وبيان النقاط التوجيهية التي يقصدها الداعون من وراء أدعيتهم تقرباً منهم إلى الله تعالى في كل ما يقدمونه، ومن هذا المنطلق الفكري، اخترت ـ **في رحاب الله** ـ عنواناً لهذه السلسلة الدعائية أتوخى من وراء ذلك أن أتناول بعض الأدعية

التي أراها بحاجة إلى البحث، وبيان ما تنطوي عليه فصول ذلك الدعاء من مطالب قد لا يلتفت إليها الداعي وهو يرتل ذلك الدعاء، ويمر على جمله، وفقراته مرور الكرام.

مع الدعاء

يقول اللغويون: أن الدعاء هو: النداء.

ويضيف البعض منهم إلى ذلك: أن الدعاء هو الرغبة إلى الله عزّ وجل.

أما الفريق الثالث فيقول: أن الدعاء يأتي بمعنى الاستعانة كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[١].

أي ادعوا من استدعيتم طاعته، ورجوتم معونته، فالدعاء هنا بمعنى الاستعانة.

وفي تفسير هذه الآية المتقدمة: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

يقول الفراء: أي استغيثوا بآلهتكم. فالدعاء هنا جاء بمعنى الاستغاثة.

ويفسر البعض الآخر الدعاء فيقول: أنه بمعنى (العبادة) ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[٢] أي الذين تعبدون.

وقسّم بعض اللغويين الدعاء لله على ثلاثة أوجه: فقال: معنى الدعاء لله على **ثلاثة أوجه:**

فضرب منها: توحيده، والثناء عليه كقولك: يا الله، و (لا إله إلاّ أنت) وكقولك: (ربنا لك الحمد) إذا قلت ذلك فقد دعوته بقولك: (ربنا) ثم أتيت بالثناء، والتوحيد، ومثله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٣].

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٣ .

(٢) سورة الاعراف: الآية، ١٩٤.

(٣) سورة المؤمن: الآية، ٦٠.

والضرب الثاني: مسألة العفو، والرحمة، وما يقرب منه كقولك:

(اللهم اغفر لنا).

والضرب الثالث: مسألة الحظ من الدنيا كقولك: (اللهم ارزقني مالاً وولداً).

وهكذا تختلف كلمة اللغويين في الدعاء.

ولكنا ومن مجموع ما ذكره أهل اللغة في هذا الخصوص بالإمكان أن **نخرج بالنتيجة التالية**:

إن المراد من الدعاء: هو النداء، ولكن أسبابه تختلف، فمرة: يراد به الاستعانة، وأخرى: الاستغاثة، وثالثة: الرغبة، ورابعة: العبادة.

ولذلك قال أبو إسحاق كما نقل عنه ابن منظور:

(وإنما سمي هذا جميعه دعاء لأن الإنسان يصدر في هذه الأشياء بقوله: يا الله، يا رب، يا رحمن، فلذلك سمي دعاء) [1].

الدعاء بين الرفض والقبول:

وككثير من المواضيع التي كانت محطاً للنقاش بين العلماء، نرى للدعاء الحصة الوافرة من مثل هذا النزاع فبين مؤيد له وبين رافض له، وإذا ما تتبع الباحث هذه المعركة الدعائية فسيجد الأقوال فيها كثيرة، وبطبيعة الحال تتشعب الأدلة تبعاً لتشعب الأقوال في المسألة، ولكن بالإمكان حصر الجميع والرجوع بها إلى أقوال رئيسية ثلاثة:

القول الأول: هو الأخذ بفكرة الدعاء في كل شيء في هذه الحياة.

القول الثاني: رفض الدعاء رفضاً قاطعاً.

---

(١) لاحظ لجميع ذلك ابن منظور: لسان العرب/ مادة (دعو).

القول الثالث: ونطلق عليه القول المشترك بين الرفض، والقبول أو القول الوسط بين الطرفين.

١ـ القائلون بقبول الدعاء مطلقاً، أدلتهم:

يتعصب البعض لفكرة الدعاء ويذهب بالشوط بعيداً فيعول عليه كمبدأ أساسي لكل شيء يقدم عليه الفرد في هذه الحياة، ولذلك نرى هذا البعض يعتمد على الأذكار، والأوراد والرياضة النفسية، والتضرع إلى الله، وما إلى ذلك في كل شيء ـ وعلى سبيل المثال ـ ففي مجال الرزق، والتجارة، والعمل للإنتاج نرى هذا البعض يترك كل ذلك متكلاً على الدعاء، ومتخذاً من الآيات الكريمة التالية درساً يسير على هداه، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1]. وقوله عزّ وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

فعلى أي شيء يُتعب الإنسان نفسه، ويجهد، ويعمل ليحصل على لقمة العيش؟ بل يكفيه أن يتقي ربه، وفي قبال ذلك يرزقه الله، ويجعل له مخرجاً في كل الأمور حسب منطوق الآية الكريمة، وفوق كل ذلك أنه يمنح هذا الفيض بغير حساب.

هذا من جهة الرزق، ولقمة العيش. أما بقية الأمور فنراهم لدفع الأخطار يتركون الفكر، والشجاعة، والإقدام لدفع العدو، ورده ويتكلون على ما وراء الغيب لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[3].

إذاً فليجلس من يتوكل على الله في بيته، وهو عزّ وجل يدفع عنه كل عدو، وكل مهاجم.

وإذا نزل بأحدهم المرض لجأ إلى الدعاء فقط تاركاً وراءه الطبيب والدواء متخذاً من قوله تعالى حكاية عن النبي إبراهيم (عليه السلام):

---

(١) سورة الطلاق: الآيتان، ٢ و ٣.

(٢) سورة البقرة: الآية، ٢١٢.

(٣) سورة الطلاق: الآية، ٣.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[١].

فلماذا إذاً السعي وراء الطب، والطبيب؟ والشفاء بيد المشافي وهو الله عزّ وجل فمن العبد الدعاء، ومن الرب الشفاء.

وعلى هذه المسيرة الدعائية يسير موكب هذه الجماعة من الاتكال المفرط على الدعاء.

الرد على هذا القول:

والجواب عن هذا الدليل، الذي استدل به هؤلاء المتكلمون هو:

إننا نؤمن كموحدين لله، معترفين بعظمته، وقدرته أن الرزق من الله، والحفظ منه، والشفاء بيديه، فهو الذي يمنح من يشاء ويفيض على من يشاء حتى ولو كان ذلك الإنسان لا يؤمن بالله، كل ذلك لحكمة منه في هذا الإجراء، وأنه بالإمكان أن يهيء لعباده كل شيء في هذه الحياة من أمور المعاش، والرزق، وهم جالسون في ديارهم لا يحركون أي ساكن، ولا يبذلون أدنى جهد في سبيل تحصيل ذلك، وكذلك يدفع عنهم جميع الأمراض من دون أن يحوجهم إلى أي طبيب، وهكذا بالنسبة إلى العدو حيث يدفع عنهم شروره من دون أن يلجئهم إلى حرب، ودفاع.

كل ذلك بوسع الله أن يهيئه لعباده، ولكن المشيئة الإلهية لم تقتض أن يترك الإنسان إتكالياً على هذا النحو من الدعة، والراحة، بل لقد حارب الإسلام وهو دين الله القويم هذا النوع من التواكل ولم يرتضه. يقول: (عمر بن يزيد)، وهو أحد الرواة عن الامام جعفر بن محمد الصادق(عليه السلام) : قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): رجل قال لأقعدن في بيتي، ولأصلين، ولأصومن، ولأعبدن ربي، فأما رزقي فسيأتيني، فقال: هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم، قلت: ومن الاثنين الآخران؟ قال: رجل له إمرأة يدعو الله أن يريحه منها، ويفرق بينه وبينها، فيقال له: أمرها بيدك، خل سبيلها، ورجل كان له حق على إنسان لم يُشهد عليه، فيدعو الله أن يرد عليه، فيقال

---

(١) سورة الشعراء: الآية، ٨٠.

له: قد أمرتك أن تشهد وتستوثق فلم تفعل)[١].

وفي حديث آخر يقول النبي (ﷺ): (إن أصنافاً من أمتي لا يستجاب لهم دعاؤهم... رجل يقعد في بيته ويقول: رب ارزقني، ولا يخرج، ولا يطلب الرزق فيقول الله عزّ وجل له: عبدي ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب، والتصرف في الأرض بجوارح صحيحة فتكون قد أعذرت، فيما بيني وبينك، في الطلب لاتباع أمري، ولكيلا تكون كلاًّ على أهلك...)[٢].

وتتجلى روعة المحاورة بين الله، وعبده في هذه الفقرات، فالله عزّ وجلّ لا يريد لعبده أن يكون كَلاًّ على أهله يتكففف منهم، بل يريد منه أن يجهد، ويطلب، ومنه التوفيق فهي عملية يشترك فيها الطرفان: فمن العبد: العمل، والطلب. ومن الله: الهداية، والتوفيق.

ويقول راوٍ آخر، قال أبو عبد الله (عليه السلام): ما فعل عمر بن مسلم؟ قلت: جعلت فداك أقبل على العبادة، وترك التجارة، فقال: ويحه أما علم أن تارك الطلب لا يستجاب له دعوة إن قوماً من أصحاب رسول الله (ﷺ) لما نزلت: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[٣]، أغلقوا الأبواب، وأقبلوا على العبادة، وقالوا: قد كفينا. فبلغ ذلك النبي(ﷺ) فأرسل إليهم فقال: ما صنعتم؟ فقالوا: يا رسول الله تكفل الله لنا بأرزاقنا، فأقبلنا على العبادة فقال: إنه من فعل ذلك لم يستجب له عليكم بالطلب)[٤].

وفي مقام آخر يقول:

(إني لأبغض الرجل فاغراً فاه إلى ربه فيقول ارزقني ويترك الطلب)[٥].

---

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ باب (٥٠) من أبواب الدعاء، حديث (٤).

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ باب (٥٠) من أبواب الدعاء، حديث (٦).

(٣) سورة الطلاق: الآيتان، ٢ و ٣.

(٤) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ١٢، ١٥، حديث ٧ و ٨، الباب ٥ من أبواب مقدمات التجارة.

(٥) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ١٢، ١٥، حديث ٨، الباب ٥ من أبواب مقدمات التجارة.

إن هذه الأحاديث، وغيرها مما كان على هذا النحو قد تصدت لتنبّه أولئك الذين تركوا العمل والتجارة وأقبلوا على العبادة، ولو كان ذلك لأجل العبادة والتلذذ بها فإن السير على هذا النوع من الانهماك حتماً يؤدي إلى شلّ الحياة الاجتماعية، والوقوف في وجه نموها وازدهارها، وهذا ما لا يريده الشارع المقدس بل على العكس فإن الشارع جعل العمل، والكسب، وبذل الجهد في سبيل العيش للعامل وعياله من العبادة بل وعبّر عنه بالجهاد الأكبر، ولذلك نرى المصادر التاريخية تحدثنا بأن النبي (ﷺ) كان يكره أن يرى سائلاً يستجدي الآخرين، وفي بدنه طاقة على العمل بل كان يدفعه للنزول إلى معترك الحياة العملية تاركاً وراءه الحياة الخاملة الذليلة، والتي ترتسم في التطلع إلى ما في أيدي الآخرين.

وكان أهل البيت (عليهم السلام) وكثير من الصحابة يباشرون أعمال الفلاحة، والزراعة بأنفسهم، ويأكلون ما تدره عليهم تلك الأعمال من مال، كل ذلك لئلا يكونوا كَلاًّ على بيت مال المسلمين أو يتكففوا أيدي الناس في الطلب.

ويضرب الامام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) المثل الأعلى في الاعتماد على النفس في سبيل تحصيل ما يؤمّن القوت له، ولعياله فلم يكن يشغله زهده، وورعه، وتقاه من القيام بأمور الأرض من حرث، وزراعة، وسقي، وما تتطلبه الفلاحة من أعمال حيث يؤجر نفسه لآخرين للقيام بهذه الأعمال.

ألم يتمكن أمير المؤمنين وهو المقرب عند الله أن يدعو ربه ليرزقه فيريحه من العمل، والمشاق التي كان يتحملها لتحصيل المال ليصرفه على عياله؟ ولماذا كل هذا الاهتمام بالعامل، والعمل، والإنتاج إذا كان كل منا يتكل على الدعاء كوسيلة لجلب المال، والرفاه؟

وفي مقام الدفاع عن النفس، والحرب على الكفار نرى النبي (ﷺ) يقود المسلمين في حروبهم مع الكفار، ويتكبد في كثير منها الخسائر في الأرواح، والأموال مع أنه كان بإمكانه أن يدعو الله ليكف عنه وعن المسلمين الأذى والحرب فينصرهم، وبنصرهم ترتفع كلمة الإسلام، وهم قابعون في ديارهم، وكان بإمكانه أن لا يطلب

الأطباء لجرحى الحروب، وللمرضى بل يدعو لهم، أو يأمرهم بالدعاء ليحصل لهم الشفاء العاجل.

كل ذلك لم يحصل من النبي (ﷺ) ولم يكن على الله ببعيد أن يلبي كل ذلك، وأكثر، ولكن النظام الكوني لم يتبين على هذا النوع من التسامح ـ وسنتعرض فيما سيأتي ـ إلى بيان هذه النقطة وأن القضية لابد لها من حصول الأسباب الظاهرية، من عملٍ، وسعي ودفاع، ومراجعة طبيب.

والأسباب الحقيقية: هي إرادة الله، ومشيئته.

وتثبيتاً لما نقول، نرى الآية الكريمة تقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾.

والمخرج هو الطريق فلابد للإنسان أن يسلك ذلك الطريق ليصل إلى الغاية، أما أن يجلس في مكانه، ويأمل أن يأتيه كل شيء من وراء الغيب، فهذا أمر لا تقره الشريعة، ولا النظم الكونية فقد أبى الله إلاّ أن يجري الأمور بأسبابها، ومن مخارجها، ومداخلها.

نعم الاهتداء إلى الأسباب، والطريق المنتجة المؤثرة يكون بتوفيقه، وتسديده.

٢ـ مع القائلين برفض الدعاء وأدلتهم:

يتنوع القائلون برفض فكرة الدعاء في بيان وجهة نظرهم ونوعية الأدلة التي يقدمونها لإثبات ما يذهبون إليه، وإن كان كلهم يشتركون في القول: بأن الدعاء لا معنى للأخذ به كفكرة مركزية لتخليص الداعي من الذنوب، وما تجره من ويلات عقابية، وكذلك فيما يخص الداعي فيما يطلبه من ربه لما يعود إلى أموره الحياتية، والمعاشية.

ونتيجة لتتبع مصادر نقل آرائهم نراهم ينقسمون **إلى طوائف عديدة:**

الطائفة الأولى: ويقولون بأن الدعاء لا يتعدى كونه طلب شيء لا تقره القوانين الكونية، وذلك:

لأن الحكمة الإلهية اقتضت بناء هذا العالم وما يحدث فيه على الأسباب، والمسببات، ولم تقتض المشيئة الإلهية أن توجد مسببات بدون أسبابها لاختلال الأمور لو كانت المسببات تحصل لوحدها ـ وعلى سبيل المثال ـ فإن الشريعة المقدسة قد قررت على من يصل إلى سن التكليف، تكاليف وجوبية، وتحريمية إضافة إلى المستحبات، والمكروهات، وبينت كل ذلك له، وحينئذٍ، فمن إمتثل ما قرر له من الواجبات، وترك المحرمات فله جزاؤه الذي يترتب على الإتيان بالواجب، والعقاب الذي يناله من يخالف، ويأتي بالمحرم. أما أنه يترك ما هو الواجب عليه ويأتي بما هو محرم، ويدعو الله ليغفر له مثل هذه المخالفات فهذا معناه الطلب من الله تعطيل قاعدة الأسباب، والمسببات، وإجابة الله ـ لو فرضت ـ لمثل هذه الأدعية ما هي إلاّ نسف لما بني عليه هذا الكون من الارتباط الترتبي بين الأسباب، ومسبباتها.

وهكذا الحال في الأمور المعاشية، فإن تحصيل المال يتبع الأصول الأساسية لقاعدتين: العمل، والتجارة، ولكل من هذين شروطه، وباتباعها يتمكن الإنسان من الحصول على المال.

أما الاعتماد على الدعاء والانتظار لما وراء الغيب، فهذا موضوع يبتنى على توقع تحصيل المال من باب الجزاف، والاعتباط.

والرد على هذا الدليل:

بعدم التنافي بين فكرتي الدعاء، وقانون الأسباب، والمسببات ففي الوقت الذي نقر فيه بأن المسبب لا يتخلف عن سببه إذا حصل نقول:

بأن الدعاء يؤثر أثره، وذلك لأن السبب على نحوين: تكويني، وتشريعي.

ويمثل للأول: بسببية النار للحرارة، والشمس لوجود النهار، وحصول الضوء.

أما الثاني: وهو السبب التشريعي فيمثل له باستحقاق العقاب الذي رتبه الشارع على صدور الذنب المكلف، وكلا هذين لا يتخلف عنه حصول السبب مع الفارق في الاعتبار فيهما، فإن الأول سبب تكويني، والثاني سبب تشريعي، وإلاّ فالترتب في

كليهما حاصل بلا تخلف.

ومن هذه الزاوية تتبين المغالطة التي فرضها المستدل، فإنه اعتبر المسبب المترتب على صدور الذنب نفس العقوبة، لذلك توقف من قبول الأخذ بفكرة الدعاء لأن السبب، وهو الذنب إذا حصل، فمعناه حصول العقاب.

إذاً فما تأثير الدعاء في البين؟

ولكن بما بيناه اتضح، أن المسبب على صدور الذنب هو استحقاق العقاب لا نفس العقاب، فإن المكلف إذا أذنب كان جزاؤه ما رتب على ذلك الذنب من عقوبة. أما نفس العقوبة الفعلية فتتأخر عن مرحلة الاستحقاق، وبين هاتين المرحلتين: الاستحقاق، والتحقق يأخذ الدعاء مكانه، فيسلك الداعي المذنب طريق العاطفة، فيتضرع إلى من بيده الحل والعقد، أن يوقف تأثير الاستحقاق، ويهيء المانع من تأثيره والمانع هو إرادته تعالى بالعفو عنه، فهو إذاً بدعائه يطرق باباً لعله بتضرعه يفتح له فيصل منه إلى غايته.

وفي الوقت نفسه، الداعي بهذا الطريق الذي يسلكه لا يتخطى ما رسمه الله له، من الخط الذي إذا سار عليه وصل إلى هدفه المنشود. فهو تعالى علمه الدعاء، بل وأمره به، وبعد كل ذلك ضمن له الإجابة، جرى كل ذلك عبر الآيات الكريمة، والأخبار الشريفة، والتي صرحت بأن الله يحب عبده الملحاح في دعائه. وقد تحدى سبحانه بأن يتعرض العبد فهل يجد من هو أرحم منه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وتوجه إليه.

ونستعرض لهذا النوع من التحدي في مطاوي البحوث الآتية.

الطائفة الثانية: وتذهب هذه الطائفة إلى القول: بأن الآيات القرآنية هي التي صرحت بعدم تأثير الدعاء لأنها جاءت تقول: بأن الإنسان ليس له من دنياه إلاّ ما يقدمه من عمل، وجهد. أما الكيل من الأجر لمن لا يعمل، أو عمل ولكنه عمل على خلاف ما يرضي الله، فذلك ما لا وجه له وبهذا الصدد تقول الآيات الكريمة:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ (٣).

إذاً، فالمسألة تابعة لأجر الإنسان ليوفى يوم القيامة بما كان يستحقه من جراء ما قدمه من عمل، والله سريع الحساب. فلا جزاف في البين، ولا أثر لبعض على حساب البعض الآخر بل كل يستحق جزاءه، ويعطيه طبق عمله، ومجهوده ومن خلال الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (٤). تبدو أبعاد العملية الجزائية واضحة وصريحة، فلكل إنسان مقدار سعيه. أما ما زاد على ذلك فليس له فيه حظ ونصيب، لأن ما يحسب له إنما هو سعيه، وعمله.

وتتوسع الآية فتلقي أضواءً جديدة على الموضوع حيث تكمل:

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ (٥). وهنا يأتي دور التفضل، واللطف منه سبحانه فإذا سعى العبد واستحق بازاء سعيه ما رتب على ذلك من ثواب، فإن سعيه سوف يرى من قبل ربه، فإن أحس منه التقرب، والتودد فيجازيه الجزاء الأوفى، والجزاء الأوفى هو ما يفيضه الله على عبده من باب العطف والتفضل لا من باب الاستحقاق.

إذاً، فالسعي والعمل هما المناط في تحصيل الجزاء لا الدعاء والاتكال وانتظار أن يأتيه كل شيء بدون تقديم مجهود في هذه الحياة.

والجواب عن هذه الآيات:

بأنا نرى في قبال هذه الآيات الكريمة آيات أخرى تحث على الدعاء، وتأمر

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ١٨٥.

(٢) سورة البقرة: الآية، ٢٠٢.

(٣) سورة آل عمران: الآية، ١٩٥.

(٤) سورة النجم: الآية، ٣٩.

(٥) سورة النجم: الآيتان، ٤٠ و ٤١.

بالأخذ به، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[(٢)]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[(٣)].

أما الأخبار الواردة عن النبي (ﷺ) في هذا الخصوص فكثيرة، وقد طفحت بها كتب الحديث لكافة الفرق الإسلامية.

والآن فنحن نقف بين طائفتين من الآيات، والأخبار.

طائفة: توقف الإنسان عند حده، وتفهمه بأن الأمور ليست من قبيل الجزاف، والاعتباط، بل لكل إنسان جزاء سعيه، وتعود القضية بالأخير إلى الدقة في الموازنة بين العمل والجزاء، حتى ولو دعا الداعي ما شاء له أن يدعو ربه.

أما الطائفة الثانية: فهي تحث العبد على التوجه إلى ربه، والتضرع إليه، وقد كفل له أن يجد من عطفه ما لا يرجعه خائباً، بل يستجيب له دعواته.

ويزيد في الترغيب أن الآيات التي تكفلت بالإجابة لم تقيد الإجابة بحالة خاصة يشترط أن يكون العبد عليها، بل هي مطلقة من هذه الجهة، ولسانها عام يضمن الاستجابة حتى ولو كان العبد غير مستحق للإجابة.

ومن الطبيعي، إن المعارضة تبدو واضحة بين هاتين الطائفتين فلأي منهما التقديم وبأي من هذين يؤخذ؟

وفي مقام الإجابة نقول:

لا معارضة بين هاتين الطائفتين، وإن بدا ذلك ظاهراً منها ببيان:

أن الطائفة الاولى ـ وردت في مقام بيان ما يستحقه المكلف من الأجر، والاستحقاق إزاء عمله، فبيّن الله بصريح الآيات بأنه لا يضيع عمل كل عامل،

---

(١) سورة المؤمن: الآية، ٦٠.

(٢) سورة الاعراف: الآية، ٥٥.

(٣) سورة البقرة: الآية، ١٨٦.

وسعي كل ساعي، وأنه يوفي العباد أجورهم.

أما الطائفة الثانية ـ فلسانها لسان التفضل، والعطف، ولا علاقة لذلك بالأجر والاستحقاق، فهي من قبيل قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[1].

والداعي عندما يهرع إلى ربه داعياً يسأله من فضله، ولا يطالبه بأجره، بل ربما لا يرى لعمله شيئاً يستحق أن يطالب به، لذلك لا نرى تنافياً بين الطائفتين من الأخبار لأن كل طائفة تنظر إلى جهة تختلف عن الجهة التي تنظر إليها الطائفة الثانية.

الطائفة الثالثة ـ ممن يقولون برفض الدعاء:

ويذهب هؤلاء إلى القول بلغوية الدعاء، وعبثيته، وأنه من الأمور التي يشغل الإنسان بها نفسه، وهو في غنى عن ذلك، ويستدل على ذلك بأن الواقع الخارجي يكذب قضية الدعاء، وذلك لأن الداعي لا يدري ما سيتخذ الله بالنسبة إلى ذنوبه من قرار فهل سيغفرها أم لا؟

هذا بالنسبة إلى الذنوب وعالم الآخرة. وأما ما يعود إلى الأمور الدنيوية فإن نسبة الإجابة ضئيلة جداً إذا قيست لما يبذله الداعي من جهد في دعائه، وفي تقديم طلباته، وحتى هذا المقدار من الإجابة لو حصل لربما يكون من باب المصادفات الطبيعية لا من باب إجابة الله لدعاء عبده. فمثلاً: نرى الشخص يدعو ربه لشفاء مريضه، أو لعودة مسافره من سفره بعد طول غياب، أو يطلب الولد من ربه، وهكذا غير هذه من أمنيات طويلة وعريضة، وفي هذه الحالات قد لا تتحقق الطلبات المذكورة، وقد تتحقق، ولكن من يدري أن تحققها كان استجابة لدعاء الداعي؟ بل ربما كان لأجل انتهاء دورة المرض عند المريض، فيتصور المريض أن الشفاء كان لدعائه، أو أن الوضع العادي للمسافر صادف رجوعه حيث أنهى مهمته وعاد إلى وطنه فيظن من ينتظره بأن دعاءه استجيب فعاد مسافره ببركة توسلاته، أو تلد المرأة ولداً بحسب

---

(١) سورة النساء: الآية، ٣٢.

التقدير الإلهي الأولي لتلك المرأة فيظن الوالد بأن دعاءه في طلب الولد قد استجيب له، وفعلاً قد أخذ مفعوله في التأثير، فرزقه الله ولداً مستجيباً له دعاءه. وهكذا تسير قافلة الداعين في الدعاء ويسير الفلك في تقديراته الأولية وللمصادفات بين هذين أن تأخذ دورها في تحقيق الآمال، والأمنيات.

بهذا وشبهه تصدى هؤلاء الرافضون لفكرة الدعاء والالتجاء إلى الله في كل الأمور الدنيوية، والأخروية.

الرد على هذه الطائفة:

وردنا على هؤلاء يتلخص في أن الدعاء ـ كما هو واضح ـ:

تارة: يكون لطلب المغفرة والصفح عن الذنوب الصادرة من الداعي.

وثانية: لأمور الداعي الدنيوية من رزق، أو ولد، أو شفاء مريض وما شاكل من طلبات.

أما الأول: وهو ما يعود إلى طلب الغفران، فلا معنى لأن نرى النتيجة من الإجابة ضئيلة، أم غير ضئيلة، ومن يتمكن أن يعرض ذلك لأن موضوعه يرجع إلى ما وراء الغيب، وحساب ذلك إلى الله يوم القيامة، وعندها يعرف الداعي نتائج دعائه، وثمرات توسلاته، وتضرعه من غفران الله له أم لا؟

وأما النوع الثاني: وهو الذي تظهر نتائجه في الخارج، ويمكن مشاهدته في هذه الدنيا، فإن نسبة الإجابة، وعدمها لا معنى لتقديرها بالحساب، ذلك لأن الله عندما خلق الخلق لم يتركهم سدى بل قدّر لهم مصالحهم، وما يعود إلى نفعهم، وعدم النفع، بل ما يجلب لهم المفسدة، كل ذلك يلاحظ الله، ويسيرهم على طبقه لأنه رؤوف بعباده وعطوف عليهم، وهو الذي خلقهم، وهم عياله.

وعلى هذا المبنى، فالداعي حر في دعائه، وفي كل ما يطلب من ربه، ولكل ما يريد في هذه الحياة، ولكن بعد دعائه هناك رب يرعى حاله، ويلاحظ مصالحه يقدر كيف سيلبي طلبه، وحينئذٍ، فإن كان في صلاحه الإجابة الفورية تفضل الله عليه

بذلك لو علم منه صدق النيّة، وحسن التوجه، وإن كان صلاحه في التأخير أخر له ذلك ريثما يحين الوقت الذي شاءت المصلحة تأخيره لذلك الوقت، ولربما تكون المصلحة في عدم الإجابة لذلك يحرم الداعي من مطلوبه، ولقد وردت أخبار كثيرة تصرح بأن الغنى لبعض الأشخاص يكون سبباً في بطره، وكفره، وهكذا طلب الولد، فإنه قد يكون نقمة عليه، لذلك يكون الفقر هو الأصلح له، وكذلك حرمان الداعي من الولد هو الأولى لأنه لو حصل فسيكون وبالاً عليه.

وعلى نطاق أوسع فقد تختلف الرغبات من الأشخاص: فالبعض يتجه إلى الله متضرعاً يريد المطر، بينما يكون دعاء آخر بعدم نزوله، ولكل رغبته ومآربه. فهنا إذا استجاب الله لكليهما، فمعناه الجمع بين النقيضين، وإن تركهما معاً فمعناه جفاه لكل منهما، وإن استجاب لأحدهما دون الآخر، فمعنى ذلك الترجيح بلا مرجح، وحينئذٍ ترسو النتيجة على وجود المرجح ليقدم طلب أحد هذين. والمرجح هو المصلحة، وعدم المفسدة، ولابد في هذه الصورة من تلبية من تكون المصلحة في طلبه. وأما من يكون طلبه فيه مفسدة، فسيحرم من الإجابة، وبحرمانه يقال: كيف وصل الأمر إلى عدم الإجابة؟

وقد قال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1]، والمفروض أن من حرم الإجابة قد قام من جهته بما أمر به الله من الدعاء فلماذا حرم الإجابة؟

ويتناول القرآن هذه الناحية، فيوجه الأمة إلى لزوم التسليم لأمر الله تعالى لأنه الأبصر بمصالح العبد، وهو الأعرف بما ينفعهم يقول تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]. والإنسان لا يدري أين يكون الخير ليتبعه، وأين يكون الشر فيتجنبه، بل هو، وبوحي من رغبته، وتجاربه يكوّن فكرة عن الشيء فيظن من وراء طلب ذلك الخير، فيقدم على طلبه، أو من ورائه الشر، فيحجم عنه، وفي كلا الحالين لا يقطع بما سيترتب على ما

---

(١) سورة غافر: الآية، ٦٠.

(٢) سورة البقرة: الآية، ٢١٦.

أراد، ولكن الله هو العالم، وهو المطّلع على الغيب، ومن يدري فلعل ما أراده يكمن فيه الشر، أو ما تركه، أو أحجم عن طلبه فيه كل الخير.

إذاً، فوراء كل ذلك القدرة الإلهية فما على الإنسان إلاّ أن يسلم أمره إلى الله تعالى.

فمن العبد: الدعاء، والطلب.

ومن الله: ما وراء ذلك من تمحيص دعوة الداعي من الخير، أو الشر. وتبدو هذه السلوكية الرفيعة في الدعاء، والتسليم إلى المولى في كل ما يقدره على العبد واضحة في مناجاة الامام (عليه السلام): «اللهم ان عفوك عن ذنبي، وتجاوزك عن خطيئتي، وصفحك عن ظلمي، وسترك على قبيح عملي، وحلمك عن كثير جرمي عندما كان من خطأي وعمدي، أطمعني في أن اسئلك ما لا أستوجبه منك الذي رزقتني من رحمتك، وأريتني من قدرتك، وعرفتني من إجابتك، فصرت أدعوك آمناً، واسئلك مستأنساً، لا خائفاً ولا وجلاً، مدلاً عليك، ولعل الذي ابطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور» [1].

وتسلسل الدعاء في فقراته، وبدء نغم المناجاة يبين الأسباب التي دعت الداعي وهو المذنب المتجاوز أن يستزيد من الطلب ويريد من ربه مع عدم استحقاقه لذلك، إن الأسباب تكمن في عفوه سبحانه، وتجاوزه، وصفحه، وستره على المذنبين، وهذا هو الذي دفع بالعبد أن يطمع في السؤال، والطلب كأن له التطول على ربه.

ولكنه يعود أخيراً ليسلم الأمر إلى الله، ويطلب العذر في كل ذلك منه لأنه بشر، والبشر بطبيعته جاهل بعواقب الأمور ولا يدري ما وراء الغيب، ولعل الذي أبطأ هو الأصلح بحاله لأن العالم بعواقب الأمور هو الله وحده.

إن هذه السلوكية في الركون إلى الله، والتحدث إليه تمتد في جذورها لتستقي رواءها العذب من الخطوط العريضة التي يشرح أبعادها أمير المؤمنين الإمام علي بن

---

(١) مقطع من دعاء الافتتاح الذي يدعى به في كل ليلة من ليالي شهر رمضان.

أبي طالب (عليه السلام) لولده الإمام الحسن (عليه السلام) نستعرضها لتكون درساً لمن يرون التباطؤ في الإجابة وسيلة لرفض الدعاء. يقول (صلوات الله عليه):

(واعلم أن الذي بيده خزائن السماوات والأرض، قد أذن لك في الدعاء، وتكفل لك بالإجابة، وأمرك أن تسأله ليعطيك، وتسترحمه ليرحمك، ولم يجعل بينك وبينه، من يحجبك عنه، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه، ولم يمنعك إن أسأت من التوبة ولم يعاجلك بالنقمة، ولم يعيرك بالإنابة، ولم يفضحك حيث الفضيحة بك أولى، ولم يشدد عليك في قبول الإنابة، ولم يناقشك بالجريمة، ولم يؤيسك من الرحمة، بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة وحسب سيئتك واحدة، وحسب حسنتك عشراً، وفتح لك باب المتاب، فإذا ناديته سمع نداءك، وإذا ناجيته علم نجواك، فأفضيت إليه بحاجتك، وبثثته ذات نفسك وشكوت إليه همومك، واستكشفته كروبك، واستعنته على أمورك، وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائه غيره من زيادة الأعمار، وصحة الأبدان، وسعة الأرزاق، ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه، بما إذن لك من مسألته فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته، واستمطرت شآبيب رحمته فلا يقطنك إبطاء إجابته، فإن العطية على قدر النية، وربما أخرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل، وأجزل لعطاء الآمل، وربما سألت الشيء، فلا تؤتاه، وأوتيت خيراً منه عاجلاً، أو آجلاً، أو صرف عنك لما هو خير لك، فلرب أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله، وينفى عنك وباله، فالمال لا يبقى لك، ولا تبقى له) [١].

إن هذا المقطع من وصية أمير المؤمنين يبدأ فيه بتناول المشكلة من مراحلها الأولية، فالله هو الذي أمر بالدعاء، وهو الذي تضمن بالإجابة، وحبب اللجوء إليه، ولم يلجئك إلى شفيع ووعدك بالخير وصور الخير أنه: حسب السيئة واحدة، وتفضل فاعتبر حسنتك مضاعفة إلى عشرة. كل ذلك ليقربك إليه وليرفع الكلفة في الطلب

---

(١) مقطع من وصية الامام علي بن أبي طالب (عليه السلام) كتبها لولده الحسن (عليه السلام) عند رجوعه من صفين ببلدة من نواحيها يقال لها: (حاضرين).

والهيبة في الإقدام.

ومع كل هذا اللطف، والتفضل، فهل يحسن بالإنسان أن يسيء الظن بمثل هذا الرب العطوف، ولذلك نرى الإمام (عليه السلام) ينهى الداعي أن يقنط لو أبطأت الإجابة عليه، ولماذا يدب اليأس إلى قلبه؟ إذ من يدري فقد يكون التأخير في صالحه، ولربما كان سبب التأخير، والإبطاء هو أن الله سيجمع له بعد مرور هذه الفترة من الانتظار الإجابة، والأجر.

الإجابة: تعقيباً لدعائه.

والأجر: جزاء على تأخير الإجابة.

وهي طرق يتوخى الله سبحانه أن من ورائها أن يجزل العطاء لعبده بكل وسيلة، وبأي سبب.

إذاً، وعلى ضوء هذه التعليمات القيّمة لا يبقى مجال للاعتراض بالإبطاء ولا يكون تأخير الإجابة تبعاً للمصلحة، والتبديل بالأحسن منافياً لقوله تعالى:

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1].

وهكذا لبقية الآيات التي أمرت بالدعاء وتكفلت بالإجابة، فإن الله عزّ وجل صحيح قد أمر بالدعاء، وكذلك بنص الآية قد وعد بالإجابة، ومن الواضح أن الله لا يخلف وعده. كل ذلك لا إشكال فيه، ولكن المشكلة تنحل لو علمنا بأن الله عزّ وجل مع لطفه وعطفه ووعده بالإجابة، وإعطائه لعبده أكثر مما يستحق لم يقيد نفسه بالوقت، ولم يحدد إجابته بفترة معينة يعينها بين الدعاء والإجابة، بل ترك ذلك مفتوحاً له ليوازن بين الدعاء، وبين ما يعود بالنفع على الداعي من دعائه، أو ما يعود عليه بالشر لو كان ما طلبه على خلاف مصلحته، أو المصلحة العامة.

ولو ألقينا نظرة أخرى على هذه الوصية القيّمة لرأينا الإمام فيها يصور لنا عملية استدراج الله لعبده لجلبه إليه، لذلك يبدأ معه بالأمر بالدعاء والحث عليه، وأنه

---

(١) سورة غافر: الآية، ٦٠.

سيجد منه أذناً صاغية وقلباً مفتوحاً يقطر عطفاً وحناناً، ولكن على الداعي أن يعلم بأن هذا الكون يسير على نظام دقيق، وأن هناك بشراً يعيشون مثله لهم أيضاً رغبات كرغباته، وقد تختلف في مثل هذه الحالة مصالحهم، وفي صورة الاختلاف لأي منهما الترجيح. كل ذلك لابد من رجوعه إلى عين ساهرة ترعى الجميع ولا تقدم البعض على حساب الآخرين.

الطائفة الرابعة ـ ممن يقولون بالرفض:

وهؤلاء هم: القدريون الذين يتقيدون بأن كل شيء في هذه الحياة من خير أو شر، مقدر على الإنسان يراه بدون تخلف، وحيئنذ إذا كان الأمر مقدراً على الإنسان أن يلاقي ما كتب له فما هو معنى الدعاء والتضرع؟ بل لابد من الانتظار، وتوقع ما هو مكتوب عليه سواءً كان ذلك المقدر خيراً، أو مما هو من القضايا التي تجلب الويل عليه.

الرد على هؤلاء:

إننا سوف نتعرض في ضمن شرح الفقرة الآتية من الدعاء «وأسعده على ذلك القضاء» لبيان معنى كلمة القدر، وما يراد من ذلك. ولكن وعلى سبيل الاختصار نقول:

بأن القدر: إنما هو تقدير الشيء، وتدبيره. وبعد هذه المرحلة تأتي مرحلة القضاء، وهي مرحلة التحقق لما قدر، ودبر، أو الحتمية لما قدر، ودبر.

والآن فمع المستدل على رفض الدعاء بالقدر: بأن معنى القدر ـ كما عرفت ـ هو ما قدره الله على العباد.

أما مرحلة القضاء، والحتمية فمتأخرة، والداعي بدعائه يطلب من ربه أن لا يلحق قدره بقضائه بل يتجاوز عما قدره عليه: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾[1]، وهو على كل شيء قدير، فلا منافاة إذاً بين الدعاء، والقدر.

---

(١) سورة الروم: الآية، ٤.

الطائفة الخامسة ـ ممن يقولون بالرفض:

ويقول هؤلاء بأن الله سبحانه يعلم الغيب، ومطلع على كل شيء في هذا الوجود، وحتى على السرائر، والضمائر، ويعلم ما تجيش به نفس الإنسان، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا ينتظر الله من عبده أن يدعو ويتضرع؟ بل هو يرحم، وهو يغير ما دام يحس من عبده حسن النية وقد صنع مع نبيه إبراهيم (عليه السلام) مثل ذلك عندما ألقي في النار حيث نقل عنه أن جبرائيل سأله، وهو بتلك الحالة ألك حاجة؟ فأجابه: أما إليك فلا. قال جبرائيل: إذاً فادع الله. ويجيب إبراهيم قائلاً: علمه بحالي يغنيه عن سؤالي.

وفي بعض الروايات إنه قال له: حسبي من سؤالي علمه بحالي [١].

فلماذا إذاً التوسل والدعاء وهو العالم ولا يخفى عليه شيء [٢]؟

الرد على هذه الطائفة:

نقول إن عمل النبي إبراهيم (عليه السلام) وهو خليل الله لا يكون ملزماً لبقية البشر، والقضية ليست من الأحكام الشرعية ليتعبد بها، وعلى فرض ذلك، فشريعته تختلف عن شريعتنا.

على أن بين أيدينا من الآيات، والروايات ما يكفي لقناعة الإنسان بأن الله، وهو العالم والمطلع، هو الذي يحث عبده على الدعاء، ويأمره بذلك، ويعلمه طريقة اللجوء إليه، ويحب عبده الملحاح، وإنه كريم لا ينقص منه شيء إذا أجاب عبده، وأعطاه ما أراد، وسنتعرض في ثنايا البحث إلى ذكر الكثير منها كما وقد ذكرنا البعض منها فيما سبق، ومرة أخرى نقول:

إن الدعاء هو الموصل الروحي بين العبد وربه، ولا منافاة بين أن يكون الله عالماً بحال العبد، ولكنه ـ في الوقت نفسه ـ يحب أن يضرع إليه ليقبل عليه بوجهه الكريم،

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار/ ٦٨، ١٥٦، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان.

(٢) لاحظ للموضوع بتوسع الشيرازي: كتاب الدعاء.

فيجيبه إلى ما سأله، ويزيد على ذلك، فهو ذو الفضل العظيم.

٣ـ القائلون بالحد الوسط بين الرفض والقبول:

ويتخذ هؤلاء الحد الوسط فيرفضون القولين معاً:

فلا هم يأخذون بالدعاء في كل شيء كالقول الأول: ولا هم يتركون الدعاء مطلقاً كما يقوله الرافضون له. بل يسلكون حداً وسطاً بين هذين القولين. فهم يبنون حياتهم العملية على العمل والجد، ولكنهم ـ في الوقت نفسه ـ يتوجهون إلى الله أن يبارك لهم ركب الحياة، فيمنحهم التوفيق في أعمالهم، ويدفع عنهم الشرور والأحداث.

وهكذا في مجال الطب والمرض، فإن مراجعتهم للطبيب لا تكفي في نظرهم لو لم يبارك الله لهم هذه المراجعة، فهم يدعون الله أن يختار لهم الأصلح، ويجعل الشفاء على يديه لأن الطبيب وسيلة للشفاء، فمن الله يريدون إرشادهم إلى الوسيلة النافعة، وهكذا الحال في الحروب، والميادين الحربية، فهم يقابلون الأعداء بشجاعة، وبسالة، ولكنهم يطلبون النصر من عند الله لأن الله عزّ وجل هو الذي يقول:

﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[1].

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

وهكذا في الجانب العبادي من حياة الإنسان، فإنه لا معنى للقول بالإتكال على مغفرة الله، والإتيان بالمخالفات من ترك الواجبات والإتيان بالمحرمات، مضافاً إلى التجاوز على أموال الناس، وأعراضهم اعتماداً على عفو الله، ورحمته، بل لابد من الالتزام بكل ما هو مفروض. ويلجأ الإنسان بعد هذا إلى الدعاء لو زلت قدمه ليقبل الله توبته فيجد من عطف ربه ما يتجاوز به عما صدر منه.

وإذاً، فما يراه هؤلاء من الرأي هو انضمام العمل، والتوبة وطلب المغفرة،

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ١٢٦.

(٢) سورة الروم: الآية، ٥.

وطلب الأمور الحياتية، لا الإتكال على الدعاء فقط، ولا الإعتماد على النفس فحسب.

وقد ظهر بأن هذا القول هو القول الذي يرجح على القولين الأول والثاني بعد ردنا لهما كما تقدم.

وندلل عليه: بأن الإنسان لم يترك سدىً في هذه الحياة، بل خلق، ومنح العقل، والتفكير، وحمل المسؤولية الحياتية، وبذلك ميز عن بقية المخلوقات، لذلك كان عليه أن يعمل، وفي نفس الوقت، بما أنه مخلوق ضعيف، وقد صرح خالقه بهذه الحقيقة عندما قال: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [1]. فلابد أن يجبر ضعفه هذا باللجوء إلى من بيده القوة، والقدرة ليعينه في هذه المسيرة الشاقة، وليسدد خطأه في إرشاده إلى الطريق المستقيم.

قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [2]، ومن ذلك الذي يهدي إلى الصراط المستقيم غير الله عزّ وجل ؟ فلو لم يكن عمل لما عرفت لذة التوفيق، ولو لم يكن ذنب لما عرف طعم للغفران، والرحمة.

ومع كل هذا ولتحقيق الأخذ بهذا القول لابد لنا من البحث حول الدعاء ومواكبة المسيرة الدعائية على الصعيدين: التاريخي، والواقع الخارجي لنحيط بالموضوع إحاطة كاملة، ولنثبت أن الدعاء من الحقائق الثابتة، ولا إمكان لرفضه، ولا للأخذ به مطلقاً كما تقوله الجماعة الأولى.

ونقصد بالجانب التاريخي: ملاحظة حال الدعاء، وهل أنه من القضايا المستحدثة، أو أن له تاريخه القديم، وهل يحظى تأييد بعض الديانات دون البعض الآخر، أم أنه مما تقول به كافة الأديان السماوية.

أما البحث عن الجانب التاريخي الخارجي فيلاحظ فيه حال الدعاء، ومدى

---

(١) سورة النساء: الآية، ٢٨.

(٢) سورة الحمد: الآية، ٥.

ضرورته للإنسان، ومدى تعلق الشخص به على الجانبين العبادي، والاجتماعي.

١ـ المسيرة الدعائية تاريخها:

من استعراض الآيات القرآنية، والحوادث التاريخية بالإمكان القول: بأن الدعاء عرف منذ اليوم الأول لتاريخ الإنسان الأول آدم (عليه السلام). فالذي يواكب القرآن الكريم يرى أن آدم هو أول من دعا، وتضرع إلى الله من أبناء هذه الأرض. حيث حكى القرآن قصته مع إبليس بعدما حذّره الله، وزوجته حواء من الاقتراب إلى شجرة معينة في الجنة، وعدم الأكل منها، وموضوع العداء الذي نشب بينه، وبين إبليس من عدم سجوده لآدم بعدما صدر الأمر الإلهي للملائكة بالسجود له: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[١].

وبدأت معركة الحياة، وترك آدم الجنة، وخرج من النعيم الدائم، وغضب الله عليه لعدم امتثاله النهي بعدم الاقتراب من الشجرة المنهي عنها. ولنترك الخلاف بين العلماء في حقيقة هذه الشجرة، ولماذا خصت هي دون غيرها بالنهي، فلذلك مجال آخر من كتب التفسير.

ونشأ العداء بين آدم، وإبليس. فآدم يرى إبليس السبب في خروجه من الجنة وحرمانه من الراحة الأبدية لأنه هو الذي رغبه وزوجته في الأكل من الشجرة المنهي عنها.

قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۞ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۞ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن

---

(١) سورة البقرة: الآيات، ٣٤ ـ ٣٦.

تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١).

فإبليس إذاً مصدر شقاء آدم، وسبب غضب الله سبحانه عليه، وفي الوقت نفسه، فإن إبليس يرى في آدم نفس النظرة، فهو مصدر شقائه، وطرده، وإبعاده عن حضيرة القدس، فلولا آدم ولولا الأمر بالسجود له لما وصل الأمر به إلى هذا الحال من الشقاء الدائم، واللعنة إلى يوم الدين.

قال تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۞ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ (٢).

ويحس الزوجان بالندامة، ويشعران بالتقصير، ولكن كيف يتداركان الموقف، وينالا رضا الرب؟

بالتضرع، وإظهار الندم، والتوسل إليه هو كل ما يملكانه من وسائل موصلة إليه سبحانه، ومن هنا، تبدأ المسيرة الدعائية حيث يتجه الزوجان إلى مصدر اللطف، والحنو، وبلسان كله ضراعة يبدآن: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (٣).

وهذا هو أول دعاء يصدر من الأرض إلى السماء، وهو الاستغاثة به عزّ وجل، والإستكانة إليه، وطلب المغفرة عما صدر منهما من مخالفة وعصيان. وحاشا لله أن يرد عبداً التجأ إليه نادماً.

قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (٤).

ويجد آدم من عطف ربه ما يمهد له الطريق لقبول توبته فعلمه مفاتيح التوبة، وهي الكلمات التي تلقاها منه وقد قيل في تلك الكلمات أنها:

---

(١) سورة الاعراف: الآيات، ٢٠ ـ ٢٢ .

(٢) سورة الاعراف: الآيتان، ١٢ و ١٣ .

(٣) سورة الاعراف: الآية، ٢٣ .

(٤) سورة البقرة: الآية، ٣٧ .

(اللهم لا إله إلاّ أنت سبحانك، وبحمدك رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين. اللهم لا إله إلاّ أنت سبحانك، وبحمدك رب اني ظلمت نفسي فارحمني انك خير الراحمين.

اللهم لا إله إلاّ أنت سبحانك، وبحمدك رب اني ظلمت نفسي فتب عليّ انك أنت التواب الرحيم) [١].

جاء ذلك عن الامام محمد الباقر (عليه السلام) وعن مجاهد.

وقيل في الكلمات غير هذا مما نقلته كتب التفسير.

من هذا العرض لقصة آدم (عليه السلام) تبين لنا، أن الله هو الذي وضع الخطوط الأولى للمسيرة الدعائية بتعليمه لأول مخلوقين من البشر كيف يدعوان، وكيف يتضرعان.

وعندما يتعرض القرآن الكريم لقصة إبراهيم (عليه السلام) في مناجاته مع ربه نراه يذكر الآيات التالية:

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [٢].

إن هذه الطلبات المتوالية ليست إلاّ الدعاء إلى الله لتحقيق ما تحمله هذه الفقرات من متطلبات.

وفي مشهد آخر نرى الآيات الكريمة تنقل عرضاً منسقاً لقصة إبراهيم مع زوجته ـ سارة ـ عندما أمره الله تعالى بالهجرة لإبعاد زوجته الثانية ـ هاجر ـ، وطفلها إسماعيل عن المكان الـذي يسكن فيه لمضايقتهم لزوجته الأولى ـ سارة ـ، ولسنا في صدد بيان السبب في هذا الإبعاد، فلكتب التفسير والمصادر التي تكفلت لعرض قصص الأنبياء مجالها في ذلك بل المهم من نقل هذا المشهد هو ملاحظة الفقرات

---

(١) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن/ في تفسيره لهذه الآية.

(٢) سورة الشعراء: الآيات، ٨٣ – ٨٧.

الدعائية، التي جاءت على لسان إبراهيم (عليه السلام).

وتسير القافلة الصغيرة تقطع الوديان لتصل إلى مكان البيت الحرام فتؤمر بالنزول.

ويحط الركب في قلب الصحراء المترامية على غير كلأ، ولا ماء وتنتهي مهمة الأب فلابد له من الرجوع إلى مكانه، ويلقي نظراته الوداعية، ويعود أدراجه راجعاً فتلحق به زوجته، وهي من هولة من هذا المنظر الموحش فتقول له:

إلى أين تذهب، ولمن تتركنا في هذا الوادي المقفر؟

وتمزق اللوعة قلب الأب الوقور فبماذا يجيب؟ وبأي شيء يعتذر؟

ولكنه مأمور بذلك من ربه، ولابد له من إكمال الشوط فلا يجيبها، بل يستمر في السير.

وتعود هاجر إلى الراكب لتتعلق بأذياله وهي تقول: (الله أمرك بهذا).

ويجد إبراهيم المخرج الذي ينقذه من الحيرة فيقول: (نعم).

وعندها تلملم المرأة المؤمنة أطرافها وهي تقول: (إذن لا يضيعنا الله).

ثم رجعت إلى حيث تركت طفلها لتستسلم إلى قدر الله وقضائه، وتتعاقب نظرات إبراهيم يلقيها على هذه الاسرة الصغيرة وتتلاحق أنفاسه، والأسى يحز في قلبه، وتنساب الرقة من فمه، وهو يلقي النظرات الأخيرة على الطفل وأمه، فيرددها كلمات هادئة:

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[1].

وتلقى هذه الكلمات الإجابة من ربه، وإذا بمكة ذلك الوادي الموحش المقفر يحج إليها الناس في كل وقت، ومن كل فج عميق.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية، ٣٧.

ولو لاحقنا المشاهد الأخرى لقصص إبراهيم لرأينا الدعاء لا ينفك عن لسانه عند بناء البيت، وفي غير ذلك من مشاهد حياته، وضراعة لأجل تثبيت دعائم التوحيد.

نظرة الأديان السماوية إلى الدعاء:

كان الغرض من نقلنا لقصتي آدم، وإبراهيم (عليهما السلام) هو عرض نماذج من صور الدعاء التي صدرت منذ بدء التاريخ الإنساني في عهده القديم مما يعطينا فكرة واضحة عن قدم الدعاء بقدم الإنسان، وأنه لا مجال لإنكار هذه الحقيقة من الجهة التاريخية.

أما نظرة الأديان السماوية إلى الدعاء، فإن الأديان التي جاءت بها السماء نرى كلها تحث على الدعاء، والالتجاء إلى الله عزّ وجل ومناشدته، ومناجاته، وها هي قصص الأنبياء تزخر بالأدعية التي وردت على لسان كل نبي سواءً في الدعاء على قومه، أو لصالحهم فالكل دعاء، وتضرع، وطلب من الله، ورغبة إليه في تحقيق شيء يريده الداعي.

وتتناقل الكتب كثيراً من المناجاة التي كان الأنبياء يناجون بها ربهم، والأحاديث الواردة من الله لهم في فضل الدعاء، ومنزلة الداعي وأن الله لا يخيب من دعاه ومن التجأ إليه.

ولولا خوف الإطالة، والخروج عن صلب الموضوع لعرضنا الكثير من ذلك.

الإسلام والدعاء:

وقد لا يكون الإنسان مبالغاً إذا قال: بأنه لم تهتم شريعة من الشرائع السماوية كشريعتنا الإسلامية بالدعاء، والتوجه إليه تعالى، وقد جاء ذلك واضحاً في الآيات القرآنية، والأخبار المروية عن النبي (صلى الله عليه وآله) وخلفائه (عليهم السلام) حيث تناولت الدعاء من وجوه عديدة.

الأول: الآيات المصرحة بضمان الله في الاستجابة.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ (٣).

الثاني: الآيات التي تأمر وتحث على الدعاء، والتوجه إليه عزّ وجل.

قال تعالى: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٤).

وقال عزّ وجل: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ (٥).

وقال جلّ إسمه: ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٦).

وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (٧).

الثالث: تعليم الداعي بكيف يدعو ربه.

قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ (٨).

وقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ (٩).

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا

---

(١) سورة البقرة: الآية، ١٨٦.

(٢) سورة غافر: الآية، ٦٠.

(٣) سورة النمل: الآية، ٦٢.

(٤) سورة الاعراف: الآية، ٥٥.

(٥) سورة الإسراء: الآية، ١١٠.

(٦) سورة غافر: الآية، ١٤.

(٧) سورة الاعراف: الآية، ١٨٠.

(٨) سورة المؤمنون: الآية، ٢٩.

(٩) سورة الإسراء: الآية، ٨٠.

عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾[2].

وقال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾[4].

الرابع: النهي عن الدعاء لغير الله، وتعجيز غيره في تمكنه من إجابة الدعاء، وإيصاله إلى ما يهدف إليه.

يقول عزّ وجل : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ﴾[5] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[6].

وقال عزّ اسمه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ ﴾[7].

وقال عزّ وجل: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾[8].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾[9].

وأما الرسول الأعظم فقد نقل عنه الكثير من حثه، وعنايته، وترغيبه في الدعاء،

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٠١.
(٢) سورة الاعراف: الآية، ١٥٥ .
(٣) سورة آل عمران: الآية، ١٦ .
(٤) سورة الحشر: الآية، ١٠ .
(٥) سورة الحج: الآية، ٧٣ .
(٦) سورة الاعراف: الآية، ١٩٤ .
(٧) سورة الاعراف: الآية، ١٩٧ .
(٨) سورة يونس: الآية، ١٠٦ .
(٩) سورة فاطر: الآية، ١٣ .

وقد جاء عنه (ﷺ): (الدعاء سلاح المؤمن، وعمود الدين، ونور السماوات والأرض)[1].

وعنه (ﷺ): (إن الله عزّ وجل حي كريم يستحي إذا بسط الرجل إليه يديه أن يردهما صغراً ليس فيهما شيء)[2].

وعنه (ﷺ) أيضاً: (ليس شيء أكرم على الله من الدعاء)[3].

وقد رويت عن النبي (ﷺ) وأهل البيت (عليهم السلام)، وكثير من الصحابة الأدعية التي تقرأ قبل الصلاة، وما بعدها، وعند ارتفاع النهار، وعند الزوال، وعند الغروب، وفي آناء الليل وفي كل ساعة، ولأيام الاسبوع، ولأيام الشهر، ولكثير من المناسبات في عرض السنة من أولها إلى آخرهما، وقد نقل عن النبي (ﷺ) قوله «الدعاء مخ العبادة»[4]. (فكما أن مخ الإنسان يقوم عليه الإنسان فكذلك الدعاء تقوم عليه العبادة)[5].

ولا أدري بماذا يجيب القائلون برفض الدعاء عن هذه الأدعية من بدء الخليقة إلى ما جاءت به الشريعة الإسلامية والتي هي خاتمة الرسالات السماوية؟ وهل من السهل رفض هذه الحقيقة؟

كما ولا إختصاص بالدعاء من حيث هو دعاء، وإن لم يكن توسلاً إلى الله عزّ وجل بأمة دون أخرى، بل الدعاء كرغبة إلى الغير أو إستعانة بالآخرين، أو استغاثة يصدرها المحتاج عند الشدة. كل ذلك طبيعي لمن تنزل به كارثة، أو يجد في نفسه الحاجة إلى الآخرين.

---

(١) لاحظ الكليني: الكافي/ كتاب الدعاء، باب (الدعاء سلاح المؤمن)، حديث ١، وباب (حسن الظن بالله)، حديث، ٢، والتصوف الإسلامي في الأدب، والأخلاق: ٢. ٣٣ منشورات المكتبة العصرية .

(٢) المصدر المتقدم/ الكافي، كتاب الدعاء، حديث١، باب (حسن الظن بالله)، حديث٢..

(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين/ ١، ٣٩٦، منشورات مؤسسة الحلبي، أخرجه عن الترمذي، ومثله ما جاء عن الطبرسي: مكارم الاخلاق/ باب فضل الدعاء، وكيفيته.

(٤) المصدر المتقدم: ١، ٣٩٦.

(٥) مع الأنبياء في القرآن الكريم ١٣١ / الطبعة السادسة.

وحتى أولئك الذين لا يقولون بوجود الله، فإن بعضهم يدعو شخصاً آخر له مقامه، ومنزلته، ويرغب إليه، ويتملق له لحاجة من حوائج الدنيا، أو لجاهٍ، أو منصب، وما شاكل، وما هذا إلاّ صورة من صور الدعاء.

الدعاء من الناحية الاجتماعية:

قد يرسم البعض في مخيلته صورة موحشة للداعي، فيعتبره شخصاً خاملاً يشغل نفسه بالذكر والدعاء، مبتعداً عن المجتمع يركن إلى الصوامع، وأماكن العبادة، وبعيداً عن العمل، وما يتطلبه من مجهود ومثابرة، لذلك، ومن إطار هذه الصورة الكئيبة ينقم على الدعاء والداعين، ولربما عبر البعض من هؤلاء عن الدعاء: بأنه المخدّر الذي يميت الطاقات الكامنة في الإنسان، ومن ثم يجر مثل هذا الإنسان الخامل الويلات على المجتمع الواعي الناهض.

ويسوق هؤلاء دليلاً على صحة دعواهم هذه ما يشاهده الإنسان من كثرة الدعاء عندما يستعرض المصادر الدعائية حيث يرى لكل ساعة دعاء خاصاً في ضمن الأربع وعشرين ساعة مجموع اليوم والليلة، وهكذا لكل يومٍ من أيام الشهر، وكذلك الفصول، والمناسبات ولكل حركة وعمل يقوم به الإنسان، حتى عند دخوله إلى المرافق ورفع الحاجة، وعند ركوبه، ونزوله، فلكل ذلك دعاء خاص.

وحسب الداعي أن ينشد إلى الدعاء، ويعيش في دوامة من التوسلات ليترك حياته العملية، ويدور في هذه العجلة.

وبالأخير، فالحياة الاجتماعية في نظر هذا البعض لا تلتئم مع الدعاء والداعين، بل لابد من الابتعاد عن كل ذلك، أو لا أقل من التقليل بشكل لا يؤثر على طابع الحياة النابضة، وما تقتضيه وتتطلبه من عملٍ، ونشاط، وجهود مكثفة.

وأقف والحيرة تأخذ على مسالك التفكير أمام هذا البعض وما يرسمه للدعاء والداعي، من صورٍ تعمدت فيها ريشة الراسم فأخرجتها على هذا النحو من التشويه، والإضطراب.

وقد لا ألوم هذا البعض، وغيره إذا نظروا إلى الدعاء، والداعي من خلال هذه الصورة التي وجدوا فيها: هذا النحو من التهذيب النفسي كلاً على المجتمع، والإجتماع.

ولكن، وبقليل من الهدوء، والتروي أود ممن أزعجتهم صور الدعاء أن يخففوا من غلوائهم لندرس معاً الفوائد التي يجنيها المجتمع من الدعاء والداعي، ومن ثم للحكم مجال واسع خصوصاً، وأننا نحكّم في مثل هذه القضايا الضمير الحي ليقول كلمته: بلا، أو نعم. نقول: مما تقدم عرفت، أن القائلين بقبول فكرة الدعاء، والعمل على طبقه بالإمكان **تقسيمهم إلى جماعتين**:

الأولى: تتطرف كثيراً، فتأخذ بالدعاء، وتعتمد عليه دون أي شيء آخر لتبني حياتها عليه بالمرة.

والثانية: معتدلة تتخذ من الدعاء مَعيناً لها في أعمالها العبادية، والإجتماعية.

أما الجماعة الأولى: فلا أحسب ـ كما سبق أن قلنا ـ أن يقرهم أي دين سماوي، وعلى الأخص الإسلام، لأنه دين عمل، وعبادة يشتركان معاً في بناء حياة فضلى جامعة، وبكل مجالاتها.

وإذا كان المعترضون على فكرة الدعاء يقصدون من وراء اعتراضهم على الدعاء هؤلاء الأشخاص، وما يذهبون إليه، فنحن، بل كل مسلم لا يقر عمل هؤلاء على عزوفهم عن الحياة، والعكوف في جوامع العبادة، وصحيح أن كل واحدٍ من هؤلاء بإنضمامه إلى الآخرين يصبح كلاً على المجتمع، وبلاءً عليه. والإسلام يرفض هذه الفكرة، لأنه كرّم العامل، وحث على الحياة العملية بما لا نظير له في الأديان الأخرى.

إذاً، فموضوع بحثنا **مع الجماعة الثانية**، والذين يقولون بالدعاء ولكن على نحو يكون منضماً إلى العمل، والجد في بناء المجتمع، وكيانه وعلى جميع جوانبه، وجهاته.

وعند تقييمنا لهذه الجماعة لابد لنا من **تقسيم الدعاء، وطلبات الداعي إلى قسمين**:

١ـ الدعاء إلى الله في التجاوز عما صدر من الداعي من مخالفات، ومعاصي في هذه الحياة.

٢ـ الدعاء إلى الله في الإستعانة به في الأمور المعاشية، والحياتية الأخرى مما تحيط بالإنسان، ومجتمعه في هذه الدنيا.

١ـ الدعاء إلى الله من القسم الأول:

ولنقف مع الداعي لنستمع إليه، وهو يدعو الله أن يتجاوز عما صدر منه من ذنوب قد ارتكبها لنرى ما هي الذنوب، وهل أن من يطلب التجاوز من ربه عن مخالفاته يعد عضواً خاملاً يضر في كيان المجتمع، وينخر فيه؟ ولابد لنا والحالة هذه أن نتناول في بحثنا الذنوب التي صدرت من الداعي، وهو يدعو الله في التجاوز عنها، وهي على قسمين:

القسم الأول: الذنوب الصادرة منه، والمتمثلة بتجاوزه على الآخرين في أموالهم، وأعراضهم، بل مطلق حقوقهم حتى الإعتبارية منها.

القسم الثاني: الذنوب المتمثلة في التجاوز على حقوق الله في ترك الواجبات، والإتيان بالمحرمات.

أما الذنوب من القسم الأول: فإن طلب الداعي من الله في التجاوز ليس معناه أن لا يتحقق عليه ما هو مرتب عليها من ضمانات مالية، أو ديات، وما شاكل ذلك، فإن مثل هذه الأمور لا علاقة لله بها، ولا مجال لطلب العفو من الله عنها، بل لابد من توسل الداعي إلى الله أن يهيء السبل الكفيلة بإرضاء من تجاوز عليهم من تهيئة مال، أو تهيئة أجواء تحصل له رضا الآخرين، وصفحهم عن حقوقهم التي تجاوز عليها الداعي في حياته، فحقوق الناس محترمة كما أن أعراضهم ودماءهم محترمة أيضاً، فإن كان الإنسان مديناً لآخرين فلابد من بذل جهده لتهيئة المال لتفريغ ذمته مما انشغلت بها من ديون.

وأما الذنوب من القسم الثاني: فإن حقيقة الدعاء إلى الله في العفو عنه وإظهار

الندم والتوبة، ما هو إلاّ توقيع عهدٍ من الداعي إلى الله بأنني: يا رب عدت إنساناً كاملاً لا أتجاوز، ولا أعصي لك أمراً، وسوف أكون ذلك الشخص الذي يؤمّن جانبه، ولا يتجاوز لا على حقوق الله ولا على حقوق الآخرين، ومثل هذا الشخص ـ وبهذه الحالة من الندم ـ سيكون عضواً نافعاً في هذه الحياة، وبشراً قوياً في إرادته يأمن كل أحد منه، لأنه عاد يراقب الله في كل حركاته وسكناته، فلا يحتاج إلى رقيب خارجي، بل تكفيه رقابة الله عزّ وجل له، والخوف منه ليسير على الطريق المستقيم الذي رسمه الله لعباده، ووعدهم على ذلك بالنعيم الدائم في الدار الآخرة، إضافة إلى ما لهم من الدنيا من مكرمات نتيجة تعلقهم به.

وإذاً، فلماذا نتجاوز، ونتطاول، ونعتبر مثل هذا الشخص فرداً خاملاً ينخر في هيكل المجتمع وبنائه، وهل المجتمع الصحيح إلاّ المجموعة الكبرى من أمثال هذا الشخص المؤمن؟ وهل المجتمع الصحيح يستغني عن أمثال هؤلاء المخلصين؟

٢ـ الدعاء إلى الله من القسم الثاني:

وكما قلنا أن الدعاء من القسم الثاني: هو الدعاء فيما يعود إلى الأمور الحياتية، وهي لا تخرج عن طلب الرزق، والعافية والحفظ من العدو والتوفيق للرقي، والولد الصالح، وما شاكل هذه الأمور مما يحتاجها الإنسان لإرادة حياته المعاشية، والإجتماعية.

وأي مانع من الاستعانة بالله في مثل هذه الأمور وقد قلنا ـ كما سبق ـ أننا لا نتكلم مع داعٍ مفرط متكل، بل مع داعٍ عاملٍ عاقلٍ يعمل بعد أن يفكر، ويقدم على الأمور بجدٍ، ونشاط، ولكنه يطلب من الله أن يبارك له في عمله، أو أن يعينه على التغلب على عدوه، أو أن يهيء له الطبيب الذي يكون شفاء مريضه على يديه أو أن يعمي أبصار الحاسدين عنه، وهذا كناية عن صرف أنظار من يتربص له عما يقوم به في أعماله، وما يحصل عليه من رزق أو أن يرزقه الحظ في كسبه. في كل ذلك نراه يعمل، ويجهد نفسه ففي مقام الكسب لا يفتر عن الدخول في كل ما يربحه، ويأمل من ورائه النفع.

وفي مقام الدفاع عن ماله، أو عرضه، أو وطنه، أو بيضة الإسلام وجماعتهم يبذل قصارى جهده، ويطلب العون من ربه لينصره على العدو.

وفي مقام التداوي يسأل، ويبحث عن الطبيب الماهر ليذهب إليه فيباشر عنده، ويعرض نفسه عليه، ولكنه يطلب من الله أن يجعل العافية له على يديه. وهكذا في بقية المجالات والأعمال. فهل يقال لمثل هذا الإنسان: أنت كلُ على المجتمع؟

ولماذا يكون كلاً، وعلى من يكون كلاً، وعبئاً ثقيلاً؟

إنه مضافاً إلى ما يقدمه من جهد وعمل، يناجي رباً يرجع إليه في أموره لأنه الخالق، والرازق، والمدبر، والأمر كله بيده.

وما المانع من أن يذكر الله، ويدعوه العبد في أوقات معينة من اليوم والليلة، وهكذا عقيب الصلوات بما لا يؤثر على مسيرته الحياتية ليتزود بها لآخرته لإيمانة بأن هناك جنة، ونار، وحساب وكتاب، وتقييم للأعمال، قال تعالى:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[1].

وقال تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ﴾[2].

فهل يقال لمثل هذا الإنسان لا تتزود لأنك كلٌ على المجتمع؟

الإنسان الصحيح لا يسرق، ولا يزني، ولا يتعدى على حقوق الآخرين ولا يتخلف عن واجباته، وينتهي عن كل مخالفة، ويدعو ربه أن يأخذ بيده في مسيرته ليجد من ربه عطفاً، وحناناً، ونداءً يردده وهو يقول: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[3].

وأما ما ساقه المعترض من وجود الأدعية في كل ساعة، وفي كل وقت، ولكل يوم، ولكل فصل، ولكل حركة مما يدعو الإنسان إلى ترك كل شيء، والانشغال بالدعاء، وهذا معلوم الضرر بالنسبة إلى الاجتماع، والمجتمع فنقول في جوابه:

---

(١) سورة الزلزلة: الآيتان، ٧ و ٨.

(٢) سورة النساء: الآية، ٤٠.

(٣) سورة المؤمن: الآية، ٦٠.

إن ذلك أمر لا مجال لإنكاره، فكتب الذكر، والأدعية تذكر كل ذلك وأكثر مما ذكره المعترض، ولكن النقطة التي لابد من الالتفات إليها هي:

إن الدعاء ليس من الواجبات ليكون المكلف ملزماً بالإتيان به فيؤخذ عليه تمام الوقت، فلا يبقى لديه مجال لأعماله، ومن ثم يكون راهباً. بل الدعاء من الأمور المستحبة، والتي تعود بالنفع على الداعي، وقد خصص لكل وقت دعاء خاص به، وترك الموضوع إلى المكلف، فمتى ما وجد الفراغ، وفي أي ساعة، وجد في نفسه تهيأً، وحالاً للدعاء دعا ربه، وتضرع إليه فيما يطلبه.

إن مثال ما نحن فيه من الدعاء المكثف، وفي كل وقت أشبه شيء بطريق طويل يريد المسافر قطعه، فلو زود بين مسافة، ومسافة أخرى قصيرة بمحطة للوقود كما نشاهده في الطرقات بين البلدان من محطات ـ البنزين ـ فهل معنى ذلك أن الإنسان يزود مركبته من كل هذه المحطات التي يجدها في طريقه، وهو يقطع المسافة من بلد إلى آخر، وعلى الأخص لو كانت المسافة بين كل محطة وأخرى قريبة؟

وطبيعي: أن يكون الجواب: بلا.

بل يتزود في الوقت الذي تحتاج إليه مركبته إلى الوقود، ومن أقرب محطة تكون أمامه.

وهكذا لو وضع لشخص غذاءً في مكان محفوظ، ولمدة أيام عديدة فهل معنى هذه التهيئة أن يأكل في كل ساعة، وفي كل وقت، وفرصة ما يجده أمامه من طعام، أو أنه يتناول عندما يجد من نفسه رغبته للطعام جوعاً؟

إن تخصيص الأدعية في كل الأوقات كتخصيص محطات الوقود في الطرق العامة، وكتهيئة الطعام للشخص، والفارق بينها: أن الطعام هو غذاء الجسم، ومحطات الوقود هي غذاء ما يركبه الإنسان والدعاء هو غذاء الروح، فمتى ما وجد الإنسان الرغبة، أو الحاجة إلى الدعاء، وكانت لديه الفرصة دعا، وتضرع، وتزود لينشط روحه كما يلزمه ما ينشط به جسمه، ويسير به مركبته ـ كما ذكرناه ـ على أن الناس يختلفون من ناحية أوقات فراغهم، فالبعض منهم نراه يجد الوقت المناسب له

عند الصباح لحصول الوقت الذي يتفرغ فيه للدعاء، وتوجهه إلى الذكر، والضراعة، بينما يكون البعض الآخر متفرغاً في العصر، وهكذا في الليل، ومثل ذلك في بقية الأوقات. فليس معنى وجود الأدعية في كل وقت هو شدّ الإنسان إليها في كل تلك الأوقات بحيث يحتم عليه قراءتها، بل هو تنبيه له بأن الله لا يحجبه عن العبد شيء، فهو في كل وقت يقبل بوجهه الكريم عليه.

الدعاء من الناحية النفسية:

كل إنسان في هذه الحياة لابد أن يبتلى بمشاكل وقضايا يحتاج فيها إلى من يستشيره فيها، ويوجهه إلى الطريق الصحيح، وإلى الحل الذي ينقذه من مشاكله، وما يضايقه.

ولذلك نجد العادة جرت على وجود المستشارين لكل الشخصيات العالمية، والذين يديرون، ويصرفون الأمور في الممالك في كل بقعة من بقاع العالم.

إن الركون إلى الآخرين يحل للشخص كثيراً من الأمور التي تكون السبب في تعكير جو الإنسان، وهدوئه النفسي ليجد من ذلك الغير يداً تحنو عليه وتحل له الكثير من الأزمات، والقضايا المهمة، وبذلك يتمكن الشخص من السير في هذه الحياة على النحو الأفضل.

أما الإستبداد، وعدم الإطمئنان بأحد فإن لذلك ويلاته ومصائبه ولا نحتاج لسوق أمثلة على هذا الأمر لوضوح ذلك عند الجميع إذ ما من شخص إلاّ ويجد نفسه محاطاً بمشاكله، وقضاياه بحيث يحتاج إلى من يعينه في حل الكثير منها.

ومن هذا المنطلق، نجد الدعاء خير مَعين للفرد للتغيب على هذا النوع من القضايا، والمضايقات.

وإذاً، فمَن للإنسان أقرب من ربه يناجيه، ويطلب منه أن يكون له عوناً في نكباته، وأزماته؟

إن المؤمن الواعي يجد من لذة الدعاء، والتضرع إلى الخالق ما يفقده غيره من

الذين لا يؤمنون بالله، وبعظمته. ذلك، لأن الإيمان بالله: يقوي من عزيمة الإنسان، ويدفعه لخوض هذه الحياة بثبات، ورسوخ.

الإيمان بالله: يرفع من معنويات المؤمن ليشعر بركونه إلى تلك القوة القاهرة حيث لا يقف في طريق إرادتها شيء.

الإيمان بالله: يوحي إلى النفس بوجود اليد الحانية تلمس كل جرحٍ من جروحها بهدوء، وعطف، وحنان.

الإيمان بالله: الدواء الشافي يجد طعمه كل مريض نفض الطب يديه من شفائه.

والإيمان بالله: فوق كل هذا، وذاك.

والدعاء: هو الخيط الموصل بين العبد، وربه.

وهو: النغم الذي تهدأ النفس على ترانيمه العذبة، فتستمد منه الغذاء الروحي.

وكما قلنا، إن الإنسان كما يحتاج لجسمه الغذاء الكامل ليبقى حياً، فكذلك الروح تحتاج إلى الغذاء الكامل لتقوى على إكمال الشوط في هذه الحياة العاتية الزاخرة بالأتعاب، والمشاكل.

إن فكرة الركون إلى الغير لا تختص بالمؤمنين، بل لا يستغني عنها حتى الملحدون الذين يعبدون الأصنام، وما الدعاء بين يدي الصنم إلاّ هدوء للنفس يجده الداعي، وهو يرتل أمام معبوده آيات الشكر، والثناء، ويطلب منه أن يبارك له.

أما القائلون بوجود الله، فإنهم يرون من الوهن أن يبارك الإنسان ويركن إلى حجر لا ينفع، ولا يضر ليبثه شكواه، ويرجو منه ما يعجز عن القيام بتحقيقه، بل لابد من الركون، واللجوء إلى الله عزّ وجل خالق الخلق، ومدبرهم ذي القدرة غير المتناهية: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

---

(١) سورة يس: الآية، ٨٢.

الاعتراض على أدعية المعصومين واستغفارهم:

العصمة هي: التنزيه عن ارتكاب الكبائر، والإتيان بالصغائر، وهل أن ذلك من باب الملكة، أو لا؟

أو ما هو تعريف الذنوب الكبيرة، وما هي الصغائر؟

كل ذلك موكول إلى محله خوفاً من الإطالة.

والمهم هو معرفة أن الامامية يرون في الأنبياء، والمرسلين. والأئمة من أهل بيت رسول الله (ﷺ) العصمة من الذنوب ويشترطون فيهم ذلك، ويأتي هذا الإشتراط نتيجة ما يتمتعون به من لزوم قيادتهم للأمة، وإلقاء مسؤولية تبليغ الأحكام الشرعية على عواتقهم، وهذه الصلاحيات لابد لها من التنزه عن الذنوب، والبعد عن القبائح.

ومن هذا الإطار التنزيهي يقع القائلون بالعصمة في مشكلة بكاء هؤلاء المنزهين عن الذنوب، وتوبتهم، واستغفارهم، فيقال: ما معنى التوبة، والتضرع للتجاوز عن ذنب يكون الداعي منزهاً عنه، وإذا كان النبي غير مذنب فما معنى تضرعه وطلب العفو، والتوبة عن شيء لم يصدر منه؟

وهكذا الحال فيما يحدثنا التاريخ عن حالات الامام علي بن أبي طالب(عليه السلام)، وأولاده الذين علموا الناس كيفية الدعاء وأذاقوهم حلاوة المناجاة مع الله عزّ وجل.

وقد زخرت كتب الأدعية، والأذكار من مناجاتهم، وما تتضمن تلك المناجاة من خطاب الله: بعصيتك، وتجاوزت، وتجرأت وما شاكل من العبادات التي تتنافى، ومقام العصمة من الذنب، نعم غير المعصوم من الصلحاء، والمؤمنين حيث يحتمل صدور الذنب من أحدهم، ولو على نحو الصغائر البسيطة، فلا يتصور في مثل هذا التعبير لو صدر منهم أي منافاة مهما كانت درجات التقوى عندهم عالية لأن المشكلة تتوجه إلى حيز العصمة، والتي يكون صاحبها منزهاً عن الذنب فمثل هذا ما هو معنى عصيانه، ومخالفته؟

الجواب عن هذا الاعتراض:

وقد أجيب عن هذا الاعتراض، أو بالأحرى قد ذكرت لحل هذه المشكلة وجوهاً عديدة:

الوجه الأول: ما ذكره الشيخ الصدوق(رحمه الله) في اعتقاداته حيث قال أنه كلما كان في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١]، ومثل قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[٢]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾[٣]، وما أشبه ذلك، فاعتقادنا فيه أنه نزل على إياك أعني واسمعي يا جارة: انتهى.

والمقصود به إسماع الأمة، وحينئذ فيكون بكاء المعصومين ودعاؤهم ـ بناءً على هذا القول ـ هو إسماع الآخرين، وإلاّ فهم منزهون عن كل ذلك.

وهذا هو اختيار السيد المرتضى في كتابه تنزيه الأنبياء، فإنه أجاب عن الآية الأولى وهي قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ما لفظه.

والجواب قد قلنا في هذه الآية أن الخطاب للنبي(صلى الله عليه وآله) والمراد به أمته فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: نزل القرآن بإياك أعني، واسمعي يا جارة.

الوجه الثاني: أنه تعليم لأتباعهم كيف يتضرعون إلى الله تعالى.

وقد رد هذا الوجه: بأنه من البعيد أن يصرف النبي (صلى الله عليه وآله) أو الإمام (عليه السلام)، عمره في مثل ذلك مع إمكان التعليم بواسطة القول فلماذا إذاً يبكي ويتضرع؟ على أن الأئمة، وغيرهم من المعصومين (عليهم السلام) قد يكون يعملون ذلك في كثير من الأوقات بعيدين عن أعين الناس، وفي أماكن نائية عنهم، بل وربما في مواضع لا يصل إليها

---

(١) سورة الزمر: الآية، ٦٥.

(٢) سورة الفتح: الآية، ٢.

(٣) سورة الإسراء: الآيتان، ٧٤ و ٧٥.

من الناس أحد.

الوجه الثالث: أنه قد صدرت منهم الأفعال المكروهة كالصلاة في الثياب السود ونحو ذلك:

وضعف هذا الوجه: بأن ارتكابهم المكروهات إنما هو لأجل التعليم والتفهيم حتى لا يظن بذلك أنه محرم بسبب النهي الوارد عليه فصدوره منهم إما على طريق الوجوب عليهم، أو الاستحباب.

الوجه الرابع: ما قيل أنه يجوز أن يوسوس لهم الشيطان في فعل من الأفعال فيرجعون إليه تعالى، وتكون تلك الوسوسة وسيلة إلى أعالي الدرجات التي لا تحصل إلاّ بالتضرع والندم، وليس هو من قبيل تسلط الشياطين الباعث على حط مرتبة الأولياء، والتنزيل من مكانتهم الجليلة.

الوجه الخامس: إن ما صدر منهم إنما هو من باب إنشاء التواضع كقوله (عليه السلام): أنا مثل الذرة، أو دونها، وليس هو من باب الإخبار.

الوجه السادس: ما حكاه الشيخ البهائي في شرح الأربعين عن الفاضل الجليل بهاء الدين بن علي الأردبيلي في كتاب كشف الغمة وادعى أنه من أحسن ما تضمحل به هذه الشبهة قال(رحمه الله): إن الأنبياء والأئمة (عليهم السلام) تكون أوقاتهم مستغرقة بذكر الله وقلوبهم مشغولة به وخواطرهم متعلقة بالملأ الأعلى، وهم أبداً في المراقبة كما قال(عليه السلام): أعبد الله كأنك تراه فإن لم تره فإنه يراك. فهم أبداً متوجهون إليه مقبلون بكليتهم عليه فمتى يخطو عن تلك المرتبة العالية، والمنزلة الرفيعة إلى الإشتغال بالمأكل والمشرب والتفرغ إلى النكاح، وغيره من المباحات عدوه ذنباً، واعتقدوه خطيئة فاستغفروا منه، ألا ترى أن بعض أبناء الدنيا لو قعد يأكل، ويشرب، وينكح، وهو يعلم أنه بمرأى من سيده ومسمع، لكان ملوماً عند الناس، ومقصراً فيما يجب عليه من خدمة سيده ومالكه، فما ظنك بسيد السادات، ومالك الأملاك، وإلى هذا أشار بقوله (صلى الله عليه وآله): إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر بالنهار سبعين مرة، وقوله(صلى الله عليه وآله): حسنات الأبرار سيئات المقربين. انتهى ما ذكره الأردبيلي.

ثم عقبه الشيخ البهائي بقوله: (وقد اقتفى أثره القاضي الفاضل البيضاوي في شرح المصابيح عند شرح قوله (ﷺ) ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة قال: الغين: لغة في الغيم وغانه على كذا أي غطّى عليه قال أبو عبيدة في معنى الحديث: أي يتغشى قلبي ما يلبسه، وقد بلغنا عن الأصمعي أنه سأل عن هذا الحديث فقال للسائل: عن قلب من تروي هذا؟ فقال: عن النبي (ﷺ) فقال: لو كان غير النبي(ﷺ) لكنت أفسره. قال القاضي: ولله در الأصمعي في انتهاجه منهج الأدب وإجلاله القلب الذي جعله الله موقع وحيه، ومنزل تنزيله وبعد فإنه مشوب سد عن أهل اللسان موارده، فتح لأهل السلوك مسالكه، وأحق من يعرب، أو يعبر عنه مشايخ الصوفية الذين بارك الحق أسرارهم، ووضع الذكر عنهم أوزارهم، ونحن بالنور المقتبس من مشكاتهم نذهب ونقول: لما كان قلب النبي (ﷺ) أتم القلوب صفاءً، وأكثرها ضياءً، وأعرفها عرفاً، وكان معيناً مع ذلك لتشريع الملة، وتأسيس السنة ميسراً غير معسر لم يكن له بد من النزول إلى الرخص، والالتفات إلى حظوظ النفس مع ما كان ممتحناً به من أحكام البشرية فكان إذا تعاطى شيئاً من ذلك أسرعت كدورة ما إلى القلب لكمال وقته وفرط نورانيته، فإن الشيء كلما أرق، وأصغى كان ورود المكدرات عليه أبين، وأهدى وكان (ﷺ) إذا أحس بشيء من ذلك عده ذنباً، واستغفر منه)، انتهى.

الوجه السابع: أن مراتبهم (عليهم السلام) في معرفة الله تعالى والإطلاع إلى عالم الملكوت متجددة بتجدد الأيام، والليالي متزايدة آناً فآناً، فكلما ترقوا من مرتبة إلى أخرى عدّوا تلك المرتبة السابقة ذنباً بالنسبة إلى ما هم فيه.

الوجه الثامن: إن العبد الممكن المتلوث بشوائب النقص والعجز، قابل التلبس بجميع المعاصي لولا الألطاف الإلهية، فاعترافهم (عليهم السلام) بالذنوب إنما هو بالنسبة إلى المادة البشرية لا باعتبار العصمة الإلهية، وقد أشير إلى هذا في قول يوسف (عليه السلام) أن النفس لأمارة بالسوء إلاّ ما رحم ربي، وقوله تعالى:

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾[١].

وقوله (عليه السلام): «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»[٢].

الوجه التاسع: إن التكليف إنما هي بإزاء النعم فكلما كانت النعمة على العبد أتم كان تكليفه أشد من غيره، ولذا كلفوا (عليهم السلام) بتكاليف شاقة، ولا ريب أنه تعالى قد منحهم من النعم ما لم يمنحه غيرهم، فهم يهمون بالشكر الذي هو ثمن النعمة، ولم يطبقوه فيعدون أنفسهم في مرتبة التقصير والذنب، فيستغفرون منه.

وقد روي عن عطاء أنه قال: قلت لعائشة رضي الله عنها أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله (صلى الله عليه وآله) قالت: وأي شأنه لم يكن عجبا؟ إنه أتاني ليلة، فدخل معي في لحافي ثم قال: ذريني أتعبد لربي، فقام فتوضأ، ثم قام يصلي، فبكى حتى سالت دموعه على صدره، ثم ركع فبكى، ثم سجد فبكى، ثم رفع رأسه فبكى، فلم يزل كذلك حتى جاء بلال، فأذنه بالصلاة فقلت: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ما يبكيك، وقد غفر الله تعالى لك ما تقدم لك من ذنبك، وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً، ولم لا أفعل وقد أنزل الله علي في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... إلى آخر الآية﴾ ... الخ الحديث[٣].

الوجه العاشر: إنه تعالى معشوقهم الحقيقي، ومقصودهم فهم يحبون أن لا يعصى، فإذا رأوا من غيرهم معصية اتكلت خواطرهم الشريفة حيث أنه وقع بحضرتهم، فهم يعدونه ذنباً كما لو جلس أحدنا في مجلس فسمع غيبة أخيه.

الوجه الحادي عشر: إمكان أن يكون الاستغفار، والتوبة في نفسها عبادة فهم بهذا الدعاء، والتضرع يعبدون الله لا أنهم أذنبوا وهم يطلبون منه تعالى غفران ذلك الذنب.

---

(١) سورة الأسراء: الآية، ٧٤.

(٢) السيد ابن طاوس: إقبال الأعمال/ ١، ٣٠٦.

(٣) الألوسي: تفسير الألوسي (روح المعاني)/ ٤، ١٥٧. سورة البقرة: الآية، ١٦٤.

وبين يدي القارئ الكريم نضع هذه الوجوه ليختار بنفسه ما يحلو له أن يختاره منها، ويراه مناسباً، وملائماً لحل هذه الشبهة (١).

أدب الداعي:

يقول العارفون، وأصحاب الكتب التي تضمنت الأدعية، والأذكار بأن الداعي لابد له من الالتزام بآداب يحسن به التحلي بها وهو يتجه إلى خالقه يتضرع إليه، وقد تصدوا لذكرها.

وفي الحقيقة تأتي هذه الآداب نابعة من الموقف الذي يقفه الإنسان بين يدي الله، وهو المطلع على السرائر.

ولا نحتاج لاثبات هذه الحقيقة من بيان ما نستدل به على ضرورة تحلي الداعي بالآداب الدعائية، فإن هذه قضايا لها من شواهد الحال ما تمر به كثيراً في حياتنا اليومية، ونرتب الأثر عليها ـ وعلى سبيل المثال ـ فإنا نجد الشخص منا لو أراد مقابلة شخصية مسؤولة لها مكانتها الاجتماعية ينشغل بإعداد نفسه بالمظهر اللائق من حيث الشكل، واللباس، وكذلك ينتقي من التعابير المنمقة ما يتخيل أنه يؤدي مطلوبه على النحو الأفضل، فنراه يستعد لهذه المقابلة ليخرج منها بالفائدة المتوخاة.

ومن هذا الواقع الخارجي، يرى المعنيون بشؤون الدعاء أن الداعي لابد له من تهيئة نفسه لمناجاة ربه، وإعدادها بالمظهر الذي يؤهلها للوقوف بين يدي الرب الجليل.

ولكن لا كما يقف الإنسان أمام شخص كبير له مكانته الاجتماعية ـ كما قلنا ـ حيث ينتقي من الثياب أغلاها، ومن العطور وأدوات الزينة فإن هذا لا أثر له في حساب الله، بل الذي له حسابه هو الأمور النفسية الباطنية، وتصفية الروح من الشوائب ليقف الداعي بين يدي ربه، وهو مقبل عليه لا أنه مشغول القلب.

---

(١) لاحظ لهذه الوجوه السيد جعفر بحر العلوم: أسرار العارفين/ ٣٤ و ٣٥. وما جاء في التعليق على أصول الكافي: ٢، ٤٣٨، تعليق الغفاري، طبعة دار الكتب الإسلامية.

يقول الامام أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): «إن الله عزّ وجل لا يستجيب دعاءً بظهر قلبٍ ساهٍ، فإذا دعوت فأقبل بقلبك ثم استيقن بالإجابة»[(١)].

وفي رواية أخرى: (وأعلموا أن الله عزّ وجل لا يستجيب دعاء من قلب خامل)[(٢)].

وموضوع إقبال الداعي، وتوجهه له الأثر التام في قبول العبد، وخلوص نيته.

ويتوقف هذا على أن يكون الداعي عند دعائه واقعياً. ففي مقام الاستغفار لابد وأن يدعو وهو تائب على أن لا يعود إلى ما صدر منه من الذنب، وإلاّ فما هي الفائدة في طلب يصدر من شخص ينوي العود إلى مثل تلك المخالفات؟ إن التوبة، وتهذيب النفس من شرائط تهيئة الداعي نفسه للوقوف بين يدي ربه. فقد جاء في المصادر التاريخية أنه أصاب الناس في بني إسرائيل قحط شديد، فخرجوا مراراً فأوحى الله إلى نبيهم (أن أخبرهم إنكم تخرجون إليّ بأبدان نجسة، وترفعون إليّ أكفاً قد سفكتم بها الدماء، وملأتم بطونكم بالحرام. الآن قد اشتد عليكم غضبي، ولن تزدادوا مني إلاّ بعداً)[(٣)].

وعن سفيان الثوري: بلغني أن بني إسرائيل قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة من المزابل، وأكلوا الأطفال، وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يبكون، ويتضرعون، فأوحى الله عزّ وجل إلى أنبيائهم (عليهم السلام) لو مشيتم اليّ بأقدامكم حتى تحفى ركبكم، وتبلغ أيديكم عنان السماء، وتكل ألسنتكم عن الدعاء، فإني لا أجيب لكم داعياً، ولا أرحم لكم باكياً، حتى تردوا المظالم إلى أهلها، ففعلوا فمطروا من يومهم.

وربما عقب البعض، على هذه الأحاديث المتضمنة لهذه القصص بأنها غير نقية السند، فلا أهمية لها من حيث النقل.

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ كتاب الدعاء، باب الإقبال على الدعاء، حديث ١، ٢، ٤٧٣.

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين/ ١، ٣٩٩.

(٣) المصدر المتقدم: ١، ٤٠٠ – ٤٠١.

ونجيب على هذا الاعتراض: بأن الموضوع لا علاقة له بحكم شرعي ليتوخى الفقيه في مقام استنباط الحكم الشرعي أن يفحص السند، والسلسلة التي توصل الخبر إلى المعصوم (عليه السلام) ليتصل منه إلى النبي (صلى الله عليه وآله) ومنه إلى لوح التشريع، بل القضية تدور حول تصفية الداعي وتنقيتها بالتوبة، وعدم العود إلى المخالفات، وما نقلناه في هذا الصدد من قصص بني إسرائيل، وغيرهم، أو ما هو موجود من مثل هذه التعابير يلاحظ فيه المضمون إذا كان عالياً، ويشرح نفسه بنفسه، ويؤكد على صحة مضمونه.

وعلى سبيل المثال: ففي القصتين المذكورتين نرى آثار الصحة عليهما بادية فإن من رفع يداً ملطخة بالدماء، وملأ بطناً من الحرام ماذا يأمل من ربه، وهو العادل فهل يأمل الإجابة، والعطف عليه؟ وهكذا من تعدى على حقوق الآخرين، وظلم فهل يؤمل لمثل هذا أن يؤمن الله على دعائه، ويستقبله بوجه يقبل عليه فيه؟

وحاشا لله أن يظلم أحداً، أو يقبل بوجهه على من كانت هذه أفعاله ولي ولكل أحد أن يجيب: بلا، ويلحقها بما شاء من أدوات النفي. إن الله عزّ وجل عادل، وهو بصير بعباده، وهو للمظلوم نعم العون فلا يجامل شخصاً هذه أحواله، ويستجيب له دعواته.

وفي الوقت نفسه، هو الظالم الخصم العنيد الذي لا يتركه يرتع ويسرح ويمرح ويتمرغ في تجاوزاته.

وإذا رأينا ما يوهم بظاهره الاستجابة لمثل هذا الظالم، أو تركه فإنما ذلك لأنه من مصاديق الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1].

وإذاً، فليس التغاضي من باب الاقبال، والقبول.

وإذاً، فتصفية النفس والإقبال في الدعاء هي مفتاح الطريق الموصل إلى الله،

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ١٧٨.

ورحابه الطاهرة ليجد الداعي من ربه أذناً صاغية، ونداءً يحسن بنغماته العذبة تهدهد سماعه وهي تقول:

بشراك أيها الداعي أقبلت على ربك، فأقبل ربك بوجهه عليك.

ومن آداب الداعي، الإلحاح في الطلب، فعن الامام الصادق (عليه السلام) قوله: «إن الله عزّ وجل كره إلحاح الناس بعضهم على بعض في المسألة، وأحب ذلك لنفسه إن الله عزّ وجل يحب أن يسأل، ويطلب ما عنده» (١).

وفي حديث آخر: «رحم الله عبداً طلب من الله عزّ وجل حاجة فألح في الدعاء»(٢).

ويأتي الإلحاح في قائمة آداب الداعي نتيجة تعلق الشخص بمطلبه الذي يريد تحققه من ربه.

وفي الإلحاح بعد كل هذا زيادة اتصال بالله، وتوجهاً إليها.

ومن آداب الداعي، أن يتيقن بالإجابة، وقد صرحت بذلك أخبار كثيرة، وفيها (ثم استيقن الإجابة) (٣). (وإذا دعوت، فأقبل بقلبك، وظن حاجتك بالباب) (٤).

ويتوخى من وراء هذا الشرط أن لا يدبّ اليأس إلى قلب الداعي وهو يرى التأخير في الإستجابة ذلك لأن اليأس من رحمة الله، والقنوط منه كبيرة من الكبائر، وقد نهي العبد عن ذلك بنص القرآن المجيد حيث يقول تعالى:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (٥).

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ كتاب الدعاء، باب الإلحاح في الدعاء، والتثليث، حديث ٤ و٥ و٦.

(٢) الكافي/ كتاب الدعاء، باب الإلحاح في الدعاء والتثليث، حديث٤ و٥ و٦.

(٣) المصدر السابق: باب الإقبال على الدعاء، حديث ١ و ٢ و ٣.

(٤) المصدر السابق: باب الإقبال على الدعاء، حديث ١ و٢ و٣ .

(٥) سورة الزمر: الآية، ٥٣.

ويقول تعالى: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾[2].

وقد ذكرت بعض المصادر الدعائية عدة من الآداب التي يحسن بالداعي أن يجتنبها.

ومنها: أن لا يكون ممتلئ البطن، وأن لا يكون شديد النعاس، وغير ذلك مما يصرف الداعي عن التوجه المطلوب نحو المولى، ومناجاته.

آداب الدعاء:

وكما ذكر العارفون فإن للدعاء آداباً تقدم ذكر البعض منها، كذلك ذكروا للدعاء، أموراً استحسنوا أن يطبقها الداعي في دعائه.

منها: أن لا يدعو على مؤمن بشرٍ، وأن لا يدعو بقطيعة رحم.

ومنها: أن يختار الأوقات المناسبة للدعاء من كونه بعد صلاة مكتوبة، أو في آناء الليل، أو في أوقات نزول المطر، أو عند زحف المسلمين لقتال الكفار، أو غير هذا، وذاك من الأوقات التي ذكرها المعنيون بأمور الدعاء في كتبهم، وهكذا الحال بالنسبة إلى اختيار الأماكن المقدسة من المساجد، والمشاهد المشرفة.

ومنها: أن يفتتح دعاءه بذكر الله، والثناء عليه، والصلاة على نبيه.

ومنها: أن يستقبل القبلة، ويرفع يديه كهيئة السائل الذليل.

ومنها: خفض الصوت حيث يكون بين المخافتة، والجهر.

ومنها: أن يترك السجع في الدعاء، ويترسل في مناجاته.

وفي الحقيقة، إن كلما ذكروه في هذا الخصوص من التقييد بالأوقات والكلام،

---

(١) سورة الحجر: الآية، ٥٦.

(٢) سورة يوسف: الآية، ٨٧.

وغير ذلك ليس معناه أن لا غير ذلك لا يقبل، ولا يعتبر عند الله، بل أن هذا كما قلنا، من آداب لقاء العظماء، والتحدث إليهم، ومن أعظم من الله، وأعلى مقاماً منه يستعد العبد للمثول بين يديه، وهو رب الخلائق، وفوق كل شيء؟

ولنستعرض بعض هذه الآداب المذكورة:

فمثلاً تكلف السجع إنما حرص أهل الذكر على تجنبه لأنه يشغل الإنسان عن التوجه إلى الله، والتحدث معه بلغة التضرع والخضوع، بل يجعل الإنسان منشداً إلى انتقاء الالفاظ المنمقة، وتنسيق العبارة وإخراجها على روية واحدة، وعلى المحافظة على القافية فيما يسبق من الجمل، وحينئذٍ يخرج الداعي من جو الدعاء الخاشع إلى مقام عرض الديباجة، والكتابة للمقالات، وقد ورد عن النبي (ﷺ) قوله: «إياكم والسجع في الدعاء» [1].

وهكذا الحال إذا لاحظنا خفض الصوت، فإن أصول اللياقة، والأدب تقتضي أن يكون المتكلم مع من هو أعلى منه هادئاً متزناً في حديثه، فرفع الصوت لا يناسب مثل هذه المقامات.

وليطمئن الداعي بعد كل هذا إلى أن الله ليس بأصم ليرفع صوته ليسمعه ولا غائب عنه ليعلمه بوجوده، فقد جاء عن النبي (ﷺ): إنه لما دنا من المدينة كبّر، وكبّر الناس، ورفعوا أصواتهم فقال النبي (ﷺ): يا أيها الناس إن الذين تدعون ليس بأصم، ولا غائب إن الذي تدعون بينكم وبين أعناق ركابكم.

وإذا كان الدعاء هو التضرع، والمناجاة مع من هو أقرب إلى الداعي من ظله فلماذا إذاً رفع الصوت، والتهريج؟

أما المكان فله أهميته، فالأماكن المشرفة تتشرف بمن نسبت إليه. كما أن الأوقات لها أهميتها أيضاً، ولربما تكون من وسائل توجه الإنسان إلى خالقه، والانشداد إليه ـ وعلى سبيل المثال ـ فإن الدعاء في آناء الليل، وفي وقت السحر ليبعث في النفس

---

(١) الغزالي: احياء علوم الدين/ ١، ٣٩٨.

نشاطاً لإقبالها على الله، وخشوعها بين يديه بعد أن أخذ البدن قسطاً من الراحة من النوم فيكون الإنسان نشطاً لعبادة ربه.

يضاف إلى ذلك، ما يضفيه الوقت الهادئ المظلم من الرهبة في نفس الداعي حيث يجد المكان هادئاً، والليل قد ضرب بردائه فغطى الكون بظلامه الدامس، وفي هذا الجو يقف الداعي بين يدي ربه الذي لا تأخذه سنة، ولا نوم. بينما داعب الكرى جفون المخلوقين وقد غلقوا أبوابهم، وانحجب بعضهم عن البعض الآخر.

ولكن باب الله مفتوح في وجه من قصدوه.

مع دعاء كميل

قد لا أبالغ إذا قلت ـ كما سبق ـ إنه لا يوجد لبقية المذاهب والأديان كما للمسلمين، وللشيعة منه بوجه خاص من الأدعية من الوفرة، والنوعية ما ليس لغيرهم مثله. والكثير من ذلك صحيح السند، ونقصد بذلك الاطمئنان بصحة صدوره عن النبي (ﷺ) أو أحد المعصومين (عليهم السلام).

ومع هذه الوفرة فما هو سبب اختياري لدعاء كميل، وشرحه؟

بإمكاني في مقام إجابتي على مثل هذا السؤال أن الخص الأسباب بالأمور التالية:

١ـ إن هذا الدعاء يتمتع بثقة عالية من حيث السند، فلا يشك أحد من الخاصة، والعامة بصدوره عن الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) وتعليمه لكميل بن زياد، والذي سمي الدعاء بإسمه.

أما أنه من تأليفه، أو من إملائه وهو دعاء الخضر (عليه السلام) وقد أملاه على كميل فليس هذا موضع تحقيقه، بل المهم هو أن نعلم بصدوره عن الإمام (عليه السلام) نفسه، وهذا معلوم.

على أن لي شخصياً رأي خاص في الدعاء، فإن المحقق في سنده يهتم به الباحث في مقام ذكر ما يترتب عليه من الثواب الذي ذكر له.

أما من ناحية ما يشتمل عليه من مضامين عالية فهذا ما يتكفله الدعاء نفسه حيث نرى بعض الأدعية رصينة من حيث المادة تحمل بين طياتها معاني سامية تفرض لنفسها هالة من الثقة تحيط بالدعاء، مما يجعل النفس تركن إلى ذلك الدعاء لأن الدعاء لو لاحظناه لرأيناه لا يخرج عن كونه ذلك الرابط الشفاف الذي يربط بين العبد وربه، ويرفع بنفسه إلى المراتب العالية، فيسهل مهمة الانسجام بين الدعاء

والداعي، وإقباله على الله فيما يناجيه.

ولكن مع كل ذلك نرى للدعاء إذا كان صحيح السند مكانته في نفس الداعي إذ يجد لصدوره من أهله نوعاً من التبرك بقراءته ويستشعر من ذلك أنه مضمون الطريقية لدعاء النبي (ﷺ)، أو أحد خلفائه به.

٢ـ إنشدادنا لهذا الدعاء، والتفافنا حوله، ومنشأ ذلك:

أن كثيراً من الأدعية مرتبة في أوقات خاصة بها ـ فمثلاً ـ دعاء الإمام الحسين(عليه السلام) أو ولده الإمام زين العابدين (عليه السلام) يقرآن، مرة واحدة في السنة في يوم عرفة، وبعده يودعهما الداعي ليلتقي بهما في العام القادم مرة أخرى إذا سنحت له الفرصة.

وهكذا في الأدعية الواردة في الأعياد، وفي أيام شهر رمضان أو المرتّبة لأيام السنة، وكذا ما يقرأ عند بعض الأحداث التي تلم بالإنسان. ومعنى ذلك أن الداعي لا يقرؤها كثيراً.

نعم: أدعية التعقيبات الواردة بعد الصلوات يلتقي بها الإنسان كل يوم لكن هذه الأدعية قصيرة، وقد لا يلتزم الإنسان بقراءتها بعد كل صلاة.

أما دعاء ـ كميل ـ فالوارد في قراءته: أنه يقرأ في ليلة النصف من شعبان، وفي كل ليلة جمعة، ولذلك فقد ألفنا منذ نعومة أظفارنا أن نشاهد حلقات الداعين من المؤمنين في ليالي الجمع تعج بهم أماكن العبادة، وهم يرتلون هذا الدعاء مع ما يتخلل ذلك من بكاء، وخشوع، وتضرع إلى الله عزّ وجل.

مضافاً إلى ما كنا نشاهده من الأفراد، وهم يواظبون على قراءته وحتى في الدور ممن تضمهم الدار من أبنائها.

وهكذا عشنا مع الدعاء، وفقراته، ومقاطعه يطل علينا بإطلالة ليلة الجمعة من كل أسبوع نجد اللذة النفسية في ترتيله، وعندما نمر على فصوله، وكلماته سماعاً، وقراءةً، فكانت لنا معه ألفةٌ خاصة تحمل معها ذكريات عزيزة لأشخاص طواهم الزمن وخيم عليهم الموت، فوفدوا على ربٍّ كريم.

٣ـ رصانة الدعاء، وعلو معانيه من جهة، وبساطته، وما تحمله عباراته من رقة، وعذوبة يحببانه إلى النفس من جهة أخرى.

وفي الوقت نفسه، ما يتضمنه الدعاء من مطالب قد تبدو لأول نظرة أنها تحتاج إلى شيء من التوضيح، والتعليق مما حدا بالكثير ممن سبقني أن يبحث عن الشرح لهذا الدعاء الجليل لينتفع به لحل ما أشكل عليه من بعض فقراته.

شروح دعاء كميل:

أما الشروح لهذا الدعاء، فقد ذكرها المحقق الحجة الراحل الشيخ أقا بزرك الطهراني رحمه الله في مصنفه النفيس: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، وهي كما يلي:

١ـ شرح دعاء كميل: للشيخ محمد إبراهيم بن المولى عبد الوهاب السبزواري، المعاصر المولود سنة ١٢٩١هـ قيل: انه عربي.

٢ـ شرح دعاء كميل: للإسراري. فارسي.

٣ـ شرح دعاء كميل: للميرزا أبو الحسن بن الحاج إسماعيل اللاري المعروف (بالمحقق الاصطهباناتي الشيرازي) المعاصر طبع بهامش كتاب زاد المعاد.

٤ـ شرح دعاء كميل: للميرزا أبو القاسم بن الحجة الشيخ محمد حسن المامقاني المولود سنة ١٢٨٥هـ والمتوفي سنة ١٣٥١هـ يوجد عند ولده الحجة الشيخ عبد المحسن المامقاني.

٥ـ شرح دعاء كميل: اسمه: أنيس الليل.

٦ـ شرح دعاء كميل: للسيد ميرزا أبو المكارم بن الميرزا أبي القاسم الموسوي الزنجاني المتوفي سنة ١٣٣٠هـ.

٧ـ شرح دعاء كميل: اسمه: مفتاح المراد.

٨ـ شرح دعاء كميل: للشيخ الفاضل الميرزا عباس الدارابي الشيرازي تلميذ المولى هادي السبزواري الحكيم ألفه على طريقة استاذه في شرحي: دعاء الجوشن، والصباح.

٩ـ شرح دعاء كميل: للمولى عبد الأعلى بن محمد القاضي السبزواري ألفه باسم السلطان (ناصر الدين شاه القاجاري)، وهو عربي عرفاني سنة ١٣٤٣هـ.

١٠ـ شرح دعاء كميل: لميرزا محمد علي بن نصير الرشتي النجفي المتوفي سنة ١٣٣٤ ألفه في سنة ١٣٢٥هـ مع شرح دعاء الصباح.

١١ـ شرح دعاء كميل: لميرزا محمد بن سليمان التنكابني.

١٢ـ شرح دعاء كميل: للمولى محمد نجف الكرماني المشهدي العارف الإخباري المتوفي سنة ١٢٩٢هـ ذكره في مطلع الشمس والمآثر، والآثار.

١٣ـ شرح دعاء كميل: الموسوم بأسرار العارفين للحجة المرحوم السيد جعفر آل بحر العلوم المتوفي سنة ١٣٧٧هـ فرغ من تأليفه في العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٣٠هـ عربي[١].

١٤ـ شرح دعاء كميل: للسيد محمود السيد سلطان عليخان المرعشي الفروي تاريخ ٢٠/ رمضان/ ١٣٢٨هـ خط فارسي، شرح إعرابي. موجود في مكتبة جامعة النجف العامرة.

١٥ـ شرح دعاء كميل: لمحمد باقر هيوني. فارسي. مطبعة قم، سنة ١٣٨٠هـ.

وهذه الشروح، وإن كانت كثيرة إلاّ أنها ليست في متناول اليد لأن الكثير منها مخطوط، وليس بمطبوع، والبعض ألف باللغة الفارسية مما يصعب على كثير ممن لا يعرفون هذه اللغة الاستفادة من تلك الشروح والوصول إلى معانيها.

---

(١) لاحظ الشيخ أغا بزرك الطهراني: الذريعة إلى تصانيف الشيعة/ ١٣، ٢٥٩، مطبعة القضاء، النجف الأشرف.

على أن البعض من تلك الشروح ينحو فيه الشارح المنحى الأدبي المحض، أو العرفاني مما يجعل تذوقها مقتصراً على طبقة خاصة معينة من القراء يستسيغون هذا النوع من التأليف، بينما يريد قراؤنا اليوم نوعاً آخر من الشرح والتعليق، يتوخون فيه أن يكون بعيداً عن المغلقات بحيث يحتاج الشرح منها إلى شرح، وتوضيح.

كانت كل هذه الدوافع تحفزني لأن ألجأ إلى الله عزّ وجل متضرعاً أن يمنحني شرف التوفيق للقيام بهذه المهمة لأكون قد أديت خدمة لإخواني في المضمار، ولأقدم ـ في الوقت نفسه ـ لأخوتي عملاً أتوخى به وجهه الكريم يوم تفد الخلائق إليه راجية عطفه، ولطفه، وفي ذلك اليوم لا ينفع مال ولا بنون.

وعساني أديت بعض ما عليّ، ونلت به رضا ربي.

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[1].

---

(١) سورة القصص: الآية، ٢٤.

كميل بن زياد النخعي

يتمتع راوي الدعاء (كميل بن زياد بن نهيك النخعي)، بشخصية عظيمة وثقة عالية عند الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) فهو حامل سره كما يقول عنه علماء الرجال، وقد ترجموه وأطنبوا فيه، وذكروا: أنه طالما كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يردفه على راحلته، ويحدثه بأمور لم يطلع عليها أحد غيره ولهذا قالوا عنه: ـ أنه حامل سره ـ.

وكان والياً له على ـ هيت ـ وهي بلدة تقع على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار.

وربما كان اختياره ـ لهيت ـ نظراً لما يتمتع به ـ كميل ـ من شجاعة وعلم، ومعرفة بتصريف الأمور ولما لهذه البلدة من موقعية استراتيجية في ذلك الزمان، ذلك، لأن ـ هيت ـ تتصل ببادية الشام، وبذلك تشكل حدوداً بين العراق، وبين سوريا، والتي كانت دمشق عاصمتها مقراً لمعاوية بن أبي سفيان.

وقد كانت بعض المدن الواقعة على الفرات مما يقع على هذا الخط تابعة لحكم معاوية، ومن الواضح أن وجود معاوية، وامتداد نفوذه كان يشكل خطراً على الخلافة الإسلامية في عهد الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) لذلك كان اختيار المترجم حافظاً لثغر العراق من هذه الجهة فهو القائد المحنك، والوالي العارف بإدارة البلاد.

ومع هذا فهو القائد العابد الزاهد الورع شهد مع أمير المؤمنين واقعة صفين.

وقد روى عن كميل جماعة من التابعين كما يقول ابن كثير الدمشقي، وفي مقام نسبته إلى الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) اختلفت عبارات المؤرخين، فالبعض يعبر عنه بأنه: تلميذ الإمام، والبعض يقول عنه بأنه: من شيعته، وخاصته، وثالث كان يعرفه بأنه: من المفرطين في علي ممن يروي عنه المعضلات.

وقال عنه رابع: بأنه من أعاظم خواص أمير المؤمنين، وأصحاب سره.

وقيل عنه: كان من كبار أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام)، وولده الحسن السبط (صلوات الله عليه).

أما في مقام ترجمته، وتعريفه فقد قيل عنه:

كان رجلاً ركيناً، وكان له إدراك، وكان شريفاً مطاعاً في قومه، وكان من أجلاء علماء وقته، وعقلاء زمانه، ونساك عصره وفضلاء أوانه، وكان من روؤساء الشيعة، وذكر في جملة عباد أهل الكوفة، وقال ابن عمار عنه: أنه رافضي، وهو ثقة.

من هذا العرض لترجمته تظهر لنا شخصية هذا الرجل الثقة، وما كان يتمتع به من مؤهلات قلما اجتمعت في غيره من الأعاظم، وفي مجال الحديث فقد قالت عنه مصادر الترجمة: بأنه روي عن جماعة كان في مقدمتهم أمير المؤمنين، وابن مسعود.

وقد نقلت عنه وصايا عديدة أملاها عليه أمير المؤمنين (عليه السلام).

روايته للدعاء:

ذكر السيد ابن طاووس في الإقبال عن دعاء كميل ما يلي:

ومما رويناه بإسنادنا إلى جدي أبي جعفر الطوسي رحمه الله قال:

روى أن كميل بن زياد النخعي رأى أمير المؤمنين (عليه السلام) ساجداً وهو يدعو بهذا الدعاء في ليلة النصف من شعبان، قال السيد ابن طاووس.

أقول: ووجدت في رواية أخرى ما هذا لفظها: قال كميل بن زياد: كنت جالساً مع مولاي أمير المؤمنين (عليه السلام) في مسجد البصرة، ومعه جماعة من أصحابه فقال بعضهم:

ما معنى قول الله عزّ وجل: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾[1] ؟

قال (عليه السلام) ليلة النصف من شعبان، والذي نفس علي بيده أنه ما من عبدٍ إلاّ وجميع ما يجري عليه من خير وشر، مقسوم له في ليلة النصف من شعبان إلى آخر

---

(١) سورة الدخان: الآية، ٤.

السنة في مثل تلك الليلة المقبلة، وما من عبد يحييها، ويدعو بدعاء الخضر (عليه السلام) إلاّ أجيب له. فلما إنصرف طرقته ليلاً، فقال (عليه السلام):

ما جاء بك يا كميل؟

قلت يا أمير المؤمنين دعاء الخضر.

فقال اجلس يا كميل إذا حفظت هذا الدعاء، فادعو به كل ليلة جمعة، أو في الشهر مرة، أو في السنة مرة، أو في عمرك مرة تكف وتنصر، وترزق، ولن تعدم المغفرة.

يا كميل: أوجب لك طول الصحبة أن نجود لك بما سألت، ثم قال: اكتب: (**اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء**) إلى آخر الدعاء.

ولنا أن نقف مع نسبة الإمام (عليه السلام) لهذا الدعاء إلى الخضر (عليه السلام) وهو نبي من أنبياء الله فما هو المقصود؟

فهل أن الدعاء بنصوصه، وألفاظه كان من إملاء الخضر (عليه السلام)، وبيانه وقد حفظه الإمام (عليه السلام) منه؟ أما كيف حفظه، وكيف وصل إليه، فهذا من الأمور الغيبية وأملاه على كميل، أو أن مضامين الدعاء كان يدعو بها الخضر(عليه السلام) فاستحسنه الامام (عليه السلام) وصاغه ببيانه وفصاحته الباهرة فجاء بهذه النصوص.

ولعل هذا أقرب من الاحتمال السابق لأن هذا الاسلوب من البيان، وهذه الرقة في التعبير هما من مميزات آل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، وفي مقدمتهم الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام) حيث نجد في مناجاتهم مع الله من رقة التعبير، ورصانة التركيز ما لا نجده في كثير من أدعية غيرهم.

ولادته ووفاته:

اختلفوا في تاريخ ولادة كميل، فالعسقلاني في تهذيب التهذيب يقول: قلت: وحكى ابن أبي خثيمة، أنه سمع يحيى بن معين يقول: مات كميل سنة ثمان وثمانين، وهو ابن سبعين سنة.

وعلى هذا فتكون ولادته في السنة الثامنة عشر من الهجرة.

وقال المدايني: مات كميل سنة اثنتين وثمانين وهو ابن تسعين سنة.

ومعنى هذا أن ولادته كانت قبل الهجرة بسنتين.

أما الزركلي فيقول عنه: مؤرخاً ولادته سنة (١٢) ووفاته بسنة (٨٢).

وقد قال المؤرخون عن وفاته بأن الحجاج قتله صبراً.

ونقلت في ذلك قصص مختلفة في كيفية قتله، ولكنها أجمعت من ناحية أنه قتل على يد الحجاج، وأنه قتل صبراً.

وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) قد أخبره قبل ذلك بمقتله، وأنه يكون على يد الحجاج، وكيفية قتله.

مدفنه:

وعندما يصل المؤرخون إلى مدفن ـ كميل ـ يقولون عنه: أنه دفن بالثوية وقبره يزار، ويتبرك به.

ويعرفون الثوية بأنها: من المواضع المشهورة في ظهر الكوفة غربيها مما يلي النجف، وللنجف اليوم أقرب من الكوفة.

وبعضهم يقول: أنها بالكوفة.

أما الحموي فقال عنها: أنها موضع قريب من الكوفة. وقيل: أنها بالكوفة. وقيل: خريبة إلى جانب الحيرة على ساعة منها، ذكر العلماء أنها كانت سجناً للنعمان بن المنذر كان يحبس بها من أراد قتله فكان يقال لمن حبس بها: ثوى أي أقام فسميت الثوية بذلك.

ويعلق الخطيب الحجة المرحوم السيد علي الهاشمي في كتابه: (كميل بن زياد النخعي) على هذا القول: بأنه شاذ.

وفي تاريخ الخميس يقول: أن الثوية هي على ميلين من الكوفة.

أما السيد ابن طاووس: فقد ذكر في كتابه المصباح عند تعرضه لهذا الدعاء: بأن الثوية هي الآن تل بقرب الحنانة عن يسار الطريق القاصد من الكوفة إلى المشهد أي مشهد أمير المؤمنين (عليه السلام)، أي النجف.

ويعلق الخطيب الهاشمي على هذا التحديد بقوله:

قلت: وقد حول الطريق في عهد الحكومة العثمانية، وصار التل عن يمين القاصد من الكوفة إلى النجف، وذلك عند تأسيس السكة الحديدية (الترامواي) [١] وحتى اليوم على حاله، وقد ألغيت السكة وعُبد الطريق بالقار بمكان السكة [٢].

وعلى كل حال، قبر كميل اليوم معروف يقع في أحد الأحياء الجديدة التي استحدثت في الفترة الأخيرة، ويطلق عليه اسم (حي الحنانة)، وهو بالقرب من (الحنانة) الجامع المعروف عند النجفيين، وغيرهم ممن يؤم العتبة المقدسة من الزائرين والسائحين.

---

(١) كان من جملة ما يربط النجف بالكوفة خط السكة الحديدية حيث كانت تسير عليه عربات خشبية تجرها الخيول. ولكن السكة قد رفعت، وعُبد الطريق.

(٢) لاحظ لمصادر هذه الترجمة: الزركلي: الأعلام/ ٦، ٩٣. وابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب/ ٨، ٤٤٨. وابن حجر العسقلاني: الإصابة/ رقم ٧٥٠٣. وابن حزم الأندلسي: جمهرة الأنساب/ ٣٩٠. وابن الأثير: الكامل في التاريخ/ ٣، ١٥١. والمامقاني: تنقيح المقال/ ترجمة تحت رقم ٩٩٣٨. والذهبي: تاريخ الإسلام/ ٣،٢٩٣. والسيد ابن طاووس: إقبال الأعمال/ ٧٠٦، والكفعمي: المصباح. كما وقد ترجم له البحاثة الحجة المرحوم الخطيب السيد علي الهاشمي في كتاب صغير فذكر ترجمة وافية له، وذكر مصادر ترجمته بشكل وافٍ عنوان كتابه (كميل بن زياد النخعي) مطبعة الارشاد، بغداد.

النص الكامل

لدعاء كميل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اللّهُمَّ إنّي أسأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ الّتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ، وَبقُوتِّك الّتي قَهَرتَ بِها كُلَّ شَيءٍ، وَخَضَعَ لَها كُلُّ شَيءٍ، وَذَلَّ لَها كُلُّ شَيءٍ، وَبجَبَروتِكَ الّتي غَلَبْتَ بها كُلَّ شَيءٍ، وَبِعِزّتِكَ الّتي لا يَقُومُ لَها شَيء، وَبِعَظَمَتِكَ الّتي مَلأتْ كُلَّ شَيءٍ، وَبِسُلْطانِكَ الّذي عَلا كُلَّ شَيء، وَبِوجْهِكَ الباقِي بَعْدَ فَناءِ كُلِّ شَيءٍ، وَبِأَسْمائِكَ الّتي مَلأتْ أركانَ كُلِّ شَيءٍ، وَبِعِلْمِكَ الّذي أحاطَ بِكُلِ شَيءٍ، وَبِنُورِ وَجْهِكَ الّذي أضاءَ لَهُ كُلُّ شَيءٍ، يا نُورُ يا قُدُّوسُ، يا أَوّلَ الأوّلين، ويا آخِرَ الآخِرين، اللَّهُمَّ إغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الّتي تَهْتِكُ العِصَمَ، اللَّهُمَّ إغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الّتي تُنزِّلُ النِقَمَ، اللَّهُمَّ إغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الّتي تُغَيِّرُ النِّعَمَ، اللَّهُمَّ إغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الّتي تَحبِسُ الدُّعاءَ، اللَّهُمَّ إغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الّتي تُنْزِلُ البَلاءَ، اللَّهُمَّ إغْفِرْ لِي كُلَّ ذَنْبٍ أذْنَبْتُهُ، وَكُلَّ خَطيئَةٍ أخْطأتُها، اللَّهُمَّ إنِي أتَقَرَّبُ إلَيْكَ بِذِكْرِكَ، وَاسْتَشْفِعُ بِكَ إلى نَفْسِكَ، وَأسأَلُكَ بِجودِك أنْ تُدْنيَني مِنْ قُرْبِكَ، وأن تُوزِعَني شُكْرَكَ، وأن تُلْهِمَني ذِكْرِكَ، اللَّهُمَّ إني أسأَلُكَ سُؤالَ خاضِعٍ مُتَذَلِّلٍ خاشِعٍ، أن تُسامِحَني وَتَرْحَمَني، وَتَجْعَلَني بِقَسْمِكَ رَاضِياً قانِعاً، وَفي جَميعِ الأَحْوالِ مُتَواضِعاً، اللَّهُمَّ وأسأَلُكَ سُؤالَ مَن اشْتَدَّتْ فاقَتُهُ، وأنْزَل بِكَ عِنْدَ الشَّدائِدِ حاجَتَهُ، وَعَظُمَ فِيما عِنْدَك رَغْبَتُهُ، اللَّهُمَّ عَظُمَ سُلْطانُكَ، وَعَلا مَكانُك، وَخَفِي مكْرُكَ، وَظَهر أمرُكَ، وَغَلَب قَهْرُكَ، وَجَرَتْ قُدْرَتُك، وَلا يُمْكِنُ الفِرارُ مِنْ حُكومَتِكَ، اللَّهُمَّ لا أجِدُ لِذُنُوبي غَافِراً، وَلا لِقَبائِحي ساتِراً، وَلا لِشَيءٍ مِنْ عَمَلي القَبيح بالحَسَن مُبدِّلاً غَيْرَك، لا إلهَ إلاّ أنْتَ سُبْحانَك وبحَمْدِكَ ظَلَمْتُ نَفْسي، وَتَجرّأتُ بِجَهْلي، وَسكَنْتُ إلى قَديمِ ذِكْرِكَ لِي وَمِنّك عَلَيّ، اللَّهُمَّ مَوْلايّ كَمْ مِنْ قَبيحٍ سَتَرْتَهُ، وَكَمْ مِن فَادِحٍ مِنَ البَلاءِ أَقَلْتَهُ، وَكَمْ مِنْ عِثارٍ وَقَيْتَه، وَكَمْ مِنْ مَكْروهٍ دَفَعْتَهُ، وَكَمْ مِن ثَناءٍ جَميلٍ لَسْتُ أهلاً لَهُ نَشَرْتَهُ، اللَّهُمَّ عَظُمَ بَلائِي وَأفْرَطَ بِي سُوءُ حَالي، وقَصُرَتْ بِي أعْمالي، وَقَعَدت بي أغلالِي، وَحَبَسَني عَنْ نَفْعِي بُعْدُ آماليْ، وَخَدَعَتني الدُّنْيا بِغُرُورِها وَنَفْسي بِخيانَتِها، وَمِطالي يا سَيِّدي فَأسأَلُكَ بِعِزَّتِكَ أنْ لا يَحْجُبَ عَنْكَ دُعائِي سُوءُ عَمَلي وَفِعَالي، وَلا تَفْضَحْني بِخَفيِّ ما أطَّلَعْتَ عَلَيْهِ مِنْ سِرِّي، وَلا تُعاجِلْني بالعُقُوبَةِ عَلى مَا عَمِلْتُهُ في

خَلَواتي مِنْ سُوءِ فِعْلي وإسَاءَتي، وَدَوام تَفْريطي، وَجَهالَتي وَكَثْرَةِ شَهَواتي وَغَفْلَتي، وَكُنِ اللَّهُمَّ بِعِزَّتِكَ لي في كُلِّ الأحْوال كُلِّهَا رَؤوفاً، وَعَلَيَّ في جَميعِ الأمُورِ عَطُوفاً، إلَهي وَرَبِّي مَنْ لِي غَيْرُكَ أسألُهُ كَشْفَ ضُرِّي وَالنَّظَرَ في أمري، إلَهي وَمَوْلاي أجْرَيْت عَلَيَّ حُكْماً إتَّبَعْتُ فيهِ هَوى نَفْسي وَلَمْ أحْتَرِسْ فِيهِ مِنْ تَزْيينِ عَدُوِّي، فَغَرَّني بِما أهوَى وأسْعَدَهُ عَلى ذَلِك القَضَاءُ فَتَجاوَزْتُ بِما جَرَى عَلَيّ مِنْ ذَلِك بَعْضَ حُدُودِكَ، وَخَالَفْتُ بَعْضَ أوامِرِك، فَلَكَ الحَمْد (فَلَكَ الحُجَّةُ) عَلَيَّ فِي جَميعِ ذَلِكَ وَلا حُجَّةَ لِي فيما جَرى عَلَيَّ فيهِ قَضاؤُك، وَألزَمَني حُكْمُكَ وَبَلاؤُكَ، وَقَد أتَيْتُكَ يا إلَهي بَعْدَ تَقْصيري وَإسْرافي عَلى نَفْسي مُعْتَذِراً نَادِماً مُنْكَسِراً مُسْتقيلاً مُسْتَغْفِراً مُنيباً مُقِرّاً مُذْعِناً مُعْتَرِفاً، لا أجِدُ مَفَرّاً مِمَّا كانَ مِنّي وَلا مَفْزَعاً أتوَجَّهُ إليْهِ في أمْري، غَيْرَ قَبُولِك عُذْري وإدْخالِك إيَّايَ فِي سَعَةٍ منْ رَحْمَتِك، اللَّهُمَّ فَاقْبَلْ عُذْري وارْحَمْ شِدَّةَ ضُرِّي، وَفُكَّني مِن شَدِّ وَثَاقي، يا رَبِّ أرْحَمْ ضَعْفَ بَدَني وَرِقَّةَ جِلْدِي وَدِقَّةَ عَظْمي، يا مَن بَدَأ خَلْقي وَذِكري وَتَربيَتي وَبِرّي وَتَغْذِيَتي، هَبْني لابْتِداءِ كَرَمِكَ وَسالِفِ بِرِّكَ بي، يا إلهي وَسَيِّدي وَرَبّي، أتُراكَ مُعَذِّبي بِنارِكَ بعدَ تَوْحيدِكَ، وَبَعْدَما انطَوى عَليه قَلْبي مِن مَعْرِفَتِكَ، وَلَهِجَ بِهِ لِساني مِنْ ذِكْرِكَ، واعتَقَدهُ ضَميري مِن حُبِّكَ، وَبعْدَ صِدقِ اعْترافي ودُعائي خاضِعاً لرُبوبيَّتِك، هَيْهاتَ أنْتَ أكْرَمُ مِنْ أنْ تُضيِّعَ مَنْ رَبَّيتَهُ، أو تُبْعِدَ مَنْ أدْنيتَهُ، أو تُشَرِّدَ مَنْ آويْتَهُ، أو تُسَلِّمَ إلى البَلاءِ مَنْ كَفَيْتَهُ وَرَحِمْتَهُ، وَلَيتَ شِعري يَا سَيِّدي وَإلهي وَمَوْلاي، أتُسَلِّطُ النَّارَ عَلى وُجُوهٍ خَرَّتْ لِعَظَمَتِكَ ساجِدَة، وَعلى ألْسُنٍ نَطَقَت بِتَوحيدِكَ صادِقَةً، وَبِشُكْرِكَ مَادِحَةً، وَعَلى قُلُوبٍ اعْتَرَفتْ بِإلهيَّتِكَ مُحقِّقَةً، وَعَلى ضَمائِرَ حَوَتْ مِنَ العِلْمِ بكَ حَتّى صارَتْ خاشِعَةً، وَعلى جَوارِحَ سَعَت إلى أوطانِ تَعبُّدِكَ طائِعَةً، وأشارَت باسْتِغْفارِكَ مُذْعِنَةً، ما هكَذا الظَنُّ بِكَ وَلا أُخبِرنا بِفَضْلِك عَنْك يا كَريمُ يا رَبِّ وأنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفي عن قَليلٍ مِن بَلاءِ الدُّنيا وعُقوباتِها، ومَا يَجْري فِيها مِنَ المكارِهِ على أهلِها، عَلى أنَّ ذَلِكَ بَلاءٌ ومَكْرُوهٌ، قَليلٌ مكثُهُ، يسيرٌ بَقاؤُهُ، قصيرٌ مُدَّتُهُ، فَكَيْفَ احْتِمالي لِبَلاءِ الآخرَةِ وَجَليلِ وُقُوعِ المكارِهِ فيها، وَهُو بَلاءٌ تَطُولُ مُدَّتُهُ، وَيَدُومُ مَقامُهُ، ولا يُخَفَّفُ عن أهْلِهِ، لأنَّهُ لا يكُونُ إلاّ عَنْ غَضبِك وانتِقامِك وَسَخَطِك، وَهذا مَا لا تَقُومُ لهُ السماواتُ والأرضُ، يا سيِّدي فكيفَ بِي وَأنا عَبْدُكَ الضَّعيفُ الذَّليلُ،

الحَقيرُ المِسْكينُ المُسْتكينُ، يا إلهي وَربِّي وَسَيِّدي وَمَوْلاي، لأيِّ الأمُورِ إليكَ أشكُو، وَلِما مِنْها أضِجُّ وأبْكي، لأليمِ العَذابِ وَشِدَّتِهِ أم لطولِ البَلاءِ وَمُدَّتِهِ، فَلَئِن صَيَّرتَني للعُقوباتِ مَعَ أعدائِك، وَجَمَعْتَ بَيْني وَبَيْن أهْلِ بَلائِك، وفَرَّقت بَيْني وَبيْنَ أحبّائك وأوليائِك، فَهَبْني يا إلهي وَسيِّدي ومولايَ وَربِّي صَبَرْتُ على عذابِك، فَكَيْفَ أصبِرُ على فِراقِك، وَهَبني يا إلهي صَبرتُ على حَرِّ نارِك، فَكَيْفَ أصبِرُ عَنِ النَّظَرِ إلى كَرامَتِك، أمْ كَيْفَ أسْكُنُ في النَّارِ وَرَجائِي عَفْوُكَ، فَبِعزَّتِكَ يا سَيِّدي وَمَولاي أُقْسِمُ صادِقاً، لَئِنْ تَرَكْتَني ناطِقاً لأضِجَّنَّ إليْكَ بَين أهْلِها ضَجيجَ الآمِلين، ولأصْرُخَنّ إليْكَ صُراخَ المُسْتَصْرِخينَ، وَلأبْكِيَنَّ عَليْكَ بُكاءَ الفاقِدين، وَلأُنادينَّكَ أيْنَ كُنْتَ يا وَلِيَّ المؤمِنين، يا غَايَة آمالِ العارفينَ، يا غِياثَ المسْتَغيثينَ، يا حَبيبَ قُلوبِ الصَّادِقين، ويا إلَهَ العالَمين، أفَتُراكَ سُبْحانَك يا إلهي وَبِحمْدِكَ تَسْمَعُ فيها صَوْتَ عَبْدٍ مُسْلِمٍ سُجِنَ فيها بِمُخالفَتِه، وَذَاقَ طَعْمَ عذابِها بِمَعْصيتِه، وَحُبِس بَيْنَ أطباقِها بِجُرْمِهِ وَجَريرَتِه، وَهُوَ يَضِجُّ إلَيْكَ ضَجيجَ مُؤمِّلٍ لِرَحْمَتِك، وَيُنادِيكَ بلِسانِ أهلِ توحيدِكَ، وَيتوسّلُ إلَيْكَ برُبوبيَّتِكَ، يا مَولاي فكَيْفَ يَبْقى في العَذَابِ وَهُو يَرْجُو ما سَلَف مَنْ حِلْمِك، أمْ كَيْفَ تُؤلِمُهُ النَّارُ وَهو يَأمُلُ فَضْلَكَ وَرَحْمتَك، أمْ كَيْف يُحرِقُهُ لَهيبُها وأنْت تَسْمَعُ صَوْتَهُ وتَرى مكانَهُ، أمْ كَيْفَ يَشْتَمِلُ عليهِ زَفيرُها وأنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفَهُ، أمْ كَيْفَ يتقَلقَلُ بين أطباقِها وأنْتَ تَعْلَمُ صِدْقَهُ، أمْ كَيْفَ تَزْجُرُهُ زَبانيتُها وَهُوَ يُناديكَ يا رَبّاهُ، أمْ كَيفَ يَرْجُو فَضْلَك في عِتْقِهِ مِنْها فَتَتْرُكُه فِيها، هَيْهاتَ مَا ذَلِك الظَّنُّ بِكَ ولا المَعْروفُ مِنْ فَضْلِكَ، وَلا مُشْبِهٌ لِما عَامَلْتَ بِهِ الموَحِّدينَ مِن بِرِّكَ وإحْسانِكَ، فَباليَقينِ أقطَعُ، لَوْلا مَا حكَمْتَ به مِن تَعْذيبِ جاحِديك، وَقَضيتَ بِهِ مِن إخْلادِ مُعانِديكَ، لَجعلْتَ النّارَ كُلَّها بَرْداً وَسَلاماً، وَما كانت لأحَدٍ فيها مَقَراً وَلا مُقاماً لكِنَّكَ تقدَّسَتْ أسْماؤُكَ أقْسَمْتَ أنْ تَمْلأها مِنْ الكافرينَ، مَن الجِنَّةِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ، وأنْ تُخَلِّدَ فِيها المُعانِدينَ، وأنتَ جَلَّ ثَناؤُكَ قُلْتَ مُبْتَدِئاً، وَتَطَوَّلْتَ بالإنْعام مُتكَرِّماً، أفَمَنْ كَان مُؤمِناً كَمَنْ كَان فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ، إلهي وَسَيِّدي، فأسْألُك بِالقُدْرَةِ الّتي قَدَّرْتَها، وبالقَضيَّةِ الّتي حَتَمْتَها وَحَكَمْتَها وَغلَبْتَ مَنْ عَلَيْهِ أجْريتَها، أن تَهَبَ لي في هَذِه اللَّيْلَةِ وَفِي هَذِهِ السَّاعَةِ، كُلَّ جُرْمٍ أجْرَمْتُهُ، وَكُلَّ ذَنْبٍ أذْنَبْتُهُ، وَكلَّ قَبيحٍ أسرَرْتُهُ، وَكُلَّ جَهْلٍ عَمِلْتُهُ

كَتَمْتُهُ أو أعْلَنْتُهُ أخْفَيْتُهُ أو أظْهَرْتُهُ وَكُلَّ سَيئةٍ أَمَرتَ بإثْباتِها الكِرامَ الكاتبينَ، الّذينَ وَكَّلْتَهُمْ بِحِفْظِ ما يكُونُ مِنّي، وجَعَلْتَهُمْ شُهُوداً عَلَيَّ مَعَ جَوارِحي، وَكُنْتَ أَنْتَ الرَّقيبَ عَلَيَّ مِنْ وَرائِهِم، وَالشَّاهِدَ لِما خَفِي عَنْهُمْ وَبرَحْمَتِكَ أخْفَيْتَهُ، وَبِفَضْلِكَ سَتَرْتَهُ، وأنْ تُوَفِّرَ حَظّي مِنْ كُلِّ خَيْرٍ تُنْزِلُهُ، أو إحْسانٍ تُفْضِلُهُ، أَوْ بِرٍ تَنْشُرُهُ، أَوْ رِزْقٍ (بَسَطْتَهُ) تَبْسُطُهُ، أو ذَنْبٍ تَغْفِرُهُ، أَوْ خَطأٍ تَسْتُرُهُ، يَا رَبِّ يَا رَبِّ يَا رَبِّ، يا إلهي وَسَيِّدي وَمَولايَ وَمالِكَ رِقّي، يا مَنْ بِيَدِهِ ناصِيَتي، يا عَليماً بِضُرّي وَمَسْكَنَتي، يا خَبيراً بِفَقْري وَفاقَتي، يَا رَبِّ يَا رَبِّ يَا رَبِّ، أسأَلُكَ بِحَقِّكَ وَقُدْسِكَ وَأَعْظَمِ صِفاتِكَ وأَسْمائِكَ، أنْ تَجْعَلَ أَوْقاتي فِي اللَّيلِ والنَّهارِ بِذِكْرِكَ مَعْمورَةً، وَبِخِدْمَتِكَ مَوْصُولةً، وَأعْمالي عِنْدَكَ مَقْبولَةً، حَتّى تكُونَ أعْمالي وَأورادِي كُلُّها وِرْداً واحِداً، وَحالي فِي خِدْمَتِكَ سَرْمَداً، يا سَيِّدي يَا مَنْ عَلَيْهِ مُعَوَّلي، يَا مَنْ إلَيْه شَكَوْتُ أَحْوالي، يَا رَبِّ يَا رَبِّ يَا رَبِّ قَوِّ عَلى خِدْمَتِكَ جَوارِحي، وَاشدُدْ على العَزيمَةِ جَوانحي، وَهَبْ لِي الجِدَّ فِي خَشْيَتِكَ، وَالدَّوَامَ فِي الاتِّصالِ بِخِدْمَتِكَ، حتّى أَسْرَحَ إلَيْكَ في مَيادينِ السَّابِقينَ، وَأُسْرِعِ إليكَ في البارِزين، (المبادِرين) وَأشتاقَ إلى قُرْبِكَ فِي المُشْتاقِينَ، وَأدْنوَ مِنْكَ دُنُوَّ المخْلِصينَ، وَأخافَكَ مَخافَةَ المُوقِنين، وأجْتَمِعَ في جِوارِكَ مَع المؤْمِنينَ، اللَّهُمَّ وَمَن أرادَني بِسوءٍ فَأرِدْهُ وَمَنْ كادَني فَكِدْهُ واجْعَلْني مِنْ أحْسَنِ عِبيدِكَ نَصيباً عِنْدَكَ، وأقْرَبِهِم مَنْزِلَةً مِنْكَ، وأخَصِّهِمْ زُلْفَةً لَديْكَ، فَإنّهُ لا يُنالُ ذَلِك إلاّ بِفَضْلِكَ، وَجُدْ لي بِجُودِكَ، واعْطِفْ عَلَيّ بِمَجْدِكَ، وأحْفَظْني بِرَحْمَتِكَ، وَاجْعَلْ لِساني بِذِكْرِكَ لَهِجاً، وَقلْبي بِحُبِّكَ مُتيَّماً، وَمُنَّ عَلَيَّ بِحُسْنِ إجابَتِك، وَأقِلْني عَثْرَتي وأغْفِرْ زَلَّتي، فَإنَّكَ قَضَيْتَ على عِبادِكَ بِعبادَتِك، وأمَرْتَهُمْ بِدعائِكَ، وَضَمِنْتَ لَهُمْ الإجابَةَ، فإليكَ يا رَبِّ نَصَبْتُ وَجْهي، وإلَيْكَ يا رَبِّ مَدَدْتُ يَدي، فَبِعِزَّتِكَ اسْتَجِبْ لي دُعائي وَبَلِّغْني مُناي، وَلا تَقْطَعْ مِنْ فَضْلِكَ رَجائِي، واكْفِني شَرَّ الجِنِّ والإنْس مِن أعْدائي، يا سَريعَ الرِّضا، إغْفِرْ لِمَنْ لا يَمْلِكُ إلاّ الدُّعاء، فإنّك فَعّالٌ لِما تَشاءُ، يا مَنْ اسْمُهُ دَواءٌ، وذِكْرُهُ شِفاءٌ، وَطاعَتُهُ غِنىً، إرْحَمْ مَنْ رأسُ مالِهِ الرَّجاء، وسِلاحُهُ البُكاءُ، يا سابِغَ النِّعَمِ، يا دافِعَ النِّقَمِ، يا نُورَ المُسْتَوحِشينَ فِي الظُّلَمِ، يا عالِماً لا يُعَلَّمْ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمّدْ، وافْعَل بِي مَا أنتَ أهْلُهُ، وَصَلّى الله على رَسولِهِ والأئِمَّةِ المَيامِين مِنْ آلِهِ وَسَلَّمَ تسليماً كَثيراً.

شـرح الدعـاء

بسم الله الرحمن الرحيم

١ـ «اللَّهُمَّ إنّي أسأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ الّتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ، وَبقُوتِّك الّتي قَهرتَ بِها كُلَّ شَيءٍ وَخَضَعَ لَهَا كُلُّ شَيءٍ، وَذَلَّ لَها كُلُّ شَيءٍ، وَبجَبَروتِكَ الّتي غَلَبْتَ بِها كُلَّ شَيءٍ، وَبِعِزّتِكَ الّتي لا يَقُومُ لَها شَيء، وَبِعَظَمَتِكَ الّتي مَلأتْ كُلَّ شَيءٍ، وَبِسُلْطانِكَ الّذي عَلا كُلَّ شَيء، وَبِوجْهِكَ الباقِي بَعْدَ فَناءِ كُلِّ شَيءٍ، وَبِأَسْمائِكَ الّتي مَلأتْ أركانَ كُلِّ شَيءٍ، وَبِعِلْمِكَ الّذي أحاطَ بِكُلِّ شَيءٍ، وَبِنُورِ وَجْهِكَ الّذي أضاءَ لَهُ كُلُّ شَيءٍ، يا نُورُ، يا قُدُّوسُ، يا أوَّلَ الأوّلين، ويا آخِرَ الآخِرين».

أدب الدعاء يقضي أن يبدأ الداعي عندما يتوجه إلى ربه ليطلب منه المغفرة، والعفو عما صدر منه من الذنوب أن يقسم عليه بصفاته الكريمة، وأسمائه المقدسة جلباً للعطف ومدعاة للحنو عليه.

وفي هذا الفصل يبدأ الداعي بالقسم على ربه ليكون ذلك مفتاحاً لتوجيه الطلب إليه، وتمهيداً لفتح باب المناجاة معه.

ومع هذا الفصل في فقراته الدعائية:

(اللَّهُمّ).

يتفق علماء العربية في أن الأصل في هذه الكلمة هو (يا الله) ولكنهم اختلفوا في كيفية تركيبها الخارجي، وأنه كيف صارت (اللهم) بدلاً من (يا الله)؟

يقول البعض منهم: أن العرب تركت الهمزة من لفظ الجلالة فاتصلت الميم بالهاء، وصار حرف النداء، والمنادى كالحرف الواحد، واكتفي به من ذكر (يا) فاسقطت فكانت الكلمة (اللهم).

ويقول هؤلاء: بأن العرب ربما أدخلوا على هذه الكلمة حرف النداء (يا) فقالوا: (يا اللهم اغفر لنا).

أما البعض الآخر فيقول: بأن هذه الكلمة أصلها (يا الله) فهي منادى، ولكن دورانها على الألسن حذف حرف النداء (يا)، وعوض عنه (بميم) مشددة وضعت في آخر الكلمة فكانت بحسب التركيب الخارجي (اللهم) [١].

وعلى كلا النقلين الملاحظ أن الأصل في كلمة (اللهم) يا الله.

أما كيف تحول حرف النداء، والمنادى إلى هذه الكلمة فهذا ما لا يغير المقصود من أدب الدعاء من الافتتاح بالمناجاة مع الله سبحانه بعبارة (يا الله).

وهكذا يحسن بالداعي أن يبدأ، فيفتتح دعاءه باسم الله، ويستعين به من المبدأ إلى الأخير.

(إني أسألك).

والسؤال طلب، ولكن الطلب إذا كان من العالي إلى الداني فهو أمر، وإذا كان من المساوي فهو التماس، أما إذا كان من الداني إلى العالي فهو سؤال.

والسائل هو المستعطي كما أن الفقير يطلق عليه السائل.

ولأجل هذا يتجه الداعي، وهو الفقير إلى ربه ليسأله من رحمته ولم يقل: ربي أريد، أو أطلب، بل هو سائل بما تشتمل عليه هذه الكلمة من خشوع، وخضوع.

(برحمتك التي وسعت كل شيء).

والباء للقسم، والداعي يسأل ربه مقسماً عليه برحمته، والتي هي في اللغة: رقة القلب، وإنعطاف يقتضي الفضل، والإحسان والمغفرة.

هذا الإنعطاف الذي يشمل كل شيء في هذا الوجود بما في الكون من موجودات، وكائنات فهي مغمورة بلطفه، ومشمولة لعنايته ولم لا يقسم الداعي على

---

(١) ابن منظور: لسان العرب: مادة (إله). والزاهر/ ١، ١٤٦.

الله برحمته الواسعة؟ وقد أخبر هو جل اسمه عن هذا العطف بقوله:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾[٢].

ففي كل لحظة من لحظات الحياة تفيض الرحمة على ابن آدم تتابعه من حين انعقاد نطفته إلى ما بعد ولادته، وحتى بعد موته، وكذلك يوم القيامة، وعند الحساب فعن الامام الصادق (عليه السلام): «إذا كان يوم القيامة نشر الله تبارك وتعالى رحمته، حتى يطمع إبليس في رحمته»[٣].

وبماذا يقابل العبد ربه، وهو يمنحه هذه الهبات، والعطايا وكلها عطف ولطف؟ ولماذا يستكثر العبد على نفسه ذنوبه مهما كانت إذا عاد إلى رحاب الله تائباً يناجي ربه؟ ويقسم عليه برحمته وهو الذي لوح له ببارق الأمل بقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾[٤].

والسرف: هو التجاوز. والقنوط: هو اليأس.

وبهذا الوعد يتجلى لطف الخالق في أروع صورة فلماذا اليأس حتى ولو أسرف العبد في المخالفة ما دام قد أخبر سبحانه بأنه: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[٥].

وكتب: بمعنى سجل، وألزم نفسه بالرحمة لعباده.

ولمن: فهل خص برحمته فئة معينة؟

أم لماذا: فهل أجبره أحد على ذلك؟

الآية الكريمة: هي تجيب على هذه الاستفهامات بعد أن كانت مطلقة، وغير مقيدة بشيء، بل رحمته تعم الجميع من دون سبب أو تأثير خارجي لأن عطفه نابع

---

(١) سورة الاعراف: الآية، ١٥٦.

(٢) سورة الأنعام: الآية، ١٤٧.

(٣) المجلسي: بحار الأنوار/ ١٠٨، ١٠٤.

(٤) سورة الزمر: الآية، ٥٣.

(٥) سورة الأنعام: الآية، ١٢.

من فيض ذاته المقدسة، وباقتضاء من حنوه، ولطفه على مخلوقاته:

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾.

حتى ولو قابله العبد بالإسائة، والتقصير.

فخيره إلينا نازل وشرنا إليه صاعد.

إذا كنت تجزي الذنب فما الفرق ما بيني وبينك

(وبقوتك).

والباء: للقسم أيضاً، والقوة ضد الضعف، وبه قوة أي به طاقة وقوة الله ليست كقوة العبد، والتي هي من سنخ القوى العشرة والتي منحها الله لعباده من السامعة، والباصرة، والشامة، واللامسة، والعاقلة، وغيرها سواءً كانت هذه القوى مدركة للجزئيات أو الكليات. بل هي قدرته غير المتناهية، والذاتية له حيث لا يقف في قبالها شيء لأنه على كل شيء قدير.

(التي قهرت بها كل شيء).

وهكذا يتدرج الداعي ليقسم على ربه بقوته فهو القادر على ما يشاء لا يمتنع عليه شيء، ولا يقف في طريق إرادته أحد من الخلق:

﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1].

وتبدو روعة الانتقال في الدعاء من التوسل إليه برحمته الواسعة إلى التضرع بالقسم عليه بقوته القاهرة.

رحمته التي تمثل الدعة في الانعطاف، والفضل في الإحسان واللطف في المغفرة.

وقوته التي تتجسم فيها كل آيات القدرة على ما في هذا الوجود ليعلم أن هذه الرحمة، وهذا العطف ليس من قصور في ذاته المقدسة لكونه لا يقدر على شيء، بل

---

(١) سورة غافر: الآية، ٦٨.

هي رحمة تنبعث من قدرة قادر قاهر. فهو في الوقت الذي يملك القدرة المطلقة في عالم الأسباب، وله الغلبة في كل شيء نراه رحيماً يطمع حتى إبليس في رحمته.

فإذا غفر فعن قدرة. وإذا عف فعن رفعة.

(وخضع لها كل شيء).

الخضوع: هو الانقياد، والتطامن، والتواضع [1].

والضمير في قوله (لها) يعود إلى القدرة. والمعنى: يا رب أقسم عليك بقدرتك التي قهرت بها كل شيء في هذا الوجود فكان من نتيجة ذلك أن خضع لقدرتك كل ما في هذا الوجود.

وقد يقال: أن توصيف القدرة بقوله: **(قهرت بها)** والقهر هو الغلبة يغني عن عطف (وخضع لها) لأن تلك الأشياء كلها خاضعة لقدرته لأنها مغلوبة لها.

والجواب عن ذلك: أن العطف بالإخبار بالخضوع يحمل بين طياته معنىً دقيقاً ذلك هو: أن الله، وإن كانت قدرته غالبة على كل شيء فإن التغلب على الشيء ليس معناه تطامن ذلك المغلوب، والإنقياد للغالب نفسياً، بل أقصى ما يدل عليه أنه تحت سيطرته، وسطوته. ولكن الإخبار بخضوع الأشياء لقدرته معناه أن كل شيء في هذا الوجود قد تطامن، وانقاد، وتواضع لقدرته.

(وذل لها كل شيء).

ذل: جاءت في اللغة لمعنيين:

١ـ أنها مأخوذة من الذل بالكسر، وهو ضد الصعوبة أي (انقاد) ويكون معنى الجملة على هذا التقدير: وبقدرتك التي انقاد لها كل شيء.

٢ـ أنها مأخوذة من الذل بالضم، وهو ضد العز، ومعناه: إن الشيء هان، ويكون المعنى: وأسألك بقدرتك التي هان لها كل شيء.

---

(١) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (خضع).

أما أن أياً من هذين المعنيين أنسب بسياق الدعاء.

فالجواب: أن يكون المعنى الثاني وهو: الذل بالضم، وذلك لأن أخذ الذل على هذا المعنى يجعل المعنى من جملة (وخضع لها كل شيء).

ويختلف عن المعنى في جملة (وذل لها كل شيء) لأن الخضوع ـ كما قلنا ـ هو الإنقياد، والذل بالضم ضد العز، وأحدهما مغاير للآخر، فتكون كل جملة قد أفادت معنى غير الذي جاءت به الجملة الأخرى، المعطوف والمعطوف عليه.

أما لو أخذ الذل بالكسر، فإن المراد من الجملتين يكون واحداً، وهو الإنقياد فلا يكون بين الجملتين من حيث أدائهما للمعنى فرق عدا التوضيح. ومن الواضح عند دوران الأمر بين حمل الكلام على تأسيس معنى، أو حمله على التوضيح لما سبق يقولون أن حمله على التأسيس أولى من حمله على التوضيح، طبقاً لما يقرره علماء الأصول في بحوثهم الأصولية.

(وبجبروتك التي غلبت بها كل شيء).

الجبروت: من صيغ المبالغة بمعنى العظمة، والكبر، والقدرة، والسلطة. وهي صفة توحي بالقهر، والغلبة، والإستعلاء.

ولأجل ذلك كان الاتصاف بهذه الصفة من مختصات الله تعالى.

فإن وصف بها سبحانه كانت مدحاً وإن وصف بها إنسان كانت ذماً إذ لا استعلاء إلاّ له، ولا كبر إلاّ له، ولا غالب إلاّ هو. صفات لا يشاركه فيها أحد ولهذا يقسم الداعي بها عليه لمكان الاختصاص.

(وبعزتك).

العزة: بالكسر ضد الذلة، وهي مصدر بمعنى الغلبة، والقهر، ومثل ذلك: ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾[1] أي: غلبني في الإحتجاج[2].

---

(١) سورة ص: الآية، ٢٣.

(٢) ابن منظور: لسان العرب/ مادة (عزز، وعظم).

(التي لا يقوم لها شيء).

وفي اللغة: قام على الأمر: دام، وثبت. فلا يقوم: أي لا يثبت، والمعنى: أقسم عليك بغلبتك، وقهرك المتمثلان بعزتك التي لا يثبت أمامها شيء، بل كل شيء متضائل أمام عزته، وسطوته.

(وبعظمتك).

العظمة: محركة الكبر، والنخوة، والزهو.

والعظمة لله هي الاستقلال، والاستغناء عن الغير.

أما عظمة العبد فهي: تكبره، وتجبره، ولذلك فإذا وصف العبد بالعظمة، فهو ذم له لأن العظمة لله وحده لا شريك له [١].

وقد جاء في الحديث القدسي: (والعظمة ردائي) [٢].

وإذا كانت العظمة رداء الله، وجلاله فكيف يشاركه فيها غيره؟

ولذلك كان وصف العبد بها ذماً كما يقوله اللغويون لأنه إستعلاء، وتطاول على ما ليس له، وهو مخلوق ضعيف: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [٣].

(التي ملأت كل شيء).

والضمير في قوله: (ملأت) يعود إلى العظمة، وملأت الإناء أي وضعت فيه بقدر ما يأخذه فهو مملوء، ومنه القول: (نظرت إليه فملأت منه عيني) [٤].

والمعنى الذي يقصده الدعاء بهذه الجملة هو أن يقسم على الله بعظمته التي إذا قيست إلى كل شيء كان ذلك الشيء مملوءاً ومأخوذاً بتلك الهيبة الإلهية، والجلالة

---

(١) لسان العرب/ مادة عزز وعظم.

(٢) الشعراني: العهود المحمدية/ ٤٣٨.

(٣) سورة الحج: الآية، ٧٣.

(٤) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة ملاء.

القدسية، كما يملأ الماء الإناء حيث يصل إلى حافته.

(وبسلطانك).

السلطان: من السلطة، وهي القدرة، والملك. فالسلطان هو القادر، والمالك، والمتسلط على غيره.

(الذي علا كل شيء).

وتسلطه جلت عظمته على ما في الوجود هو قدرته عليه، وكون الأشياء مسخرة لإرادته: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾[١].

ولم يقتصر الأمر على الأرض فقط، حيث كانت كلها تحت قبضته يدبرها كيف يشاء، بل: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[٢].

فعلوه اللامتناهي على كل شيء ينشأ من هذه السلطة الجبارة.

(وبوجهك).

الوجه: أول ما يبدو للناظر من البدن، وفيه العينان، والأنف، والفم، وكذلك مستقبل كل شيء وجهه.

ولأهل اللغة والمفسرين آراء كثيرة في تفسير (وجه الله)، وقد تضمن القرآن الكريم آيات عديدة أضيف فيها الوجه إليه تعالى، ولكن الذي يأتي في مقدمة تلك المعاني هو تفسيره بأنه: ذاته المقدسة، ونفسه الشريفة [٣].

(الباقي بعد فناء كل شيء).

والفناء خلاف البقاء، والجملة صفة لذاته المقدسة، وهي مستوحاة من قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[٤].

---

(١) سورة الزمر: الآية، ٦٧.

(٢) سورة الزمر: الآية، ٦٧.

(٣) ابن منظور: لسان العرب/ مادة (وجه).

(٤) سورة القصص: الآية، ٨٨.

والمعنى: أقسم عليك بذاتك التي تبقى، ويفنى كل شيء، والآية الكريمة تؤيد أن يكون المراد من وجه الله هو ذاته ونفسه حيث يهلك كل شيء إلاّ هو، وقد عبّر فيها عن نفسه بوجهه: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾(١).

(وبأسمائك).

الأسماء: جمع اسم، والاسم مأخوذ من السمة، وهي العلامة وأسماؤه سبحانه هي: صفاته، وصفاته عين ذاته، وليست زائدة على عين الذات، وهي:

عليم، وقدير، وغني، وحي، ومحيي، ومميت، وكبير، وقاهر إلى غيرها مما تضمنته الكتب لبيان اسمائه، وهي كلها ثابتة له إذ عدم ثبوتها، ونفيها عنه معناه: إثبات النقص إليه، ولا سبيل إلى ذلك لاستلزام النقص محدوديته، ولا يحد سبحانه بحد.

أما عدد أسمائه تعالى فكثيرة، ولكن الأسماء الحسنى، والتي نوه عنها القرآن الكريم في أكثر من آية فهي: مائة وسبعة وعشرين اسماً(٢).

(التي ملأت أركان كل شيء).

وقد تقدم تفسير مثل هذه الجملة في ما تقدم من قوله: (وبعظمتك التي ملأت كل شيء)، والمعنى في الموردين واحد.

ويأتي القسم من الداعي على الله بأسمائه في هذه الفقرة طبقاً لما أمر الله به عباده في آيات كريمة منها:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ ﴾(٣). ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ ﴾(٤).

﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ ﴾(٥).

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٥٥.

(٢) لاحظ بتفصيل لهذا البحث تفسير الميزان: للسيد الطباطبائي ٨/ ٣٦٦ .

(٣) سورة الاعراف: الآية، ١٨٠ .

(٤) سورة الاعراف: الآية، ٢٩ .

(٥) سورة الاعراف: الآية، ٥٦ .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[(١)].

وهكذا تتوالى الآيات الكريمة تحث العبد على الدعاء، والذي هو إنشداد المخلوق إلى ربه، وتوجهه إلى مصدر العطاء.

إن الإنسان ليقف أمام هذا الحشد من الآيات الكريمة، والحيرة تأخذ عليه مسالك التفكير، فلماذا كل هذا الأمر بالتوجيه بالدعاء، أليس هو لطف منه نحو عبيده المذنبين؟

أليس هو فيض من رحمته نحو هؤلاء المقصرين؟

وهل يخشى الداعي عدم الإجابة بعد تعهده بها في قوله:

﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾

فمن أقوى من الله ضماناً، وبوركت صفقة كان الضامن فيها هو الله.

إن اليأس من رحمة الله هي الضلال بعينه فقد قال تعالى:

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾[(٢)].

ولكنه ابن آدم يدب اليأس إليه، وقد قال تعالى عنه:

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾[(٣)].

ولكنه سبحانه وتعالى يطمئن عباده قائلاً:

﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾[(٤)].

(وبعلمك).

العلم: بالكسر إدراك الشيء بحقيقته، وقيل: هو اليقين وقيل: أنه بمعنى المعرفة.

---

(١) سورة المؤمن: الآية، ٦٠ .

(٢) سورة الحجر: الآية، ٥٦.

(٣) سورة الروم: الآية، ٣٦.

(٤) سورة الزمر: الآية، ٥٣.

وقيل: إن بين المعرفة، والعلم فرقاً فإن العلم يقال: لإدراك الكلي، أو المركب، والمعرفة تقال لإدراك الجزئي، أو البسيط.

ومن هنا يقال: عرفت الله، دون علمت الله.

وقيل: العلم في الإنسان، والمعرفة في البهائم.

وقيل: العلم هو: الاعتقاد الجازم المطابق للواقع.

وفي الحقيقة: أن العلم بالشيء معنىً أصبح ينتقل إليه بحيث لا يحتاج إلى تعريف لوضوحه.

(الذي أحاط بكل شيء).

أحاط بالأمر: أحدق به من جوانبه، وجاء في القرآن قوله:

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾[1].

أي أن قدرته شاملة، ومشتملة عليهم، ولا يعجزه أحد. أما أنه عالم بكل شيء، وعلمه محيط بذلك، فلأنه علة الأشياء كلياتها وجزئياتها، ومن الواضح أن العلم بالعلة يستلزم العلم بالمعلول فينتج من ذلك أنه تعالى عالم بجميع الأشياء إذ لا مؤثر في الوجود غيره، وقد أخبر الكتاب الكريم عن هذه الحقيقة في أكثر من آية فقال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[4].

ومن هذا المنطلق يأتي القسم على الله بعلمه الذي أحاط، وأحدق بكل شيء في هذا الكون، وما تكتنفه من أكوان أخرى.

---

(١) سورة البروج: الآية، ٢٠.

(٢) سورة التغابن: الآية، ٤.

(٣) سورة التوبة: الآية، ١١٥.

(٤) سورة الحجرات: الآية، ١٦.

وقد يتساءل عن السبب في هذا التكرار بالقسم عليه بعلمه مع أن علمه من جملة ما اشتملت عليه الفقرة المتقدمة بقوله: (وباسمائك التي ملأت أركان كل شيء) ومن جملة أسمائه العليم، العالم.

وإذاً فقد أقسم الداعي على الله بعلمه فما هو وجه التصريح بهذه الصفة مع تقدمها إجمالاً، وفي أسمائه جلّت عظمته؟

ويجاب عن ذلك: بعدم المنافاة بين البيانين إجمالاً في الأول، وتفصيلاً في الثاني لخصوصية في التنصيص على صفة العلم المحيط بكل شيء، وربما كانت الخصوصية هي: بيان حال الداعي عند تدرجه في التضرع إليه سبحانه، وبالقسم عليه بصفاته وأنه صادق في هذا الالتجاء حيث أقسم عليه مجدداً بعلمه الذي أحاط بكل شيء، ومن جملة ما أحاط به علمه هو حالته التي هو عليها من التوبة، والندم، وأنه صادق في توسله الذي يخرج عن قلب فإن الله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [1].

(وبنور وجهك).

النور: بالضم الضوء، وهو خلاف الظلمة، وقيل: النور كيفية تدركها الباصرة، جمع أنوار، ونيران.

والنور قسمان: حسي، ومعنوي.

أما الحسي: فهو ما كان قائماً بغيره كنور الشمس، ونور الكهرباء وغيرهما.

وأما المعنوي: فهو ما كان قائماً بذاته.

ونور الله ليس من القسم الأول، بل هو نفحاته القدسية التي يستنير بها كل شيء، ويهتدي من في السماوات والأرض، بعد أن كانت عدماً فخلقها، ومنحها الوجود.

وقد اقتبست هذه الفقرة من الآية الكريمة: في قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [2].

---

(١) سورة غافر: الآية، ١٩.

(٢) سورة النور: الآية، ٣٥.

النور الذي فيه قوامها، ومنه نظامها فهو الذي يهبها جوهر وجودها ويودعها ناموسها.

ولقد استطاع البشر أخيراً أن يدركوا بعلمهم طرفاً من هذه الحقيقة الكبرى عندما استحال في أيديهم ما كان يسمى بالمادة بعد تحطيم الذرة إلى اشعاعات منطلقة لا قوام لها إلاّ النور، ولا مادة لها إلاّ النور فذرة المادة مؤلفة من كهارب والكترونات تنطلق عند تحطيمها في هيئة اشعاع قوامه هو النور.

فأما القلب البشري فكان يدرك الحقيقة الكبرى قبل العلم بقرون كان يدركها كلما شف، وقرب، ولقد أدركها كاملة شاملة قلب محمد رسول الله (ﷺ) ففاض بها وهو عائد من الطائف نافض كفيه من الناس عائذ بوجه ربه يقول: (أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، وفاض بها في رحلة الاسراء، والمعراج فلما سألته عائشة هل رأيت ربك؟ قال: نور إني أراه) [١].

(يا نور).

وبهذا ينهي الإمام (عليه السلام) هذا العرض المتوالي من القسم عليه بصفاته الكريمة، ويبدأ بمرحلة جديدة من إظهار الحالة النفسية للداعي، وهي مرحلة النداء، والإستغاثة، والتوسل بأحلى صفاته، وهي: النور، القدوس، أول الأولين، وآخر الآخرين.

النور: الذي هو مصدر الحياة لكل ما هو مسبوق بالعدم.

(يا قدوس).

وهو بالضم، وقد يفتح: الطاهر المنزه عن العيوب، والنقائص، وعن كل شريك، فالشريك نقص لشريكه، ولذلك فهو تعالى منزه عن هذا النقص أيضاً.

(يا أول الأولين ويا آخر الآخرين).

وهي نداءات تتوالى يضرع بها الإمام (صلوات الله عليه) إلى ربه ويصفه بأنه

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن/ في تفسيره للآية ٣٥ من سورة النور.

الأول قبل كل شيء، والآخر بعد الأشياء، فلا شيء قبله، ولا شيء بعده.

وليست الأولية والآخرية بالنسبة إليه تعالى زمانيتين لأن حده بالزمان يستلزم محدوديته، واستلزام محدوديته معناه:

إحاطة الزمان به، وهذا يعني احتياجه تعالى إلى المحدد، وكل ذلك نقص فيه وهو المنزه عن كل نقص.

سئل الامام الصادق (عليه السلام) عن الأول، والآخر فقال:

الأول (لا عن أول قبله، ولا عن بدء سبقه، والآخر لا عن نهاية كما يعقل من صفة المخلوقين، ولكن قديم أول، وآخر لم يزل، ولا يزال بلا بدء، ولا نهاية لا يقع عليه الحدوث، ولا يحول من حال إلى حال خالق كل شيء)[1].

ومن الغريب أن يكون النداء بهذه الفقرات بحرف (يا) مع أنها موضوعة في المصطلح النحوي لنداء البعيد فكيف يلتئم هذا مع إخباره سبحانه عن قربه من العبد بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[2]؟

والجواب عن ذلك: بأن الداعي وجد نفسه بعيداً عن ربه نظراً لجرائمه العديدة، لذلك استعمل في النداء ما يدل على البعد من حروف النداء اعترافاً منه بتقصيره.

٢- (اللَّهُمَّ إغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الّتي تَهْتِكُ العِصَمَ، اللَّهُمَّ إغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الّتي تُنزِّلُ النِقَمَ، اللَّهُمَّ إغفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الّتي تُغَيِّرُ النِّعَمَ، اللَّهُمَّ إغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الّتي تَحبِسُ الدُّعاءَ، اللَّهُمَّ إغْفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الّتي تُنْزِلُ البَلاءَ، اللَّهُمَّ إغفِرْ لِيَ كُلَّ ذَنْبٍ أذْنَبْتُهُ، وَكُلَّ خَطيئَةٍ أخْطأتُها، اللَّهُمَّ إنّي أتَقَرَّبُ إليْكَ بِذِكْرِكَ، وَاسْتَشْفِعُ بِكَ إلى نَفْسِكَ، وَأسألُكَ بِجودِك، أنْ تُدْنيَني مِنْ قُرْبِكَ وأن تُوزِعَني شُكْرَكَ، وأن تُلْهِمَني ذِكْرِكَ).

في هذا الفصل من الدعاء نلمح من بين فقراته المواضيع التالية:

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ كتاب التوحيد، باب معاني الأسماء واشتقاقاتها، حديث ٦.

(٢) سورة ق: الآية، ١٦.

١ـ يوجه الدعاء الداعي بعد القسم على الله بصفاته، وأسمائه أن ينسق طلبه، ويحدده على نحو الأهم، فالأهم، ولذلك وقبل كل شيء يرى ضرورة تقدمه بطلب غفران الذنوب، والتجاوز عن معاصيه.

٢ـ إن الذنوب كما لها مخلفات أخروية من استحقاق، كذلك لها آثار وضعية تتحقق في هذه الدنيا من تعجيل بلاء، أو تغير نعمة، أو حبس دعاء، وهكذا.

٣ـ التدرج الدعائي في الطلب من الأقل إلى الأكثر، فبينما نرى الداعي يبدأ بطلب المغفرة للذنوب التي تغير النعم ـ مثلاً ـ أو غيرها من الذنوب التي تسبب بعض الأمور الخارجية نرى الداعي يترقى ليطلب من ربه أن يغفر له كل ذنب أذنبه، وكل خطيئة صدرت منه.

وهذا ما نستوضحه عند شرحنا لفقرات الدعاء بالخصوص، وأن هذا الأسلوب له أثره الخاص في جلب رضا الخالق، والوصول من وراء ذلك إلى الغاية المنشودة له من العفو عما صدر منه مطلقاً.

٤ـ موضوع الشفاعة: حيث يتقدم الداعي بجعل وسيط بينه، وبين خالقه ليتشفع له في تحصيل ما يريده منه، وتحقيق ما يطلبه منه.

ومن الإجمال في عرض هذه المطالب المذكورة إلى التفصيل:

(اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم).

غفر الشيء: ستره، والذنوب: جمع ذنب، وهو الجرم، والإثم.

والعصم: من العصمة، وهي المنعة. واعتصمت بالله إذا امتنعت بلطفه عن المعصية وعصمة الله عبده إذا منعه مما يوبقه [1].

وفي الحديث: «ما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي إلاّ قطعت أسباب

---

(١) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (عصم).

السموات من بين يديه وأسخت الأرض من تحته»[١].

وقد يدرج الداعي من أول الدعاء يتوسل إلى ربه، ويقسم عليه برحمته، وبقوته، وهكذا بصفاته، وأسمائه، ولكن من هذه الفقرة من دعائه بدء ببيان المقسم، وهو الشيء الذي كان التوسل، والقسم لأجله، لذلك يبدو لنا واضحاً التناسق والارتباط بين فقرات الدعاء السابقة، وما بدأ به من الفقرات الآتية: (اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم).

وقد تضمنت هذه الجملة التماس العبد من ربه غفران الذنوب التي تهتك العصم أي الذنوب التي تكون سبباً في زوال مناعة العبد من الوقوع في الموبقات، والرذائل.

إن التعبير الدعائي بالذنوب التي تهتك العصم يعطينا فكرة واضحة عن لطف الله في منح الإنسان المناعتين المعنوية، والجسمية فالبدن الصحيح له المناعة الكافية عن تلقي الأمراض التي تخز به وتكون سبباً في علته، أو هلاكه، ومتى ما حافظ الإنسان على الارشادات الصحية كانت مناعته البدنية كافية لصد الأمراض.

أما لو خالف، وأهمل صحته، فإن ذلك معناه عدم مقاومة الجسم لصد أي مرض، وهجومها عليه ونتيجة ضعف المناعة، وانعدامها.

وهذا الإنسان نفسه كما أودعه الله في أصل تكوينه المناعة الجسمية كذلك أودعه المناعة من الوقوع في الموبقات، والرذائل، والتي تكون سبباً في هلاكه أخروياً بحرمانه من لطف الله، وجنته ومن ثم دخوله النار.

هذه المناعة أودعها الله عباده بمنحهم جوهرة العقل، وهداهم النجدين[٢] حيث أبان لهم طريق الخير كما أوضح لهم طريق الشر فإن أعمل الإنسان عقله، وامتثل أوامر ربه، واجتنب نواهيه كان ذلك الإنسان معصوماً، وممنوعاً من الوقوع

---

(١) الطريحي: مجمع البحرين/ مادة (عصم).

(٢) كما جاء في الآية، الكريمة ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ سورة البلد: الآية، ١٠.

في كل ما يوصله إلى العقاب الأخروي.

أما لو خالف ما يمليه العقل عليه من التزام طريق الهداية، وركب هواه، وارتكب الذنوب فإن هذا الإنسان تنعدم عنده المناعة من الوقوع في الرذائل. وطبيعي أن تكون نتيجة هذا الإنسان اليأس، وأنه: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾ (١).

أما الذنوب التي تهتك العصم، وتكون سبباً في زوال المناعة المعنوية، فهي كما عن الامام الصادق (عليه السلام): (وشرب الخمر واللعب، والقمار، وفعل ما يضحك الناس من المزاح، واللهو، وذكر عيوب الناس، ومجالسة أهل الريب) (٢).

ولابد لنا من التنبيه ونحن أمام هذه الفقرات التي بدأ الداعي فيها طلب غفران الذنوب التي تهتك العصم، أو تنزل النقم، أو تغير النعم وغيرها مما سيأتي ذكرها، فإن الأخبار الكريمة ذكرت تلك الذنوب وعددتها ولكنها ليست أسباباً حقيقية في إيجاد مسبباتها من هتك العصم، أو إنزال النقم، بل في الحقيقة أنها مقتضيات لحصول تلك الأمور ـ وعلى سبيل المثال ـ فإن اللعب بالقمار يكون مقتضٍ لزوال مناعة الإنسان من وقوعه في المحرمات، والموبقات، ولكن ـ في نفس الوقت ـ قد لا تترتب على هذا المقتضي النتائج التي ذكرت لها إذا حصل المانع من التأثير، والمغفرة تأتي في مقدمة ما يمنع من تأثير هذه المقتضيات، وهكذا الصدقة، وما شاكل مما يقف في طريق تأثير المقتضي، وترتيب آثاره.

(اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم).

والنقم: جمع نقمة، وهي العقوبة، وكما التمس الداعي في الفقرة السابقة أن يغفر الله له الذنوب التي تهتك العصم، كذلك تضرع إليه أن يغفر له الذنوب التي تنزل العقوبة بحسب طبعها الأولي الاقتضائي.

أما تلك الذنوب فهي: كما جاء عن الامام الصادق (عليه السلام). (نقض العهد،

---

(١) سورة الحج: الآية، ١١.

(٢) الطريحي: مجمع البحرين/ مادة (عصم).

وظهور الفاحشة، وشيوع الكذب، والحكم بغير ما أنزل الله، ومنع الزكاة، وتطفيف الكيل، قال رسول الله (ﷺ) خمس بخمس قالوا: يا رسول الله ما خمس بخمس؟

قال (ﷺ): ما نقض قوم العهد إلاّ وسلط الله عليهم عدوهم، وما ظهرت عنهم الفاحشة إلاّ، وقد فشى فيهم الموت، وما شاع فيهم الكذب، والحكم بغير ما أنزل الله إلاّ وقد فشى فيهم الفقر، وما منعوا الزكاة إلاّ حبس عنهم القطر، وما طففوا الكيل إلاّ منعوا النبات، وأخذوا بالسنين) [١].

وقد يقال: لماذا كانت هذه الذنوب بالخصوص تنزل العقوبة والذنوب كلها من هذه الجهة على حد سواء من ناحية الجرأة على المولى وانتهاك حرمته المقدسة بمخالفته أوامره وعدم اجتناب نواهيه؟

والجواب عن ذلك: بأن هذه الذنوب التي مر ذكرها لو تأملناها رأينا مفاسدها تضر بالمجتمع، وتنخر بكيانه، أو لا اقل ان يقال: أنها من حيث المجموع حيث تتفشى تضعضع كيان المجتمع المتطامن، وتجر أبناءه إلى الويلات، والهبوط في مهاوي الرذيلة.

إن بعض هذه الذنوب يكفي لإفساد مجتمع بكامله فكيف بمجموعها؟

وأي مجتمع يرجى منه الخير، وأبناؤه ينقضون العهد ليسببوا بذلك عدم التزام بأمورهم التجارية، والاجتماعية فتشيع الفوضى بينهم، ولذلك يسلط الله عليهم عدوهم كما أخبر عن ذلك النبي (ﷺ) فيما تقدم من الحديث، وهكذا لو ظهرت الفاحشة فيما بينهم، ومن الفاحشة الزنى، ولا نحتاج إلى بيان ما للزنى من العواقب الوخيمة المضرة في حد ذاتها، والمفسدة لأخلاق، الأفراد، وسلوكهم النفسي فلقد كتب في ذلك الكثير، وبينوا المضار المترتبة على هذه العملية، وغيرها من الجرائم المذكورة في الحديث، فليس من المستبعد أن يكون حصول هذه الخصال الرديئة، وانتشارها موجباً لنزول البلاء، وتعجيل العقوبة من باب الوقوف أمام تيار هذه

---

(١) السبزواري: شرح دعاء كميل/ ٦٣، طبع ايران، حجري.

الرذائل، ومدى ما تخلفه من آثار تستوجب مثل هذا القمع الفوري لما في التأخير من عواقب وخيمة اجتماعية.

وقد أخبر القرآن الكريم عن مثل هذا الإجراء الفوري في بعض القضايا المماثلة بقوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾[١].

ولسنا في صدد بيان مجريات وقائع الآية الكريمة من بيان ما بدله أولئك الذين ظلموا (وهم بنو إسرائيل) من مخالفة ما قيل لهم.

بل غرضنا من الاستشهاد هو أن أولئك القوم حيث لم يلتزموا بما أمروا به، وبدلوا ما أريد منهم، لذلك كان جزاؤهم الفوري هو نزول العذاب عليهم كإجراء معاكس استدعته المشيئة الإلهية طبقاً للصالح العام، والمصلحة الاجتماعية.

(اللهم اغفر لي الذنوب التي تغير النعم).

النعم: جمع نعمة، وهي ما تفضل الله على عبده من الرزق، والعافية والسلامة، وما إلى ذلك من ألطافه التي منحها للمخلوقين.

ويقول اللغويون: أن نعمة الله ما أعطاه الله العبد مما لا يتمنى غيره أن يعطيه إياه[٢].

أما الذنوب التي تغير النعم فهي كما جاء عن الامام الصادق (عليه السلام): (ترك شكر المنعم، الإفتراء على الله، والرسول، قطع صلة الرحم، تأخير الصلاة عن أوقاتها، الدياثة، وترك إغاثة الملهوفين المستغيثين، وترك إعانة المظلومين)[٣].

ولماذا لا تغير هذه الذنوب النعم التي من الله بها على عباده؟

فشكر المنعم واجب عقلاً، ولأن عدم شكره متوعد عليه بنص الآية الكريمة في

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٥٩.

(٢) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (نعم).

(٣) السبزواري: شرح دعاء كميل/ ٦٤.

قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (١).

(والكفر بنعمة الله يكون بعدم شكرها أو بإنكارها أن الله وهبها ونسبتها إلى العلم، والخبرة، والكد الشخصي، والسعي.

كأن هذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله، والعذاب الشديد قد يتضمن محق النعمة عيناً بذهابها، أو سحق آثارها في الشعور فكم من نعمة تكون بذاتها نقمة يشقى بها صاحبها، وقد يكون عذاباً مؤجلاً إلى أجله في الدنيا، أو في الآخرة كما يشاء الله، ولكنه واقع لأن الكفر بنعمة الله لا يمضي بلا جزاء) (٢).

(وقطع صلة الرحم قال فيها الإمام أبو جعفر الباقر (عليه السلام) وأن اليمين الكاذبة، وقطيعة الرحم لتذران الديار بلاقع من أهلها) (٣).

والبلقع في اللغة: هي الأرض القفر.

وليتصور الإنسان بيته، وهو يرفل بالنعم التي أنعم الله بها عليه من كل جوانبه، وإذا به بعد قطع رحمه قفر من كل شيء كما يقول الإمام (عليه السلام) لذلك نرى الإمام(عليه السلام) في هذه الجملة يلتمس من ربه أن يغفر له الذنوب التي تمحق النعم لتبقى نعمه تعالى عليه متواصلة، ولئلا يكون محروماً من فيض لطفه الكريم.

(اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء).

ولماذا، وكيف تحبس هذه الذنوب الدعاء، وتمنعه من التأثير في الإجابة مع صدوره من قلب، ولربما في زمانٍ له حرمته، أو في مكان له قدسيته، وبعد كل هذا وذاك فإنه سبحانه قريب، وقريب، وفوق كل ذلك يجيب دعوة من دعاه؟

وللإجابة على هذه التساؤلات نقول:

إن معنى الدعاء هو: المناجاة مع الله، وهو تعبير عن حالة العبد النفسية، وما هو

---

(١) سورة إبراهيم: الآية، ٧.

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن/ في تفسيره للآية ٧ من سورة إبراهيم.

(٣) النراقي: جامع السعادات/ ٢، ٢٥٨، مطبعة النجف.

عليه من الالتجاء، والتضرع إلى خالقه ليتجاوز عن آثامه وخطاياه، أو هو في حالة التماس يطلب من ربه ما يريد من توفير نعمة، أو دفع بلاء، أو ما شاكل من تمنيات مشروعة، وهو في كل هذه الحالات يتجه إلى ربٍ مطلعٍ على خفايا الأمور، ويعلم ما تنطوي عليه السرائر ـ فإذا فرضنا والحالة هذه ـ أن العبد الداعي يقف بين يدي ربه، وهو يتسم بخبث السريرة، وسوء النية، فأي صفاء يجده في قلبه، وهو يدعو بلسانه؟ أليس ذلك مجرد لقلقة لسان، وصدور ألفاظ لا تنبعث عن قلب ملهوف؟

إن الإمام أبو جعفر الباقر (عليه السلام) يحدثنا ليلفت أنظارنا إلى مثل هذه القلوب العفنة فيقول: «ما من عبد مؤمن إلاّ وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في تلك النكتة نكتة سوداء، فإذا تاب ذهب ذلك السواد، وإذا تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض، ولم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قول الله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾»[1].

والرين: هو الحجاب الكثيف، والمراد به هناك: حجاب الذنوب، والآثام وهذه النكت السوداء في القلب ـ كما يقول عنها الحديث ـ ما هي إلاّ خلفيات هذه الذنوب، وما تستوجبه من قساوة القلب، وإذا بها حجب متراكمة تظلم القلب، وتمنع من وصول النور الإلهي إليه. (وخير الدعاء ما صدر عن قلب نقي، وقلبٍ تقي)[2].

ومع سوء النية، وخبث السريرة كيف يحافظ الداعي على صدر نقي من كل شائبة، وقلب تقي سليم من الحواجب المظلمة؟

لذلك نرى أمثال هؤلاء الدعاة هم المعنيون بقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، «ثم تدعون فلا يستجاب»[3].

---

(١) سورة المطففين: الآية، ١٤. الطريحي: مجمع البحرين/ مادة (رون) وفيه ذكر الحديث، وقد تعرضت له مصادر الحديث من الصحاح الستة باختلاف لفظي بسيط.

(٢) الشيخ الكليني: الكافي/ باب (ان الدعاء سلاح المؤمن)، حديث ١.

(٣) نهج البلاغة من وصية له (عليه السلام) للحسن والحسين (عليهما السلام) لما ضربه ابن ملجم (لعنه الله).

وقبل أن ننتقل من هذه الفقرة لابد لنا من الإجابة على ما يرد عليها من الإشكال التالي:

إن الداعي بهذه الفقرة يطلب من ربه أن يغفر له الذنوب التي تحبس الدعاء، ومع وجود تلك الذنوب، وفرض محبوسية الدعاء عن الإجابة، فإن الدعاء في هذه الصورة أيضاً يكون محبوساً فلا يؤثر أثره فلماذا إذاً يدعو بها، ويردد، (اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء).

والجواب عن ذلك: أنا سبق وأن بينا بأن هذه الذنوب ليست أسباباً حقيقية لإيجاد مسبباتها، بل هي من باب المقتضي لترتب الأثر عليها فلم يثبت وجود سوء النية، والذي ذكر أنه يحبس الدعاء هو الذي إذا وجد عند الإنسان حبس دعاءه وأعرض الله عن سماع كل دعوة له ـ بل كما قلنا ـ أن ذلك مقتضي لهذا الأثر، وإذا ثبت ذلك فاحتمال أن دعوة الداعي بهذه الفقرة ليست محبوسة لاحتمال وجود ما يمنع من تأثير ذلك المقتضي لو كان قد صدر منه ذنب من تلك الذنوب كسوء النية، وخبث السريرة، والنفاق مع الإخوان، وغير ذلك مما جاء في الخبر المتقدم.

(اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء).

والبلاء: هو الغم، أما الذنوب التي تكون سبباً في نزول البلاء وتورث الغم، والتي يتوسل الداعي أن يغفرها الله له، فهي كما جاء عن الإمام زين العابدين(عليه السلام): (ترك إغاثة الملهوفين، وترك معاونة المظلوم، وتضييع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) [١].

وفي بعض الأخبار أنها سبع: (الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله تعالى، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم ظلماً، والزنا، والفرار من الزحف، والسرقة) [٢].

ولا ينافي أن تكون بعض الذنوب تشترك في التأثير فهي ـ مثلاً ـ كما تكون سبباً

---

(١) السيد جعفر بحر العلوم: أسرار العارفين/ ٤٢.

(٢) السبزواري: شرح دعاء كميل/ ٦٩.

في نزول النقم، كذلك تكون سبباً في نزول البلاء، وذلك يعود إلى عظم الجرائم حيث تكون مؤثرة بتأثيرين، أو أكثر تبعاً لما تخلفه من آثار اجتماعية سيئة.

(اللهم اغفر لي الذنوب التي تقطع الرجاء) [١].

والرجاء: هو الأمل. ورجاه يرجوه رجواً أمل به [٢].

والذنوب التي تقطع الرجاء هي التي عددها الإمام (عليه السلام) بقوله: (اليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والثقة بغير الله، والتكذيب بوعد الله عزّ وجل) [٣].

إن هذه الذنوب بطبيعتها تجعل العبد بعيداً عن ربه، وتقطع ذلك الاتصال النفسي بين العبد، وخالقه، وعندها يكون مثل هذا الشخص مصداقاً للآية الكريمة:

﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [٤].

والضلال: ضد الهدى ؛ والمعنى الذي يقصده الداعي بطلب غفران مثل هذه الذنوب هو أن يجنبه الله عنها لئلا يكون ضالاً، وبعيداً عن ساحة لطفه بانقطاع رجائه من عفوه، وكرمه، فإن القلب المفعم بالإيمان لا ييأس، ولا يقنط من رحمته سبحانه مهما عظم ذنبه، وقد جاء في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله): «والذي لا إله إلاّ هو ما أعطي مؤمن قط خير الدنيا، والآخرة إلاّ بحسن ظنه بالله، ورجائه له، وحسن خلقه، والكف عن اغتياب المؤمنين. والذي لا إله إلاّ هو لا يعذب الله مؤمناً بعد التوبة، والاستغفار إلاّ بسوء ظنه بالله، وتقصيره من رجائه، وسوء خلقه، واغتيابه للمؤمنين، والذي لا إله إلاّ هو لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلاّ كان الله عند ظن عبده المؤمن لأن الله كريم بيده الخيرات يستحي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن

---

(١) هذه الفقرة من الدعاء لم توجد في كثير من كتب الدعاء وقد تعرض لها بعض الشراح فأثبتوها في الدعاء ولعلهم أخذوا ذلك من كتاب (المصباح) لتقي الدين إبراهيم بن علي العاملي الكفعمي، وهو من مصادر كتب الدعاء عند الإمامية، وقد تعرضنا لها تبعاً لمن تقدم ليؤتى بها على سبيل الرجاء.

(٢) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (رجو).

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ١٦، ٢٨٢، الناشر: مؤسسة آل البيت(عليهم السلام) لإحياء التراث.

(٤) سورة الحجر: الآية، ٥٦.

الظن به، ثم يخلف ظنه، ورجاؤه فأحسنوا بالله الظن، وأرغبوا إليه»[١].

ومن هذا الحديث يتضح لنا ما للرجاء بالله من الأهمية في حياة العبد، وبعد انتقاله إلى الآخرة، وعدم القنوط، واليأس من رحمته الواسعة، فلا غرو إذا رأينا الإمام (عليه السلام) يعلمنا كيف يجب أن يلتمس الداعي من ربه أن يغفر له تلك الذنوب التي تكون السبب في انقطاع العلقة بين المولى وعبده.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾[٢].

(اللهم اغفر لي كل ذنبٍ أذنبته).

وهكذا يذهب الداعي برجائه إلى أقصى حد ويلتفت إلى أنه يمثل بين يدي ربٍ كريمٍ جاء في كرمه أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال يوماً: يا كريم العفو فقال له جبرائيل: أتدري ما تفسير يا كريم العفو؟ هو أنه يعفو عن السيئات برحمته ثم يبدلها حسنات بكرمه[٣].

فلماذا إذاً، يقتصر الداعي في دعائه على طلب المغفرة لبعض الذنوب كالتي تهتك العصم، أو كالتي تنزل النقم، أو التي تحبس الدعاء؟ فهل هو بدعائه، وطلبه يتوجه إلى بشر مثله محدود العواطف ليضيق ذرعاً بما يريد منه؟

لا: ولك أن تكرر النفي إلى ما لا نهاية، فإن الداعي يتوجه بطلبه إلى ربٍ عطوف يريد منه أن يتفضل عليه، فيغفر له كل ذنب أذنبه، وكل إثم صدر منه، وهو ـ في الوقت نفسه ـ لم يذهب بعيداً بهذه الأمنيات، فعوامل الرجاء تدفعه إلى الاستزادة من هذا الفيض ما دامت الآيات الكريمة تبشر المذنبين قائلة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾[٤].

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ باب حُسن الظن بالله، حديث ٢.

(٢) سورة الزمر: الآية، ٥٣.

(٣) النراقي: جامع السعادات/ ١، ٢٥١، الطبعة الثالثة، مطبعة النجف. وهكذا جاء في: الغزالي: إحياء العلوم/ ٤، ١٢٩ باختلاف بسيط.

(٤) سورة الزمر: الآية، ٥٣.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (١). وتترقى آية أخرى فتتحدى جميع البشر فتقول: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(٢).

وإذا كان هو مصدر الغفران فقط، وهو كما قال رسول الله (ﷺ): (والذي نفسي بيده، الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها) (٣).

إذاً، فليذهب بالعبد رجاؤه إلى مدارج السمو وليلتمس من ربه أن يغفر له كل ذنب أذنبه، ففي رحاب الله يجد ذلك المسكين أمانيه تتحقق فقد ورد في الحديث: (إن العبد إذا أذنب فاستغفر يقول الله لملائكته أنظروا إلى عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنوب، ويأخذ بالذنب اشهدوا أني قد غفرت له) (٤).

(وكل خطيئة أخطأتها).

والخطيئة: هي الذنب المتعمدة، وقيل إنها الذنب أعم من الإثم لأن الإثم لا يكون إلاّ عن عمدٍ، وهي قد تكون لا عن عمد (٥).

والتناسق الدعائي يقضي أن يكون المراد بها في هذه الجملة هو: المعنى الثاني لأن الروعة الدعائية تظهر على هذا التفسير فإن الداعي بعد أن تدرج في الالتماس يطلب أن يغفر له الذنب الفلاني، والذنب الموصوف بكذا. بعد كل هذا أضرب، وجاء يلتمس أن يغفر له كل ذنب أذنبه، وطبيعي أن الذنب هو الجرم الذي يصدر عن عمدٍ، ولكنه حيث وجد من عطف ربه، وكرمه ما شهد له بأنه: يغفر الذنوب جميعاً عدا الشرك به فلماذا لا يذهب إلى آخر الشوط، فيلتمس من ربه أن يتجاوز عن كل ما صدر منه ولو كان ذلك عن غير عمدٍ وهو المسمى (بالخطيئة)؟ فهو يريد أن يفتح صفحة جديدة ليعود كيومٍ ولدته أمه خلواً من كل ذنب جرماً كان ذلك الذنب، أو

---

(١) سورة النساء: الآية، ٤٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية، ١٣٥.

(٣) النراقي: جامع السعادات/ ١، ٢٥١ الطبعة الثالثة.

(٤) المصدر المتقدم، جامع السعادات/ ١، ٢٥١، الطبعة الثالثة.

(٥) الشرتوني: اقرب الموارد، والفيروزآبادي: القاموس، وغيرهما/ مادة (خطأ).

خطيئة ليرى حلاوة الإجابة تتمثل له بعد أن ورد في الحديث القدسي (إنما خلقت الخلق ليربحوا علي، ولم أخلقهم لأربح عليهم) [١].

كلا: وحاشا له أن يساوم عليهم، ويربح من وراء عبادتهم، بل هو منبع الحنو والرقة، يعاملهم بالحسنى، وإن كانت الذنوب قد سودت وجوههم.

إن كان لا يرجوك إلاّ محسن　　　فبمن يلوذ ويستجير المجرم

(اللهم اني اتقرب إليك بذكرك).

والمقصود بالتقرب، هو القرب المعنوي، لا المكاني لاستحالة ذلك بالنسبة إليه تعالى لاستلزام التقرب المكاني إلى تحديده بالمكان، وتعالى الله عن ذلك سبحانه.

أما الذكر، فالمراد منه هو الاتصال بالله عن طريق استحضار أسمائه، وصفاته المقدسة في قلب الداعي، وعلى لسانه.

وبهذه الفقرة من الدعاء يكون الداعي قد ختم دور الإلحاح والالتماس لطلب المغفرة ليبدأ بدور جديد، وينزل بروحه إلى عالم الحياة، وهي خفيفة نظيفة ليباشر حياته من جديد وعلى أسس جديدة، وطريقة جديدة مؤكداً بأن ما سبق منه من هذا الطلب، والإلتماس لم يكن فقط لمجرد التجاوز عن ذنوبه فلرب داعٍ لم يقترف في حياته من ذلك شيئاً كالأنبياء والأئمة الأطهار، والصالحين من البشر، ومع ذلك فهم يلحون في الدعاء، ويلتمسون المغفرة، ويقضون الوقت في المناجاة باكين خاشعين، بل لبيان أن مع الالتماس تقرب، وفي التقرب تأكيد على الاتصال الحقيقي به سبحانه وتعالى، على الصعيدين، الداخلي والخارجي.

الداخلي: حيث يتمثل بما ينطوي عليه القلب من استحضار الله، وعدم الغفلة عنه.

أما الخارجي: فبأداء كل ما أمر به تعالى، والاجتناب عما نهى عنه.

---

(١) النراقي: المصدر السابق.

وبذلك نرجع إلى الدعاء ليعلمنا بأننا يجب أن نعتمد: في الطريقة الجديدة للحياة التي يرضاها لنا الله أن نكون قريبين منه بذكره المتواصل في كل لحظة، وفي كل عمل نقوم به من أعمالنا ونراقبه في السراء، والضراء، وفي كل صغيرة، وكبيرة، وبذلك نضمن قربنا منه، وبعدنا عن الذنوب.

وقد أعطى القرآن الكريم صورة حيّة لأولئك المقربين منه بقوله تعالى:

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾[1]. قلوب حية عطرة منطوية على حب الله، والقرب منه.

وألسنة رطبة بذكره جلّت قدرته تسبحه، وتقدسه، وتذكر نعماءه، وآلاءه بحيث لا تلهيهم الدنيا بما فيها من تجارة، وربح وحصول المال، وما يستتبع ذلك من سعة في الملاذ الدنيوية.

(وأستشفع بك إلى نفسك).

والداعي بشر ومهما كان فإن من الغرائز البشرية الخوف. أما الشجاعة واللامبالاة فإنهما عارضان عليه نتيجة تطبعه، وإقدامه، واستجابة لنداء الغريزة المذكورة نرى الداعي مهما كررت الآيات الكريمة التي تنبيء عن غفران الله، وعفوه، وأنه يغفر الذنوب جميعاً، ومع الآيات التي تؤكد على عدم اليأس من روح الله، ورحمته نقول: مع كل ذلك فهو يستعظم جرمه، ويستكبر ذنبه، ويخشى أن لا يستجيب الله لصارخ نداءاته المتعاقبة.

لذلك، وبدافع من طبيعة الخائف النفسية يبدأ بالبحث عن الشفيع الذي يجعله الواسطة بينه، وبين ربه، والشفاعة أمر يستسيغه، ويقويه العرف لتأمين ما يتطلبه الإنسان من قضاء حوائجه.

ولكن: يا ترى من هو ذلك الشفيع الذي يقبله الله ليتشفع في أمر عبده الخائف؟

---

(١) سورة النور: الآية، ٣٧.

إن عظم الذنب يتجسم أمام الداعي، فيصور له رفض كل شفيع في حقه مهما كانت منزلته، ومهما كانت رحمة الله واسعة.

وتبدد حيرة الداعي بقية أملٍ تلوح له باللجوء إلى مصدر الخوف، وهو الله سبحانه، فهو الخصم، وهو ـ في الوقت نفسه ـ الحكم، وهو الأول، والآخر.

ويأتي التعبير متناسقاً عندما نرى الداعي يتضرع وهو يقول: (واستشفع بك إلى نفسك).

وكما كان الإمام زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام) يناجي ربه وهو يقول: (وانا يا سيدي عائذ بفضلك هارب منك إليك) [١] وحري بالله جلّت عظمته أن لا يرد عن ساحة لطفه عبداً التجأ إليه تائباً.

إلهي كيف تطرد مسكيناً التجأ إليك من الذنوب هارباً؟

أم كيف تخيب مسترشداً قصد إلى جنابك ساعياً؟

أم كيف ترد ضمآناً ورد إلى حياضك شارباً؟

كلا وحياضك مترعة في ظنك المحول، وبابك مفتوح للطلب والوغول، وأنت غاية المسؤول، ونهاية المأمول [٢].

(وأسألك بجودك).

الجود: بمعنى السخاء، وهو بمعنى الكرم، وقيل: الجواد الذي لا يبخل بعطائه، وهو من أسماء الله [٣].

والقسم جاء في هذه الفقرة بصفة محببة للمسؤول، وهو الله فإنه يحب الكرم، ويثيب عليه، والمورد يستدعي ذلك فإن الداعي يريد من الله، ويطلب منه، ولابد، والحالة هذه من التضرع إليه بما عرف به من الجود، والسخاء.

---

(١) من دعاء الإمام (عليه السلام) المروي عن أبي حمزة الثمالي.

(٢) فقرات من دعاء الصباح الذي كان يدعو به الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام).

(٣) الطريحي: مجمع البحرين/ مادة (جود).

(أن تدنيني من قربك).

وترتبط هذه الفقرة من الدعاء بالفقرة السابقة من الدعاء من قوله:

«اللهم إني أتقرب إليك بذكرك».

فالقرب من الله حقيقة تتوقف على جهتين:

أحدهما: تتعلق بالعبد.

والأخرى: تتعلق بالله عزّ وجل.

أما ما يخص العبد، فإنه يقوم بما هو عليه من التقرب إلى ربه بذكره، والانشغال بمناجاته، وتصفية قلبه، واستحضار صفاته، والقسم بها عليه، والتخلق بالأخلاق الحسنة، والإتيان بكل أوامره والانتهاء عن نواهيه. يرجو بذكرك أن يمن الله عليه بالفيض القربى من ساحته المقدسة.

ولكن ذلك ليس بكافٍ، بل لابد من حصول الجهة الثانية، وهي ما يتعلق بالمولى من الاستجابة من قبله، وتحقيق ما يأمله الداعي من هذا العطف، وهذا لا يكون إلاّ من ناحيته عزّ وجل، وتفضله على عبده بشرف القبول، والتقرب إليه.

وإذاً، فالفقرات الدعائية تكشف عن هاتين الجهتين. فالعبد بدوره يقوم بما يؤهله إلى التقرب من الله تعالى، ولكنه ـ في الوقت نفسه ـ يلتمس من الله، وهو الجواد الذي لا يبخل بالعطاء: أن لا يخيّب آمال هذا العبد المتضرع إليه بأن يقبل منه هذا القليل فيستجيب له بالدنو منه.

ومن كان بكنف الله، وجواره، فهو آمن.

ومن حل في رحابه، فهو مطمئن.

(وان توزعني شكرك).

الايزاع: هو الإلهام. واستوزعت الله شكره، فأوزعني أي: استلهمته فالهمني[1].

---

(١) أبو بكر الرازي: مختار الصحاح/ مادة (وزع).

وكما سبق من التضرع يلاحق الداعي ربه، فيستلهم منه الشكر بعد فرض تفضل الله عليه في شمول عطفه بجعله في عداد المقربين إليه. فهو عاجز عن أداء الشكر باعتباره بشراً، ومهما أوتي من العقل والفطنة، والبيان فلسانه أقصر عن شكر ربه، وحمده على نعمةٍ من نعمه فكيف بنعمة التقرب منه، وقبوله؟

فهو إذاً يلتمس من الخالق أن يضيف إلى نعمه، وأياديه عليه نعمة الشكر شكراً يليق به، وحمداً كما هو أهله.

(وأن تلهمني ذكرك).

وعلى غرار ما سبق من توجه العبد إلى الله في أن يلهمه الشكر اللائق به بقوله: (وأن توزعني شكرك) يعود الداعي في هذه الفقرة ليلتمس من ربه أن يلهمه ذكره، وقد سبق أن بينا أن المراد من ذكر الله هو الاتصال به عن طريق استحضار صفاته، وأسمائه في قلب الداعي، وعلى لسانه، ولكن الداعي لا يجد في نفسه القدرة على مثل ذلك لأن ما يفعله العبد إنما هو بوحي من قواه المحدودة في التصوير شكراً وذكراً، لذلك نرى الإمام (عليه السلام) يوجه الداعي في هذه الفقرة، وما سبقها من الفقرات الدعائية إلى اللجوء لله نفسه ليكون هو مصدر الإشعاع في إلهامه كيفية شكره، وذكره بما يتناسب، وعظمته الإلهية.

وقد تكرر مثل هذا الالتماس في كثير من الأدعية، والمناجاة التي كانت تتردد على لسان أئمة أهل البيت (عليهم السلام).

ولنستمع إلى الإمام زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام) يتضرع إلى ربه قائلاً: (اللهم ألهمنا طاعتك، وجنبنا معصيتك، ويسر لنا بلوغ ما نتمنى من ابتغاء مرضاتك)[1].

إن الإمام في طلبه هذا لا يرى في نفسه ـ وهو زين العابدين، وسيد الساجدين ـ القدرة على أداء الطاعة على النحو الذي يتناسب ويليق بمكانته سبحانه وتعالى.

(١) الصحيفة السجادية: مناجاة المطيعين.

لذلك يلجأ ضارعاً إلى ربه يلتمس منه أن يلهمه كيفية طاعته اللائقة به وأن يضفي عليه نعمة جديدة، ويداً أخرى من أياديه، وهي أن يجنبه معاصيه، ويمهد له الطريق لبلوغ أمانيه من ابتغاء رضوانه فهو عاجز عن القيام بمثل هذا الدور من العبادة، والإنقياد

٣ـ (اللَّهُمَّ إني أسألُكَ سُؤالَ خَاضِعٍ، مُتَذَلِّلٍ خَاشِعٍ، أن تُسامِحَني، وَتَرْحَمَني، وَتجْعَلَني بِقَسْمِكَ رَاضِياً قانِعاً، وَفي جَميعِ الأَحْوالِ مُتَواضِعاً، اللَّهُمَّ، وأسألُكَ سُؤالَ مَن اشْتَدَّتْ فاقَتُهُ، وأنْزَلَ بِكَ عِنْدَ الشَّدائِدِ حَاجَتَهُ، وَعَظُمَ فِيما عِنْدَك رَغْبَتُهُ).

يشتمل هذا المقطع من الدعاء على بيان حقيقتين:

١ـ توجيه الداعي بما ينبغي أن يكون عليه نفسياً عند التوجه إلى الله في دعائه وكيفية مناجاته لربه.

٢ـ الالتماس منه تعالى بجعله راضياً بما قسمه له في هذه الحياة من رزق مادي، وغيره مما يشتمل على كل ما قسمه الله لعبده في دنياه من صحة، أو سقم، أو ابتلاء، فإن في ذلك كمال الراحة له حيث لا يلتفت إلى ما يتمتع به الآخرون بأمور يفقدها هو فلا تفسد عليه حياته ليعيش في دوامة من التطلع إلى ما يكمل له النقص، ويسد الفراغ.

ومع هذا الفصل في فقراته الدعائية:

(اللهم وأسألك سؤال خاضعٍ متذللٍ خاشع).

صفات تنم عن حالة الداعي عند مناجاته لربه، وكلها تنم عن تطامنه وخضوعه، وعدم الاستعلاء في الحديث. والمعنى:

إلهي، وأسألك سؤال عبدٍ ذليل هانت عليه نفسه عند المثول بين يديك، وخشع صوته عند مناجاته لك، وغض بصره، وهو يتحدث إليك. فقد جاء أن الخضوع في

البدن، والخشوع في الصوت، والبصر [١].

(أن تسامحني وترحمني).

والمسامحة: هي التساهل [٢]، وبذلك يلتمس الداعي من ربه أن يتساهل معه عند الحساب، وأن لا يطبق عليه ما تستوجبه أعماله فيأخذه بالشدة.

والإنسان مجموعة من لحمٍ، ودمٍ، وعظم وعصب لا يقوى على شيء تؤذيه البقة، وتدميه الوخزة فكيف يحتمل عذاب الآخرة؟

(وتجعلني بقسمك راضياً).

والمعاش أمر يتطلع إليه كل فرد في هذا الوجود له، ولمن يعول به فهو يعمل، ويجهد نفسه لا يكف دائباً في سبيل الحصول على ما يسد به جوفه، وما دام يتطلع فهو دائماً في نهم مستمر يطلب المزيد، ولا يرضى بالقليل، ومن كانت هذه حالته، فهو مسلوب الراحة يحشد طاقاته لتأمين كافة احتياجاته الحياتية. يضاف إلى ذلك عامل التعاون في الرزق فإن مشيئة الله في خلقه لم تقتض أن يتساوى الكل من حيث المعاش، بل لابد من التفاوت، والتفضيل: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ ﴾[٣].

وهذه حقيقة ثابتة لها أسبابها الخاصة، ولسنا في صدد بيان وبحث الأسباب الموجبة لهذا التفضيل، ومناقشة ما يرد على ذلك من الشبهات، فإن القرآن الكريم قد تصدى لبيان بعض الدواعي، لذلك في الآية الكريمة:

﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ ﴾[٤] بعد قوله: ﴿ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ ﴾[٥].

---

(١) الفيروزآبادي: القاموس المحيط، والشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (خشع، وخضع، وسامح).
(٢) المصدر المتقدم، القاموس المحيط، والشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (خشع، وخضع، وسامح).
(٣) سورة النحل: الآية، ٧١.
(٤) سورة الزخرف: الآية، ٣٢.
(٥) سورة الزخرف: الآية، ٣٢.

فلهذا التسخير حكمته، وآثاره في صلاح، وضبط أفراد المجتمع، ولا مجال لنا للخوض فيه، فليس في منع الله عبث، بل هو نظام كوني دقيق يسير وفقاً لمصالح يعود نفعها إلى البشر في جميع الأدوار، والمراحل التي يمر بها الإنسان من حين ولادته إلى أن يودع هذه الدنيا، وهكذا مروراً بكل المراحل الزمنية إلى أن يختار الله لهذا العالم نهايته، وهذا كله، وإن قبل النقاش، والجدل، ولكن المهم الذي لا يقبل النقاش والجدل هو وجود التفضيل في الرزق. فليس بالإمكان العثور على أمة يتساوى أفرادها من حيث المعاش، والرزق: رؤوساء، ومرؤوسين. عمال، وأصحاب عمل، وهكذا بقية أصناف البشر.

وإذا كان التفاوت في الحقائق الثابتة، فالفرد بطبيعته في هذه الحياة يبقى يتطلع إلى ما فضل به الغير ليحصل على مثل ذلك أو يزيد، وهذا معناه سلب استقراره، وعدم تطامنه إلى حالة من الاستراحة النفسية. لذلك نرى الدعاء يوجه الداعي إلى التضرع إلى خالقه وهو مصدر الرزق في أن يلهمه الرضا بما قسمه له من رزق في المال، أو في البدن من صحة، وعافية، وهدوء واستقرار. فكل ذلك رزق من الله لعباده.

(قانعاً).

ومع الرضا القناعة، وهي كما يقول الفراء: القانع الذي يسألك فما أعطيته قبله[1].

وقيل: القانع الذي يقنع بالقليل، ولا يسخط، ولا يكلح [2].

والقناعة: هي تجسيد الصلة بين العبد وربه، حيث يثق بما قسمه الله له، وليجد من نفسه أنه أعلى من الإنهماك في البهرجة والثراء الذي يبعده عن المثل القيمة.

إن القناعة هي التي يحدد القرآن الكريم مفهومها بقوله تعالى:

---

(١) أبو بكر الرازي: مختار الصحاح/ مادة (قنع).

(٢) الطريحي: مجمع البحرين/ مادة (قنع).

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (١).

أي لا تتطلع إلى ما في أيدي الناس من نعمٍ ربما كانت وبالاً عليهم:

﴿أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ (٢).

ومن يدري أن ذلك الذي حصلوا عليه كان في صلاحهم؟ فالتطلع، وإنهاك النفس بالعمل على تحصيل مثل ما عند الغير، أو التحرق على فقدانه لما منحه الله لآخرين معناه سلب الراحة، وعدم الإستقرار، والعيش في دوامة من العمل المتواصل للوصول إلى إكمال النقص.

على أن هذا الإكمال المنشود لا يحصل لأن التفاوت بين الأفراد فيما يمنحه الله لهم لا يحقق لمثل هذا الفرد مطامحه من الوصول إلى ما عند الغير. فغير القانع مهما سعى، فإنه يجد من هو أمكن منه، وحينئذٍ يبقى يبذل من الجهد ما لا يحقق له الوصول، وعلى فرض حصوله على ما ينشده من الأمور المادية فكيف الحال فيما لا يرجع إلى المادة مما يتطلع إليه في هذه الحياة من الولد، والعلم، والشفاء من الأمراض وغير هذا وذاك، من أمور المركزية المرموقة، والوصول إلى الرتب العالية؟

كل هذا يجعل منه دوامة من التفكير المتواصل، ومرتعاً خصباً للآلام النفسية لأن التبرم، والتشكي، والشعور بالنقص لا يزيد الإنسان إلاّ عقداً، وتعقيداً، لذلك يعلمنا الإمام (عليه السلام) في هذه الفقرة من الدعاء أن نتحلى بالصبر، والقبول، وحتى لا يعكس هذا الشعور بالنقص، وعدم الرضا بما هو مقسوم تأثيره السيء على تصرفاتنا وتعاملنا مع الناس، والمجتمع.

إن القانع الذي يسير على الخط الذي رسمه الله ليعمل جاهداً، ولكن بدون ملاحقة الآخرين ليجد في هذا النوع من التطامن اللذة النفسية، ولهذا يوصف القانع بأنه: غني، وإن جاع، وعري.

---

(١) سورة طه: الآية، ١٣١.

(٢) سورة آل عمران: الآية، ١٧٨.

فالقضية ليست قضية ما يسد البطن، وما يكسو البدن فقط، بل مع كل هذا راحة البال، وهدوء النفس، وتحليها بالقيم.

ومن كان هذا حاله فهو: غني بغض النظر عن حاجته إلى المأكل، والمشرب، والملبس، وهو - في الوقت نفسه - مستريح، وإن فقد المال:

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾(١).

وهذا إخبار من الله، وضمان منه لعبده بأن ما قسمه الله من الرزق أبقى وأنمى، وفيه البركة.

على أنه ليس المقصود من الرزق في الآية الكريمة، هو المال فقط، بل كل ما لدى الإنسان من نعم كل ذلك رزق من الله. فالولد الصالح رزق، والزوجة الصالحة رزق، والمظهر الجميل رزق، والمنزلة الاجتماعية رزق، والعقل، والصحة، وحسن العاقبة، كل ذلك رزق من الله لعبده.

فالمال ليس هو الهدف الوحيد في هذه الحياة، إنما هو مع البنين يشكل كوكبة مشرقة يصفها الله بأنها: ﴿زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(٢)، ولكن هذه الشعلة المضيئة ليست هي الهدف الذي من أجله جاء الإنسان إلى هذا الوجود إنما الهدف هو رضا الله سبحانه، وأن يكون الفرد إنساناً كاملاً يؤدي رسالته الإنسانية في هذه الحياة.

فلماذا الهلع والجشع، والركض وراء المال، والقرآن الكريم يقول:

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(٣).

ولماذا تكون رحمته مفضلة على ما يجمعه الإنسان من المال في دنياه.

والجواب: أن المال يجمعه البر والفاجر، والرفيع، والوضيع، ولكن رحمة الله يختص بها من يشاء من عباده، ولم يخص بها من لم يرض، ولم يقنع بما قسمه الله له:

---

(١) سورة طه: الآية، ١٣١.

(٢) سورة الكهف: الآية، ٤٦.

(٣) سورة الزخرف: الآية، ٣٢.

﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (١).

(وفي جميع الأحوال متواضعاً).

والتواضع: هو التذلل، والتخاشع، وضد التكبر.

إن الإنسان في حياته اليومية، واحتكاكه المستمر بالناس على مختلف طباعهم، ومشاربهم لابد وأن يتأثر بهم، إيجاباً أو سلباً أو يؤثر فيهم كذلك.

ومن الطبيعي أن يكون هذا التعامل الدائم على طول الخط الحياتي موجباً لتغير الإنسان من حالة إلى أخرى، وبالأخير يكون ذلك مؤثراً على طباعه، وسلوكه مع الناس.

ولهذا نرى الدعاء في هذه الفقرة يرجعه مرة أخرى إلى وضعه الطبيعي، ويذكّره بأن يبقى متواضعاً إذا وصل إلى المنزلة الرفيعة في الوسط الاجتماعي، أو حصل على ثروة مالية، وما إلى ذلك من المنح التي يحصل عليها الإنسان في حياته، وأن لا ينسى الأحوال الأخرى التي يمر بها الآخرون، أو الأحوال التي مرت عليه قبل هذا الحال.

وبذلك يبصره وينبهه بشكل غير مباشر أن على الإنسان أن يكون محافظاً في السير على الخط المستقيم، والسلوك المناسب، وأن لا يأخذه الغرور بهذه الأحوال التي تمر عليه، فلا ينسى التواضع مهما وصلت إليه حالته من العظمة، والجاه.

على أن التواضع حسن في نفسه، وله آثاره الايجابية في تزكية النفس، وتحبيبها إلى الآخرين، وهو ـ في الوقت نفسه ـ تارة: يكون لله عزّ وجل. وأخرى: يكون للناس.

وفي الحالة الأولى، يكون سبباً للقرب منه تعالى ففي الحديث عن الإمام أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) أن الله أوحى لنبيه داود (عليه السلام) (يا داود كما أن أقرب الناس من الله المتواضعين، كذلك أبعد الناس المتكبرين) (٢).

---

(١) سورة البقرة: الآية، ١٠٥.

(٢) الشيخ الكليني: الكافي/ باب التواضع من كتاب الإيمان، حديث ١، ١١.

وفي حديث آخر عن النبي (ﷺ): (وان التواضع يزيد صاحبه رفعة فتواضعوا يرحمكم الله)[(١)].

أما في الحالة الثانية، وهي التواضع للناس، فإنه يكون سبباً للمحبة وجلب الناس، وكسب عواطفهم، والإنسان مدني بالطبع لا ينفك عن الاجتماع، ومعاشرة الآخرين، لذلك يكون التواضع من العوامل التي تقرب الفرد إلى الآخرين، وتحببه إلى نفوسهم، ومن جراء ذلك تكون كلمته مقبولة عندهم، ويكون لرأيه التأثير فيهم، وبهذا يتمكن المتواضع أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويؤدي رسالته التي يتوخى من ورائها إرشاد الآخرين، وحملهم على الطريقة المثلى. إن السيطرة على القلوب لا تحصل إلاّ من طريق التواضع لأن المتواضع تتطامن له النفوس، ولهذا نرى الآية الكريمة تخاطب النبي (ﷺ) قائلة: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[(٢)].

ويبقى علينا أن نتسائل عن حد التواضع، والمقدار الذي ينبغي لكل شخص أن يتحلى به؟

ونجد الإجابة في الحديث الوارد عن الإمام الرضا (عليه السلام) عندما سأله السائل بقوله: (ما حد التواضع الذي إذا فعله العبد كان متواضعاً؟ فأجابه (عليه السلام) بقوله: التواضع درجات: منها أن يعرف المرء قدر نفسه، فينزلها منزلتها بقلب سليم. لا يحب أن يأتي إلى أحد إلاّ مثل ما يؤتى إليه. إن رأى سيئة درها بالحسنة، كاظم الغيظ، عافٍ عن الناس. والله يحب المحسنين)[(٣)].

صفة قيّمة تزرع الحب في القلوب وتعظم من يتحلى بها، لذلك نرى الدعاء في هذه الفقرة التي نبحثها من قول الإمام (عليه السلام) «وفي جميع الأحوال متواضعاً» يوجه الداعي إلى التضرع إلى الله في تكريمه بهذه الصفة، ويجعله في جميع الأحوال متحلياً

---

(١) المصدر المتقدم. الكافي/ باب التواضع من كتاب الإيمان، حديث: ١١٢.

(٢) سورة الشعراء: الآية، ٢١٥.

(٣) الشيخ الكليني: الكافي/ باب التواضع، حديث: ١٤.

بها ليرضي ربه وينفذ ـ في نفس الوقت ـ إلى قلوب المخلوقين عزيزاً عليهم مهاباً في أعينهم.

(اللهم وأسألك سؤال من اشتدت فاقته).

هذه الفقرة من الدعاء ترتبط بالفقرتين الآتيتين ارتباطاً وثيقاً كما أنها منشدّة إلى ما سبق من الجمل التي مرت من بيان صفة الداعي، وحالته النفسية عند سؤاله من ربه أن يسامحه ويرحمه ويجعله بقسمه راضياً.

وإذا عرفنا أن الفاقة هي الفقر، والحاجة، اتضح لنا المراد من هذه الجملة التي نبحث عنها من السؤال كسؤال من اشتدت فاقته فإن الداعي يبين لربه بأن حالته، وهو يسأله كحال من بلغ ومن وصلت به الحال إلى درجة الشدة.

(وأنزل بك عند الشدائد حاجته).

والشدة: من مكاره الدهر جمعها شدائد [١].

وبهذه الفقرة من الدعاء يناجي الداعي ربه ليعلن بأنه توجه إليه بحاجته عند نزول مكاره الدهر به (وأنزل بك) إنما هو لقصر الأمر به تعالى لا بغيره، وبذلك يسجل الداعي على نفسه عدم الاتجاه إلى غير الله لأنه هو الملجأ الذي يلجأ إليه المحتاجون. (يا من كل هارب إليه يلتجيء، وكل طالب إياه يرتجي يا خير مرجو، ويا أكرم مدعو) [٢].

(وعظم فيما عندك رغبته).

وبعد أن بيّن الداعي قصر حاجته في سؤالها على مولاه عطف على ذلك هذه الفقرة والمعنى: أسألك سؤال من اشتدت فاقته وعظم فيما عندك من حل المشاكل، وقضاء الحوائج رغبته.

---

(١) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (شرد).

(٢) من دعاء الإمام زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام) في مناجات الراجين. لاحظ الصحيفة السجادية: مناجاة الراجين.

٤ـ (اللَّهُمَّ عَظُمَ سُلْطانُكَ، وَعَلا مَكانُك، وَخَفِي مكْرُكَ، وَظَهَر أمرُكَ، وَغَلَب قَهْرُكَ، وَجَرَتْ قُدْرَتُك، وَلا يُمْكِنُ الفِرَارُ مِنْ حُكومَتِكَ).

بهذا المقطع يكون الداعي قد انتهى من التماساته، وطلباته لغفران ذنوبه، وجعله بقسمه راضياً قانعاً، وبدأ ينحو نحواً آخر من المناجاة يعظّم فيها الداعي ربه، ويبيّن صفاته المختصة به، والتي توحي بعظمته، وقدرته اعترافاً منه بالعبودية لرب عظم سلطانه، وعلا مكانه، وخفي مكره إلى بقية ما جاء على لسان الداعي في هذا المقطع من الدعاء.

ومع هذا الفصل في فقراته الدعائية:

(اللهم عظم سلطانك).

ومن أعظم سلطاناً منه جلت عظمته؟ فهو خالق كل شيء، وله كل شيء، وبيده كل شيء: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

مالك الملك يؤتي الملك لمن يشاء، وينزعه عمن يشاء، ويعز، ويذل من يشاء، وبيده الخير، وبعد كل هذا هو قادر على كل شيء.

فمن أعظم من ربٍ هذه صفاته، وهذه قدرته؟

وقد تضمنت الآية الكريمة قدرة الله على الصعيدين البشري، والكوني، بما في الكون من موجودات، فالأول يتمثل بالفقرات: «مالك الملك» وما عطف عليها، والثاني بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

ويحق للداعي أن يتجه إلى ربٍ: عظم سلطانه.

(وعلا مكانك).

وليس من العلو الحقيقي المقصود به الفوقية لأن ذلك محال لأنه يكون محصوراً في

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ٢٦.

جهة خاصة، بل العلو هنا المعنوي، وهو الذي تشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ [1].

فالعلو بلسان الدعاء هو: الإحاطة الذي صرحت به الآية الكريمة، فله ما في السماوات، وما في الأرض، وهو بكل شيء محيط، ومهيمن عليه، ولذلك علا مكانه فلا شيء أعلى منه، وهو في الوقت الذي هذا علوه، وعظم مكانته نراه قريباً من عباده حتى قيل: إنه أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد.

تلك إحاطته، وعلوه. وهذا حنوه، وقربه.

(وخفي مكرك).

المكر: في اللغة الخديعة، وقال الليث هو: احتيال في خفية، وقيل: المكر صرف الإنسان عن مقصده بحيلة، وهو نوعان: محمود يقصد فيه الخير، ومذموم يقصد فيه الشر [2].

ولكن كيف يتصور الاحتيال، والخداع بالنسبة إلى الله تعالى مع أن القرآن الكريم ـ وكما في هذه الفقرة من الدعاء ـ جاء المكر منسوباً إليه عزّ وجل، قال تعالى:

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [3].

ولهذا نرى أهل اللغة، والمفسرين ينزهون ذاته المقدسة عن هذه الصفة غير اللائقة به.

فعن الليث: قال أهل العلم بالتأويل: المكر من الله تعالى جزاء. سمي باسم مكر المجازي كما قال تعالى: وجزاء سيئة سيئة مثلها فالثانية ليست بسيئة في الحقيقة، ولكنها سميت سيئة لازدواج الكلام [4].

أما الراغب الاصفهاني فقد قال: مكر الله إمهاله العبد، وتمكينه من أعراض

---

(١) سورة النساء: الآية، ١٢٦.

(٢) ابن منظور: لسان العرب/ مادة (مكر).

(٣) سورة آل عمران: الآية، ٥٤.

(٤) ابن منظور: المصدر المتقدم/ مادة (مكر).

الدنيا، ولذلك قال أمير المؤمنين (رض): من وسع عليه دنياه، ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع عن عقله [١].

أما ابن الأثير فقد قال: مكر الله ايقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه [٢].

وبذلك يظهر المعنى من هذه الفقرة من خفاء مكر الله سبحانه حيث يعترف العبد بمنة الله عليه إذ لم يقابله بالمجازاة على ما فعله في هذه الدنيا سراً منه عليه مع أنه مستحق للمجازاة، وإيقاع البلاء عليه.

(وظهر أمرك).

يذكر أهل اللغة لكلمة ظهر (بالفتح) معنيين:

أحدهما: إنها بمعنى تبين، فالظهور به والشيء الخفي.

وثانيها: أنها بمعنى القوة والغلبة، يقال: ظهرت عليه أي قويت عليه، ويقال: ظهرت على الرجل غلبته [٣].

وفي شرح هذه الفقرة من الدعاء (وظهر أمرك) ربما يقال: أن المراد بها المعنى الأول، وهو: التبين. فالداعي بعد أن خاطب ربه بأنه مع كل نعمك عليّ يا رب، فقد خفي مكرك وهو مجازاتك لي على جرائمي، وذنوبي، قال بعد ذلك (وظهر أمرك).

ومعناه: أن هذا الستر الذي أرخيته عليَّ لا عن عجز منك عن المجازاة، بل ذلك بعد أن ظهر أمرك، وهو أنك إذا أردت شيئاً فلا يتخلف المراد عن إرادتك، فكان ذلك ستراً من قادر ظاهر أمره لكل أحد لا من عاجز غير قادر، وربما يقال: أن المراد بهذه الفقرة المعنى اللغوي الثاني، وهو الغلبة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [٤].

---

(١) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن/ مادة (مكر).

(٢) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث/ مادة (مكر).

(٣) ابن منظور: المصدر المتقدم/ مادة (ظهر).

(٤) سورة الصف: الآية، ١٤.

أي غالبين. والمعنى إن أمرك وحكمك غالب، ونافذ لا راد لحكمك ولا ناقض لأمرك، ولاسيما الحكم، والأمر التكوينيان [١].

وبين هذين القولين: نرى الأنسب بسياق الدعاء، وتدرج الفقرات الدعائية هو المعنى الأول: ذلك لأن المعنى الثاني ـ كما عرفت ـ يعطي أن أمرك قد غلب. بينما تأتي الفقرة الثانية الآتية والدعاء فيها «وغلب قهرك»، ويكون المعنى في الفقرتين متقارباً باعتبار الغلبة فيهما، ولكن على المعنى الأول يكون المعنى متغايراً، وحينئذٍ تتكفل كل فقرة معنى جديداً، وعلى ما هو معروف من القاعدة الأصولية القائلة: بأنه مهما أمكن التأسيس لا يجوز العدول عنه إلى التأكيد.

على أن التقابل بين خفاء المكر، وتبين الأمر يؤيد ما نذهب إليه من وجود مسحة من الروعة في الانتقال من خفاء إلى بيان.

وعلى العكس: لو كان الظهور بمعنى الغلبة، فإن تلك النبرة تنعدم عندما نقابل الخفاء بالغلبة.

(وغلب قهرك).

والقهر: هو الغلبة، والأخذ من فوق. قال الأزهري: والله القاهر القهار قهر خلقه بسلطانه، وقدرته، وصرفهم على ما أراد طوعاً، وكرهاً [٢]، ومن هذا يظهر معنى هذه الفقرة من الدعاء حيث دلت على أن قهره للأشياء، وتغلبه عليها ثبت له جلت عظمته.

(وجرت قدرتك).

ويبين لنا الإمام (عليه السلام) في هذه الفقرة من الدعاء أن قدرته تعالى ليست هي صفة محضة له، بل قد أعملها في الممكنات لأنه أحيا، وأمات، ورزق، وشافى، وأتقن كل شيء خلقه. فهذه الأرض بما تشتمل عليه من أجزاء صغيرة، وكبيرة، وعناصر تسير

---

(١) السيد جعفر بحر العلوم: أسرار العارفين/ ٥٤.

(٢) ابن منظور: المصدر السابق/ مادة (ظهر).

بدقة مضبوطة بطبقاتها المتعددة، ومياهها، وسهولها، وجبالها، وهكذا السماوات بما فيها من أجرام، وكواكب كلها تخضع لنظم خاصة بها بحيث لا يتخلف شيء من ذلك عما رسم له، ولو شاء أن يحصل أي خلل في هذه المساواة لحصلت كوارث لا يعلم تأثيرها إلاّ الله، كل ذلك على إعمال قدرته لا مجرد ثبوت هذه الصفة له.

(ولا يمكن الفرار من حكومتك).

وبعد بيان هذه الصفات، واثبات هذه العظمة، والقدرة المطلقة يعقب الداعي كل ذلك بهذه النتيجة التي لا مفر منها، وهي استسلامه لمولاه لأنه لا يمكن الفرار من حكومة ربٍ هذه صفاته.

وإلى أين يفر العبد؟ والأرض والسماء وما فيهن، وما بينهن كل ذلك مملكته، وتحت قبضته: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [1].

إن البروج المشيدة إنما تحمي الإنسان من إنسان مثله، ومن بعض التقلبات الجوية كالحر، والبرد، وما شاكل.

أما الموت فلا يقف في طريق برج، أو جبل، ولا يمنعه أي حاجز.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [2].

وهذه حقيقة يدركها الداعي، ولذلك يعترف بها فلا مفر من حكومته، وقد نقل عن الإمام الحسين (عليه السلام) أنه جاءه رجل عاصٍ لربه فقال له: (أنا رجل عاصٍ، ولا أصبر عن المعصية، فعظني بموعظة. فقال (عليه السلام): افعل خمسة أشياء، واذنب ما شئت.

فأول ذلك: لا تأكل من رزق الله، واذنب ما شئت.

والثاني: اخرج من ولاية الله، واذنب ما شئت.

والثالث: اطلب موضعاً لا يراك الله، واذنب ما شئت.

---

(١) سورة النساء: الآية، ٧٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية، ١٨٥.

والرابع: إذا جاءك ملك الموت لقبض روحك، فادفعه عن نفسك واذنب ما شئت.

والخامس: إذا أدخلك مالك في النار فلا تدخل، واذنب ما شئت) [1].

ولا يهمنا كثيراً أن نحقق عن سند هذه المحاورة، وهل أنها صحيحة وصدرت من الإمام الحسين (عليه السلام) أم لا؟

بل يهمنا أنها محاورة دقيقة، وإن كان مصدرها غير الإمام(عليه السلام). فهي تحمل بين طياتها ما نتوخاه من توضيح هذه الفقرة الدعائية من قوله: (ولا يمكن الفرار من حكومتك).

إن هذه المحاورة تجسد لنا ضعف الإنسان أمام خالقه، ومحكوميته، وخضوعه له فهو لا يستغني عن رزقه، وهو عاجز عن الخروج من ولايته، وهو في كل آنٍ من الآنات يراه الله ويطلع عليه، وهو في كل ذلك لا يحرك ساكناً لنفسه لو جاءه ملك الموت.

إن مثل هذا العاجز لا يمكنه أن يفر من حكومة الله، وسطوته تماماً كما يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في هذه الفقرة من الدعاء.

٥ـ (اللَّهُمَّ لا أجِدُ لِذُنُوبِي غَافِراً، وَلا لِقَبائِحي ساتِراً، وَلا لِشَيْءٍ مِنْ عَمَلي القَبيحِ بالحَسَنِ مُبَدِّلاً غَيْرَك).

ومن غير الله يكون ملجأً للعبد؟

إن الدعاء يكشف للداعي هذه الحقيقة ليناجي بها ربه، فهو الملجأ الوحيد لتحقيق طلباته، وتلبية رغباته من غفران ذنوبه، والستر عليه، وعدم هتكه نتيجة قيامه بأعمال مخالفة، ومشينة، ويأتي هذا المقطع ليظهر الداعي فيه كامل إرادته باعترافه بأنه لم يجد غير الله من يقبله، وهو على ما هو عليه من الذنوب وهذه حقيقة اعترف بها بعد إجراء الموازنة الدقيقة في البحث عن أولئك الذين لهم إمكانية

---

(١) لاحظ السبزواري: شرح دعاء كميل/ ٩٩ – ١٠٠.

تخليصه من العقاب على ما فعل، وإلاّ فليس من قبيل الصدفة، أو الاعتباط أن يكون الداعي قد وقع اختياره على الله ليغفر له، وليستر عليه جرائمه.

إنه بحثَ، وطرق الأبواب كلها، وإذا بمن يطلب منه عاجز مثله لا يمكنه دفع الضرر عن نفسه لذلك عاد، والخشوع يملأ جوانبه ينادي بلسان منكسر:

ومع هذا الفصل في فقراته الدعائية:

(اللهم لا أجد لذنوبي غافراً).

وانسابت الكلمات هادئة من فم الداعي يرددها منكسراً، وقد عاد الآبق إلى مولاه وجهاً لوجه أمام الحقيقة، حقيقة اعترف بها، ولا مناص عن التهرب منها بعد أن صرح القرآن الكريم بها في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [1].

إنه استفهام إنكاري، وتعجيزي في الوقت نفسه، وهل لبشر عاجز من التصدي لهذه المهمة؟ كلا: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [2].

(ولا لقبائحي ساتراً).

والقبيح في اللغة: ضد الحسن، ولربما كان المقصود بها في هذه الفقرة من الدعاء هي الذنوب التي يرى العرف لها مظهراً قبيحاً ومستنكراً. مضافاً، إلى أنها من الجرائم فهي ذنوب مستقبحة، وهذا ما يقتضيه السياق من الدعاء حيث يتدرج الداعي من اعترافه بعدم العثور على من يغفر له ذنوبه غير الله كذلك لم يجد من يستر عليه القبيح منها غيره سبحانه، ولو كان الأمر موكولاً إلى الناس لفضحوه، ولأعلنوا عنها، ولكنه الله الذي حلم عن معاقبة المذنبين، وتجلى عن ملاحقتهم، وستر عليهم رحمة منه بهذه المخلوقات الضعيفة.

(ولا لشيء من عملي القبيح بالحسن مبدلاً غيرك).

وهذه منة أخرى، ونعمة جديدة يضيفها الله على عبده المذنب حيث لا يكتفي

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ١٣٥.

(٢) سورة الرعد: الآية، ٣١.

بإسدال الستار على ما يصدر منه من أعمال قبيحة تجنباً لفضيحته بين الناس، بل يبدل له سيئاته حسنات.

وعملية تبديل السيئات بالحسنات من قبل الله عزّ وجل، وعد صدر منه تعالى في الكتاب الكريم لمن تاب، وآمن، وعمل عملاً صالحاً، فقد قالت الآية الكريمة في حق أولئك المؤمنين: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [1].

أما كيف يكون ذلك فقد قيل في تفسيره وجوه عديدة:

منها: أن الله يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة، ويثبت مكانها لواحق طاعاتهم، فيبدل الكفر إيماناً، والقتل بغير حق جهاداً وقتلاً بالحق والزنا عفة، وإحصاناً.

وقيل: المراد بالسيئات، والحسنات ملكاتهما لأنفسهما، فيبدل الملكة السيئة ملكة الحسنة.

وقيل: المراد بهما العقاب، والثواب عليهما لأنفسهما، فيبدل عقاب القتل، والزنا ـ مثلاً ـ ثواب القتل بالحق، والإحصان.

وقيل: أن كل سيئة تصدر منهم تتبدل، فتكون حسنة.

وليكن هذا، أو ذاك. المهم أن عملية التبديل هذه جاءت في الآية الكريمة تفريعاً على التوبة، والإيمان، والعمل الصالح أنه عطاء متواصل، ورحمة لمن تاب، وأظهر الندم.

وهو عطاء لا ينضب لمن عمل عملاً صالحاً، وشق طريقه في هذه الحياة على النحو المستقيم.

وقد (جاء شاب إلى رسول الله (ﷺ) فقال يا رسول الله (ﷺ): أرأيت من لم يدع سيئة إلاّ عملها، ولا خطيئة إلاّ ركبها ولا أشرف له سهم مما فوقه إلاّ اقتطعه بيمينه، ومن لو قسمت خطاياه على أهل المدينة لغمرتهم. فقال النبي (ﷺ): أأسلمت؟ قال: أما أنا أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله. قال (ﷺ):

---

(١) سورة الفرقان: الآية، ٧٠.

اذهب فقد بدل الله سيئاتك حسنات. قال: يا رسول الله (ﷺ): وغدراتي، وفجراتي؟ قال (ﷺ): وغدراتك، وفجراتك، ثلاثاً. فولى الشاب وهو يقول: الله أكبر) [١].

الله أكبر: كلمة الإعجاب.

الله أكبر: كلمة الإكبار.

الله أكبر: كلمة ملؤها التعظيم، والتجليل.

يقولها هذا الشاب، وهو يتضاءل أمام عظمة الله، وعفوه.

لماذا؟ لأنه لم يدع سيئة إلاّ وقد جاء بها، فماذا يتوقع بعد كل هذا الإجرام؟

لذلك جاء إلى النبي (ﷺ) واليأس يأخذ بمجامع قلبه، فهو لا يرى لذنبه غافراً، ولا لقبائحه ساتراً أحداً.

ولكنه يفاجأ بهذا اللطف، فلم يتمالك من أن يطلقها صرخة مدوية ترددها الرحاب الطاهرة، وتؤمن عليها الحناجر المؤمنة ممن حضر مجلس النبي (ﷺ) وهم يشاهدون ذلك الشاب المذنب يردد: الله أكبر.

وهل يقف عطاء الله، أو هل يعرض بوجهه الكريم عن عبده المذنب، وقد جاء ينهل من فيض رحمته.

ويأتي الجواب: بلا.

بل ترى في مورد آخر صورة من صور العطف الكريم تحدد اطاره الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [٢].

الحسنة الواحدة إذا عملها كتبت له عشر حسنات، أما إذا عمل السيئة فلا تكتب له إلاّ واحدة. وهذا معناه تضاؤل السيئات أمام الحسنات المتضاعفة، وبالأخير عدم تأثير السيئات للأثر المخصص لها، وعلى الأخص لو فرضنا أن

---

(١) جلال الدين السيوطي: الدر المنثور/ ٥، ٨٠، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان.

(٢) سورة الانعام: الآية، ١٦٠.

الإنسان المذنب قد أوقف تتابع السيئات بتوبته، والتزامه بالأسس الخيرة، والمبادئ الحميدة، فإن ما يأتي به من الحسنات، وما يضاعفه الله بإتيانها سيؤدي حتماً إلى محو السيئات التي ارتكبها. وهذه صورة أخرى من صور تبديل السيئات بالحسنات. وهي صورة واضحة من صور الحنو، والعطف، والرحمة من الله عزّ وجل. وهل معاملة ملؤها الإحسان يعامل الله عبده المذنب فيكتب له السيئة نفسها، ويوقف التنفيذ حتى تأتي الحسنة فيضاعفها لتصل إلى عشر حسنات، وليس في البين ظلم على أحد، ولا تعد على حق من الحقوق بل كل ذلك تفضل، وعطاء، ومنة، وكرم.

من تقبل توبته من البشر:

إن هذه الفقرات من الدعاء تصور لنا عملية اللجوء الكامل، والتركيز في التوجه إلى مصدر اللطف، والعطاء لغفران الذنوب، والستر على المذنبين فيما صدر منهم من قبيح الأعمال. فالعبد ينحدر إلى ربه ليجد من لطفه صدراً رحباً يقبل منه هذا التضرع، فيصفح عنه، ويزيد في حسناته.

ومن هنا نواجه مشكلة لابد من بحثها من جميع جوانبها.

تلك هي **مسألة التوبة**، وغفران الذنوب بعد تحقق صدورها من الأفراد، واستحقاقهم للجزاء المترتب على صدور تلك الذنوب فما معنى العفو حينئذٍ؟

وما الفرق بين شخصين امتثل أحدهما أوامر الله، وانتهى عما نهاه عنه. وخالف الآخر فلم يمتثل ما أمر به، ولم ينته عما نهي عنه، ولكنه تاب بعد ذلك وقبل الله توبته، وكلا هذين يخرج لدى النتيجة من هذه الدنيا نقي الذيل ولا شيء من العقاب مسجل عليه؟

ولذلك فإن القول بقبول التوبة من المذنبين، والعفو عنهم يشكل خرقاً لقاعدة العدل والإنصاف، وحاشا لله تعالى أن يصدر منه مثل ذلك، وهو العادل المنصف لعباده.

والجواب عن هذا الإشكال:

بأن المذنبين بالإمكان تصنيفهم إلى صنفين:

أ ـ مشرك بالله سبحانه.

ب ـ ومؤمن به، وبأنه واحد ليس له شريك، والمؤمن أيضاً يمكن تقسيمه إلى قسمين:

١ ـ مؤمن أذنب، ولكن الهداية بعد ذلك أدركته، فتاب، وندم عما صدر منه من الذنوب.

٢ ـ مؤمن أذنب ولكن الهداية لم تدركه، فبقي غير تائب حتى أدركه الموت فخرج من هذه الدنيا من غير توبة.

وإذاً، فالمذنبون على هذا التقسيم ثلاثة:

مشرك: ومؤمن مذنب تائب، ومؤمن مذنب غير تائب. ومع هؤلاء الثلاثة لنرى معاملة الله لهم، ومن سيكون منهم مشمولاً بعطفه، وغفرانه؟

١ ـ المشركون بالله:

إن هؤلاء المشركين بالله لا تنالهم رحمة الله ومغفرته طبقاً لما نصت عليه الآيات الكريمة التالية:

أ ـ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [1].

ب ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾[2].

ج ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴾ [3].

---

(١) سورة النساء: الآيات، ٤٨ و ١١٦.

(٢) سورة محمد: الآية، ٣٤.

(٣) سورة النساء: الآية، ١٣٧.

د ـ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾[١].

وإذاً، فلا مغفرة لمن لقي الله، وهو مشرك به، ولم يتدارك ما أقدم عليه في دار الدنيا. وذلك لأن هذا الإصرار من العبد على الشرك معناه: الإصرار على انقطاع العلقة، بينه، وبين الخالق العظيم، وانقطاع مثل هذه العلقة يكشف عن أن هذه النفس قد ماتت فيها كل عناصر الخير، والهداية، والصلاح. فهي بموتها تعود إلى ربها غير مرضي عنها فكان من حقها أن تحرم المغفرة، وتخلد في النار محرومة من السعادة الأبدية.

٢ـ المذنبون التائبون:

وحيث عاد هؤلاء إلى حظيرة الإيمان تائبين، وقد ندموا على ما صدر منهم فهؤلاء تقبل توبتهم بلا خلاف بين كافة فرق المسلمين في ذلك، وقد دلت على ذلك الآيات الكريمة والأخبار الشريفة، وهي من الكثرة بمكان [٢]. بل قد يترقى، ويقال: بأن قبول توبة النادم حق له سجله الله على نفسه حيث يستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [٣]. وقوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [٤].

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ ﴾، وتظهر الحقية من هذا التعبير القرآني المركّز، فالذين يعملون السوء بجهالة، ومن ثم يعودون إليه تائبين، فأولئك يتوب الله عليهم.

﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ ، ومن الواضح أن قبول التوبة رحمة منه لعباده كتبها على نفسه، وجعلها عهداً منه إليهم يقبل ممن ندم ووجد في نفسه حقيقة الندم،

---

(١) سورة النساء: الآية، ١٦٨.

(٢) ومن يتصفح هذه المادة (توب) في القرآن الكريم يجد أن الآيات الدالة على قبول التوبة من الله تتجاوز العشرين آية، أما كتب الحديث فقد خصصت أبواباً لهذا الموضوع .

(٣) سورة النساء: الآية، ١٧.

(٤) سورة الأنعام: الآية، ١٢.

والرجوع إلى الله، والإستظلال بكنفه.

وكما يقولون: (ما مسيء من إعتذر).

والإنسان مهما وصل به الغرور في عنفوان قوته فهو مخلوق ضعيف تتحكم فيه عوامل الجنس، والطيش، فيخضع إلى نزواته، وينساق إلى رغباته، وملاذه، وبذلك تضعف صلته بالله العظيم. ومن هنا يتشعب الطريق فنرى البعض على هذا الحال إلى أن يموت من غير توبة، وندم.

أما البعض الآخر: فإن الهداية تدركه ـ والفرصة بعد باقية ـ فيعود إلى وعيه، ورشده ليجد نفسه مقصّراً، وقد بعد عن رحاب الله.

وموضوع بحثنا في هذا القسم الثاني، هذا البعض، وهو في كلتا الحالتين بعده عن الله، وعودته إلى الله بقي محافظاً على صلته بربه، وذلك من طريق المحافظة على حقيقة الإيمان بالربوبية، والتمسك بالوحدانية، وهذا الإيمان الكامن في نفسه هو الذي يحفظ له خط الرجعة فتقبل توبته إن علم الله منه حسن النية، وصدق اللجهة.

ولماذا لا يقبل الله من عبده توبته؟

فهل كتب غيره على نفسه الرحمة؟

إنه كتبها على نفسه بطوع إرادته، ومن غير موجب عليه.

ومن الرحمة: أن لا يرد مسكيناً قصده ساعياً.

ومن الرحمة: أن لا يخيب فقيراً مد يد الضراعة إليه منكسراً.

يقول الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري(عزّ وجل) قال رسول الله (ﷺ): «إن الله يقول: يا عبدي ما عبدتني، ورجوتني، فإني غافر لك على ما كان فيك. ويا عبدي لو لقيتني بقراب الأرض خطاياً لم تشرك بي شيئاً لقيتك بقرابها مغفرة» [1].

على أن هؤلاء الذين أنابوا لربهم لم يحرموا عطف الملائكة الذين يحيطون

---

(١) جلال الدين السيوطي: الدر المنثور/ ٢، ١٧٠.

بالعرش حيث قال الله عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾[1].

ولم يكتف الملائكة بهذا المقدار من طلب المغفرة لهؤلاء التائبين بل أردفوا طلبهم من ربهم، فقالت الآية الكريمة تحكي كلامهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[2].

وازدادوا في الطلب فتضروا إلى الله قائلين: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[3].

وليهنأ بعد ذلك من تاب إذا كان شفعاؤه ملائكة العرش، وليعلم ان الله لا يخيب عبده فقد قال مبشراً عباده:

﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[4].

٣ـ المذنبون غير التائبين:

وهؤلاء وقع الخلاف في العفو عنهم.

فقد ذهب الأغلب إلى شمولهم بعطف الله، ورحمته، وأن الله يعفو عن هؤلاء أيضاً كما يعفو عن التائبين.

وقال بعض المعتزلة: بعدم العفو عنهم ، وأنه لابد من أن ينالوا جزاءهم من العقاب مستدلين على ذلك بما يلي:

الدليل الأول: إن الآيات، والأخبار قد تضافرت على بيان ترتب العقاب على المعصية، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ

---

(١) سورة غافر: الآية، ٧.

(٢) سورة غافر: الآية، ٨.

(٣) سورة غافر: الآية، ٩.

(٤) سورة الاعراف: الآية، ١٥٦.

﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[٢].

وإذاً، فبصراحة الآيتين، وغيرهما مما كان بياناً للعقاب نرى العقاب مرتباً على المعصية المذكورة، وقد خرج من هذا العموم الشخص التائب النادم على ما صدر منه من ذنب بالأدلة الأربعة: كتاباً، وسنة، وإجماعاً، وعقلاً، فإنه مقبول التوبة، ومعفو عن ذنبه ـ كما مر بيان ذلك في القسم الثاني ـ فبقي غير التائب تحت هذا العموم من غير دليل على خروجه.

الدليل الثاني: إنه من الواضح أن ترتب العقاب على المعصية في هذه الآيات، وغيرها إنما جاء على غرار ترتب الثواب على الطاعة من وعد الله سبحانه بذلك فكلاهما من وادٍ واحد وعد من الله بترتب شيء على شيء غايته: أن المترتب عليه في أحدهما المعصية، وفي الآخر الطاعة وفرض التخلف في أحدهما، وهو العقاب فيما نحن فيه يستدعي التخلف في الآخر، وهو عدم ترتب الثواب على الطاعة. وكل ذلك مستلزم للكذب، وتعالى الله سبحانه عن كل قبيح.

الدليل الثالث: إن العفو عن غير التائب مستقبح عقلاً لأن ذلك يوجب إغراء العبد، وتجريه على المعاصي، وعدم مبالاته بمبدأ التشريع ـ وفي الوقت نفسه ـ يبعث هذا الشعور بنفسه الشعور بالطمع في الاستزادة من المعاصي، وهو قبيح ومنافٍ لواجب اللطف منه تعالى، فإن اللطف يقضي بإيقاف العبد عن التوغل في المعصية ويكون ذلك بسد باب الطمع عليه ليعرف من أول الأمر أن جزاء ما صدر منه من المعاصي ما رتب عليها من عقاب فيرتدع حينئذٍ عن كل شيء، وإذا لم يرتدع، وبقي مصراً على ما هو عليه من الانحراف، فقد نال جزاءه باقدامه.

---

(١) سورة النساء: الآية، ١٤.

(٢) سورة النساء: الآية، ٩٣.

الدليل الرابع: إن العفو عن مثل هذا المذنب غير التائب مناف لعدل الله سبحانه فإن المساوات بين المطيع والعاصي، في دخول الجنة يستلزم إضاعة حق المطيع في احتماله مكاره الطاعة، ومشاق العبادة، وصبره عن لذائذ المعاصي، وشهواته النفسية، وقبح ذلك واضح خصوصاً مع وعده تعالى صريحاً بعدم إضاعة أجر المطيع منهم في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1] كما صرح أيضاً بعدم إمكان المساواة بين المطيع والعاصي في قوله عز من قائل:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[2].

بل إن ذلك يستلزم كون المجرم المرتكب للفحشاء، وأنواع المعاصي أعز شأناً، وأحسن حظاً من المطيع المتجنب عنها المتحمل للمكاره والمشاق إطاعة لمولاه في أوامره ونواهيه، ومن الواضح أن ذلك مما يأباه العقل السليم[3].

الجواب عن هذه الأدلة:

وجوابنا عن هذه الأدلة يأتي:

تارة: على نحو العموم.

وأخرى: على كل من هذه الأدلة بخصوصه.

١ـ أما الجواب العام:

فنقول: أن الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[4]. قد أطّرت المغفرة، وحددت حدودها، فاعتبرت الذنوب على قسمين:

---

(١) سورة التوبة: الآية، ١٢٠.

(٢) سورة الجاثية: الآية، ٢١.

(٣) لاحظ نور الافهام شرح أرجوزة مصباح الظلام/ ٣، ٥٢.

(٤) سورة النساء: الآية، ٤٨.

قسم: لا يدخل في حدود المغفرة.

وقسم: يدخل في حدودها.

أما الأول: فهو الشرك بالله سبحانه. والسر فيه، أن الشرك هو إقدام العبد على قطع جميع الوشائج التي تربط بينه وبين الرب، ولذلك فلا ترجى لمثل هذا الإنسان أي مغفرة ورحمة، طالما بقي مصراً على عناده، وإعراضه عن خالقه إلى أن فاتت الفرصة، ومات غير نادم.

وأما الثاني: فهو ما دون الشرك من المعاصي، والذنوب التي تصدر من الإنسان مهما كان حجم الذنب كماً وكيفاً، حسب منطوق الآية الكريمة والذي لا يقبل أي مناقشة وجدل، ومن غير فرقٍ بين حصول التوبة من المذنب، وعدم حصولها. والسر في ذلك، ربما يكون أن المذنب غير التائب، وإن كان عاصياً، ومتجرئاً على المولى بخروجه من هذه الدنيا، وهو غير تائب إلاّ أنه ـ في الوقت نفسه ـ لم يكن كالمشرك قد خرج من الدنيا وقد قطع كل الروابط التي توصله إلى الله، بل احتفظ بالرابط الأصيل، وهو القول بوحدانية الله، وعدم الشرك به، وهذا ما يشفع له، ويجعله موفور الأمل في رجائه لمغفرته، وشموله لفيض لطفه.

وإذاً، فالله يغفر ما دون الشرك، ومهما كان نوع الذنب، أما كيف ذلك، ومتى، وتحت أي شرط، فهو موكول إلى محله من البحوث التي تتناول هذا الموضوع بشكله التفصيلي العام.

٢ـ وأما الجواب الخاص:

والجواب عن الأدلة المذكورة لمنع قبول غير التائب:

فالجواب عن الدليل الأول: إن الآيات، والأخبار التي تعرضت لبيان ما يترتب على المعاصي من جزاء إنما تتعرض لذلك على شكل جعل القوانين العامة من معاقبة المخالفين، ومعنى ذلك: أن التشريعات النظامية سواءً كانت إلهية أو غير إلهية إنما تتكفل ببيان مرحلة الاستحقاق، وأن ما يستوجبه هذا الفعل من الجزاء هذه العقوبة المعينة.

أما مرحلة التنفيذ، وتطبيق العقوبة فإن ذلك يعود إلى السلطة المنفذة لمثل تلك العقوبات. وقد جرت النظم التشريعية على منح صلاحية العفو عن العقوبة وتطبيقها لرئيس السلطة، أو النظام في بعض المخالفات أو جميعها طبقاً لما يراه من المصلحة في كل مورد بخصوصه.

أما الله، وهو المشرع العام المتصرف المطلق في هذا الوجود فلم يحدد صلاحيته في شيء دون شيء، بل له التصرف الكامل في كل شيء، وقد احتفظ لنفسه بالصلاحية العامة في تطبيق الجزاء، وعدمه بموجب قوله سبحانه:

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1] فإن شاء عذب، وإن شاء غفر.

وليست إشاءته في صورتي التعذيب والغفران، نابعة من الاختيار الكيفي المحض، بل كان ذلك يتبع المصلحة الفردية أو النوعية، ولربما كان ذلك نتيجة تعويض يحصل عليه الفرد من جراء عملٍ يقوم به في حياته يحصل من ورائه على رضى ربه ولو كان قد مات غير تائب عن معاصيه. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2].

فهو يملك المغفرة بنفس القدرة التي يملك بها العذاب، ولكن رحمته سبقت غضبه، فكان غفوراً رحيماً بنص الآية الكريمة، وغيرها مما تعدد ذكره في الكتاب المجيد من آيات الرحمة والغفران.

وبهذا يتضح، أن صدور المعصية من الفرد لا يكون سبباً تاماً لتنفيذ ما رتب على المعصية من جزاء لأن التنفيذ أمر يرجع إلى المنفذ إن شاء فعل، وإن شاء ترك، بل هو سبب تام للاستحقاق لا أكثر، والفرق بين المرحلتين، الاستحقاق والتطبيق واضح.

وإذاً، فليبق غير التائب تحت العموميات القرآنية القائلة باستحقاق العقاب

---

(١) سورة النساء: الآية، ١١٦.

(٢) سورة الفتح: الآية، ١٤.

بمجرد صدور المعصية، ولكن الكلام، في التنفيذ على مثل هذا المذنب غير التائب، والتنفيذ بيده، والعفو من صلاحيته، على أن هذه الصلاحية المطلقة احتفظ بها لنفسه ليعملها في حق من؟

فهل هي للتائب المطيع الذي خرج من هذه الدنيا مستغفراً نادماً، أم هي لهذا ولمن خرج غير تائب؟

إن القول بقصر العفو على التائبين هو الحد من رحمة الله، ولطفه، وحاشا لكرمه من التحديد ـ وهو في الوقت نفسه ـ حرمان الموحد من فيض نعمه سبحانه. فأين إذاً، مزية عدم الشرك به إذا فرضنا أن غير التائب والمشرك، كلاهما على حد سواء من هذه الجهة؟ ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [1].

ومهما تعدى الفرد، وذهب بعيداً في مرماه فما زال يعترف بعبوديته لله سبحانه فلا يقنط من رحمته، فإنه يغفر الذنوب جميعاً، ولماذا؟ لأنه غفور رحيم.

وأما الجواب عن الدليل الثاني: فإن القول بأن ترتب العقاب على المعصية على غرار ترتب الثواب على الطاعة، والتخلف في أحدهما مستلزم للتخلف في الأمر لا صحة له، وذلك للفرق بينهما: بأن استحقاق الفرد المطيع لأوامر الله، ونواهيه للثواب ثبت له بإطاعته، وقيامه بكل أمر، وانتهائه عن كلما نهي عنه، وحرمان مثل هذا الشخص عن الجزاء المخصص، يعتبر تخلفاً وكذباً.

أما العاصي، فبتخلفه قد سجل شيئاً على نفسه، وهو العقاب، وحيث كان تطبيق هذا الحق من صلاحية المولى، وهو الله سبحانه فبالإمكان القول بأن الله يستعمل هذه الصلاحية فيتنازل عن حق من الحقوق الثابتة ليس تفضلاً منه ورحمة، فليس موضوع الطاعة والمعصية من وادٍ واحد، ولا ملازمة بينهما في التخلف.

وإذاً فلا كذب لو وعد على المعصية بنوع من الجزاء ولم يطبقه بل هو عين

---

(١) سورة الزمر: الآية، ٥٣.

الإحسان. أما لو وعد على الطاعة بنوع من الجزاء، ولم يف به، فهو تخلف صريح، وتجاوز على حقوق الآخرين، وحاشا له أن يعمل مثل ذلك، فالفرق بين الاثنين واضح.

وأما الجواب عن الدليل الثالث: فإن العفو عن المذنب غير التائب لا يوجب إغراءه، وتطميعه في الاستزادة من المعاصي وذلك لأن العفو عن غير التائب ليس أمراً إلزامياً، ومضموناً ثابتاً على الله ليكون في ذلك إغراء للعبد، بل كل فردٍ مذنب يحتمل أن الله لا يعفو عنه بعد مخالفته، ومجرد احتماله للعقاب كافٍ لردعه عن الإقدام على مثل ذلك في المستقبل، إذ من الثابت عند العقلاء: أن دفع الضرر المحتمل ولو لم يكن قطعياً أولى من جلب المنفعة، ولو كانت قطعية، ولو تأملنا لرأينا الإنسان بطبيعته يفر من أدنى احتمال يرى فيه الضرر عليه.

وبناءً على هذا، فإن احتمال عدم العفو كافٍ لردع العاصي في الارتكاب مرة أخرى، حينئذٍ فلا يكون احتمال العفو موجباً للإغراء في التوغل في الذنوب.

وأما الجواب عن الدليل الرابع: فلأن عفو الله عن المذنبين غير التائبين لا يشكل خرقاً لقاعدة العدل، فإن حق المذنب التائب محفوظ ومراعىً في التفات الله، وعطفه عليه برجوعه إلى حرم الله، وقدسه مكفراً عن سيئاته بتوبته.

إن هذا العمل بنفسه محبوب لله تعالى، لذلك ينال صاحبه من الله ما لا يحصل عليه من خرج من هذه الدنيا غير تائب، وإنما تاب الله عليه لمصلحة في مثل هذه التوبة. وهل يضيع الله حق شخص حرم نفسه من لذائذ المعاصي، وخالف شهواته النفسية والجنسية، وتحمل مشاق العبادة وصبر على الحرمان، وبالأخير يعتبره في الحساب كمن بقي طيلة حياته مخالفاً، ويتمتع بكل هذه الأشياء ثم يموت غير تائب؟

ولابد أن يكون الجواب بعدم ذلك، بل لابد من القول بعدم المساواة بينهما لما فرضته الآية الكريمة من التنديد بالقول بالمساوات بين من آمن بالله، وبين من اجترح السيئات سواءً في المحيا، أو في الممات.

أما في الحياة، فإن الفرق بين التائب المطيع، وبين المخالف المعاند واضح، فالمعاند

في الحياة شخص مبغوض، وبعيد عن رحمة الله وهدايته لمخالفته، واستمراره على المخالفة فكيف يقاس بمن أطاع الله بتوبته، ورجوعه عن الطريق غير المستقيم؟

أما في الممات: فإن حق التائب المطيع محفوظ ولاشك أن له من الدرجات الرفيعة ما لا يحظى به غير التائب.

إن التوبة، والإنابة، والرجوع إلى حرم الله سبحانه أمر محبوب بنفسه، ومقدر عنده لذلك ينال مثل هذا الشخص من الأجر ما لا يعطى لغير التائب.

ولابد لنا أن نفرق بين العفو عن غير التائب، وبين القول بمساواته لمن تاب في الأجر، والمنزلة. ومن يقول بإمكان العفو عن غير التائب لا يقول بمساواته للتائب بل على العكس يقول بتفضيل التائب على غير التائب.

وفي نهاية المطاف فقد تبين من خلال الإجابة، بأن القول بشمول غير التائبين إذا كانوا موحدين لعفو الله، ومغفرته لا يلزم منه أي محذور عقلي، ولا تجاوز فيه على حقوق التائبين لأن كل ذلك من حق الله، وصلاحيته، وبعفوه يكون قد استعمل ما هو له.

٦ـ (لا إلهَ إلاّ أنْتَ سُبْحانَك وبِحَمْدِكَ).

واتصال هذا المقطع من الدعاء بما سبق هو:

أن الداعي بعدما اعترف بأنه لم يجد لذنوبه غافراً، ولا لقبائحه ساتراً، ولا لشيء من عمله القبيح بالحسن مبدلاً غير الله يقف والرهبة تهز كيانه ليقولها كلمة يؤكد بها اخلاصه بتسبيحه، وتهليله، وتمجيده لذاته المقدسة لأنه الملجأ الذي يركن إليه.

وما هي تلك الكلمة... إنها:

(لا إله إلاّ أنت).

وهي كلمة التوحيد أي: لا شريك لك يا رب في الألوهية، ولا معبود سواك.

و«لا إله إلاّ الله» كلمة يرددها الداعي بعد أن أيقن أن كل من في هذا الوجود يستمد منه، ولا يستغني عنه.

(سبحانك، وبحمدك).

يقول الانباري: معنى قولهم: (سبحانك) أي تنزيهاً لك يا ربنا من الأولاد، والصاحبة، والشركاء. أي نزهناك عن ذلك.

وقال الفراء: سبحانك منصوب على المصدر كأنك قلت: سبحت لك تسبيحاً. فجعل السبحان في موضع التسبيح فهو إذاً منصوب بفعل مضمر كأنه قال: أبريء الله من كل سوء براءة.

وأما معنى، وبحمدك، أي بحمدك يا رب نبتديء، وبحمدك نفتتح فحذف الفعل لدلالة المعنى عليه كما قال عزّ وجل: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾[١] معنا: وادعوا شركاءكم[٢].

وقد قرن الدعاء في هذه الفقرة بين التسبيح، والحمد ليعلمنا أن تسبيحه تعالى مقترن بحمده، والثناء عليه لأنه أهل للتسبيح والحمد.

وليس تسبيح الله، وتقديسه مقتصر على البشر، بل كل شيء في هذه الحياة يشترك مع الإنسان في التسبيح، والتقديس، والحمد كما صرحت بذلك الآيات القرآنية، والأخبار الكريمة. يقول تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[٣].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[٤].

وهناك آيات أخرى تعرض لها القرآن الكريم تنص على هذا المضمون.

أما في الأخبار فقد جاء عن أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) قوله:

---

(١) سورة يونس: الآية، ٧١.

(٢) لاحظ لجميع ذلك: الزاهر/ ١، ١٤٦، وابن الأثير: النهاية في غريب الحديث/ مادة (سبح).

(٣) سورة الاسراء: الآية، ٤٤.

(٤) سورة النور: الآية، ٤١ .

(إن الطير إذا أصبحت سبحت ربها، وسألته قوت يومها) [(١)].

وجاء عن قتادة في قوله: (وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده) قال: ما من شيء في أصله الأول لن يموت إلاّ، وهو يسبح بحمده [(٢)].

وجاء في أخبار أخر، أن في خرير الماء، وذرات الهواء، وهبوب الرياح، والنسمات، وأصوات الحيوانات، وصرير الجمادات تسبيح له [(٣)].

من هذا العرض للآيات الكريمة، والأخبار لابد لنا من التسليم بأن كل شيء في هذا الوجود يسبح لله عزّ وجل.

ومن هنا يأتي السؤال الآتي كنتيجة حتمية لهذه الحقيقة التي لا مجال لانكارها بعد تصريح القرآن، والأخبار بها.

ويدور السؤال حول نوعية التسبيح الذي يصدر من كل شيء في هذا الوجود، مع أن المألوف إلينا أن التسبيح من مقولة الألفاظ والنطق، وهو مختص بالإنسان دون بقية الحيوانات فضلاً عن الجمادات، والذرات، والنسمات.

وبتعبير أوضح، إن المستفيد من مجموع هذه الآيات، والأخبار أمران، وكلاهما مورد للجدل، والنقاش.

الأمر الأول: إن الحياة عنصر مقوم لكل شيء في هذه الحياة، وإن كانت حياة بعض الموجودات تختلف عن حياة البعض الآخر لأن التسبيح الذي ثبت لكل شيء في هذا الكون بنص الآيات والأخبار، يقتضي الحياتية المذكورة لأن التسبيح لابد له من مسبح.

الأمر الثاني: إن لكل شيء في هذا الكون بما في ذلك الذرات في الهواء، وكل صغير، وكبير حيوان أو جماد، تسبيح خاص، وقد كثر الجدل، والنقاش حول هاتين

---

(١) السيوطي: الدر المنثور: ٤/ ١٨٤.

(٢) المصدر المتقدم: ٤، ١٨٤.

(٣) لاحظ لكل ذلك المصدر المتقدم.

الحقيقتين تسليماً من فريق من العلماء، ورفضاً من الفريق الآخر.

ويعتمد من يقول بالرفض على عدم الاعتراف بأن للجمادات، أو الذرات في هذا الكون من الحياتية ما يؤهلها لأن تقوم بدور التسبيح لله عزّ وجل.

هذا لو تجاوزنا القول بأن التسبيح مقتصر على الإنسان لأنه الحيوان الناطق، وجعلناه شاملاً لكل ذي روح، وإن لم يكن ناطقاً.

وفي مقام الجواب عن هذين الأمرين نقول:

أما عن الأمر الأول: وهو التصديق بحياتية الموجودات، فإن مشكلتنا الأساسية في مثل هذه المواضع هي تصلب البعض في اخضاع أغلب ما يمت إلى الأحكام الشرعية، أو العقيدة إلى المكتشفات العلمية بعد توجه المجاهر العلمية عليها، وطبيعي أن هذه المجاهر لا تقر بأن للجمادات التمتع بالحياة كما هو الحال بالنسبة إلى الحيوانات، والبشر، أو الاعتراف بأن لكل شيء في هذه الحياة منطق يخصه، ومن ثم: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[1] ، أو أن خرير الماء تسبيح، وهبوب النسيم تسبيح، وهكذا الحال في كثير من الأصوات التي تصدر من الحيوانات البرية، والبحرية.

إن الاعتراف بهذه الأمور نوع من التعبد بالخيال في نظر هؤلاء ولكن وفي مقام تقديم بعض ما يتعلق بالموضوع من **إيضاح نقول:**

إننا نتكلم مع من يتفق معنا بوضع أول لبنة لأسس الهيكل العقيدي في حياتنا العملية، ونحن كمتمسكين بعقيدتنا الإسلامية، وبأن القرآن الكريم هو الدستور الإلهي الموجه إلى البشر من قبل الله تعالى لا من قبل النظريات، والأفكار البشرية، وأن جميع ما عندنا مستمد منه ومن السنّة النبوية والتي هي عدل الكتاب الكريم، ومع هذه العقيدة فلا تبقى مشكلة في البين لأن القرآن الكريم قد صرح في أكثر من آية بأنه: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[2].

---

(١) سورة الإسراء: الآية، ٤٤.

(٢) سورة الأنعام: الآية، ٣٨.

وإذاً، فإنه ما من دابة تدب على الأرض، وهذا يشمل كل الأحياء من حشرات، وهوام، وزواحف، وفقاريات، وما من طائر يطير بجناحيه في الهواء، وهذا يشمل كل طائر من طير، وحشرة، وغير ذلك من الكائنات الطائرة، وما من خلق حي في هذه الأرض إلاّ وهو ينتظم في أمة ذات خصائص واحدة، وذات طريقة في الحياة واحدة كذلك شأنها في هذا شأن أمة الناس.

ما ترك الله شيئاً من خلقه دون تدبير يشمله، وعلم يحصيه، وفي النهاية تحشر الخلائق إلى ربها فيقضي في أمرها بما يشاء [1]. كما وأنه قد أعطى صورة كاملة لممالك النحل، والنمل، وغيرهما.

وإذاً، فلا بد من الإذعان بحياتية الموجودات في هذا الكون، وبهذا الصدد يقول الحكيم الشيرازي في كتابه الأسفار:

إن هذا الوجود كله حي، ولا معنى للوجود بغير حياة، وإن الحياة على مقدار اشراق أنوار الوجود الأعلى على المخلوق فللإنسان وللحيوان وللنبات حياة، أي أن هناك نوعاً من الشعور، وهكذا الجماد له نوع من الشعور أقل لأنه أفيض عليه من الحي [2].

وأما بالنسبة إلى الأمر الثاني: وهو الوقوف على حقيقة التسبيح من كل شيء فللعلماء في هذا الموضوع آراء عديدة.

يقول الشيخ أبو جعفر الطوسي لتوضيح التسبيح المذكور تعقيباً على قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [3].

(يعني كل شيء يسبح بحمده من جهة خلقته، أو معنى صفته إذ كل موجود القديم تعالى حادث يدعو إلى تعظيمه لحاجته إلى صانع غير مصنوع صنعه، أو صنع من صنعه فهو يدعو إلى تثبيت قديم غني بنفسه عن كل شيء سواه لا يجوز عليه ما

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن/ في تفسيره للآية ٣٨ من سورة الأنعام.

(٢) نقلاً عن عبد اللطيف البغدادي: التحقيق في الإمامة وشؤونها/ ١٧٥.

(٣) سورة الاسراء: الآية، ٤٤.

يجوز على المحدثات، وما عداه الحادث يدل على تعظيمه بمعنى حدوثه من معدوم لا يصح إلاّ به لدخوله في مقدوره أو مقدور مقدوره) [١].

ويقول الشيخ الرازي في تفسيره لهذه الآية: «اعلم ان الحي المكلف يصبح لله بوجهين:

الأول: بالقول كقوله باللسان (سبحان الله).

الثاني: بدلالة أحواله على توحيد الله تعالى، وتقديسه، وعزته.

فأما الذي لا يكون مكلفاً كالبهائم، ومن لا يكون حياً كالجمادات فهو إنما يسبح لله بالطريق الثاني لأن التسبيح بالطريق الأول لا يحصل إلاّ مع الفهم، والعلم، والإدراك، والنطق، وكل ذلك في الجمادات محال فلم يبق حصول التسبيح في حقه إلاّ بالطريق الثاني» [٢].

وقال بعضهم: (إن المراد أنها تسبح له بلسان الحال حيث تدل على الصانع، وعلى قدرته وحكمته فكأنها تنطلق بذلك، وكأنها تنزّه الله عزّ وجل بما لا يجوز عليه من الشركاء وغيرهما) [٣].

وربما يقال: أن تسبيح غير الحيوان من الجمادات، والذرات، وكلما في الأرض، والسماء بأجرامها الكبيرة، والصغيرة، وحتى غير المرئية منها هو خضوعها لنواميس، وقوانين في منتهى الدقة، والضبط. فإن جريان هذه المخلوقات على طبق هذه القوانين، والأوامر الإلهية هو نفسه التسبيح لأنه خضوع له تعالى.

ومعنى ذلك، نفي الشريك له، وتنزيهه عن كل شائبة ـ وعلى سبيل المثال ـ فإن الأرض بحجمها الكبير تدور، وتتحرك على وفق نظام خاص طيلة هذه المدة التي لا يعلمها إلاّ الله، فهي بذلك تسبحه في كل حركة لأنها لا تخرج عن أمره، مطيعة له،

---

(١) الشيخ الطوسي: التبيان في تفسير القرآن/ في تفسيره للآية ٤٤ من سورة الاسراء.

(٢) الفخر الرازي: التفسير الكبير/ في تفسيره للآية المذكورة.

(٣) الزمخشري: الكشاف/ عند تعرضه للآية ٤٤ من سورة الاسراء.

وكل ما في الأرض كذلك، وهكذا ما تشتمل عليه السماوات بكواكبها، وأجرامها كل ذلك تسبيح له، وتقديس.

وفي الحقيقة: إن الذي يجمع كل هذه الأقوال هو:

إن كل شيء في هذا الوجود منجذب إليه ومتجه إلى ساحته، ولو أمكن للإنسان أن يكشف له عن كثير من الأمور لأنصت خاشعاً إلى ترنيمة التسبيح ترددها الحيوانات بناطقها، وصامتها، ولرأى تنزيه الموجودات لخالقها وخضوعها، وتقديسها له.

على أنه لا داعي كثيراً للتوغل كثيراً في الوصول إلى معرفة نوعية التسبيح الذي تردده الموجودات مع أن الآية الكريمة، هي التي أخبرت بأن الفهم البشري لا يصل إلى كل شيء في هذا الوجود، ومن ذلك تسبيح الموجودات:

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(١).

وليكن عدم وصولنا إلى فهم هذا التسبيح الشامل مما اختص به نفسه عزّ وجل كما كان في كثير من الأمور يقول تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(٢).

وفي آية أخرى يقول عزّ وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾(٣).

وعلى كل حال: إنه لمنظر هائل أن يرى الإنسان كل شيء في هذا الكون يتجه إلى الله عزّ وجل يسبحه، ويقدسه.

وإنه لمما يهز القلب، ويملأه حيوية أن يكون للداعي شرف الالتحاق بهذا الموكب الإلهي، وهو يردد: (لا إله إلاّ أنت سبحانك وبحمدك).

---

(١) سورة الاسراء: الآية، ٤٤.

(٢) سورة الاسراء: الآية، ٨٥.

(٣) سورة لقمان: الآية، ٣٤.

٧ـ (ظَلَمْتُ نَفْسي، وَتَجَرّأتُ بِجَهْلي، وَسكَنْتُ إلى قَديم ذِكْرِكَ لِي وَمِنّك عَلَيّ).

وللإعتراف مرارة ليست بهينة، ولكن المعترف قد يجد نفسه أمام الأمر الواقع فلا مجال له عندها من تحمل كل ما يسببه ذلك الاعتراف من آثار.

ولذلك نرى الإمام (عليه السلام) من خلال هذه الفقرات يهيب بالداعي أن يعترف بأنه هو الذي ظلم نفسه في تجاوزه، وأنه هو المسؤول عن مثل هذا التقصير ولكنه ـ في الوقت نفسه ـ يحاول أن يبرر ذلك، ويجد له مخلصاً ليهرب من الواقع المرير فيعزو ذلك التماهل إلى ما قابله الله به من لطفٍ، ونعم مما جرّأه على مثل ذلك التجاوز.

ومع هذا الفصل في فقراته الدعائية:

(ظلمت نفسي).

وطبيعي أنه ظلم نفسه بما عمله، وارتكبه من الجرائم، وقد التفت إلى ذلك فلم يجد بداً من أن يلجأ إلى خالقه ليتحمل مرارة الاعتراف معوّلاً على لطف الله، وكرمه كما يأمل كل معترف ساقه الندم إلى الوقوف مثل هذا الموقف الحرج.

(وتجرأت بجهلي).

أي رب: ولم يكن ما صدر مني عن علم، ومعرفة، وسبق إصرار، بل كان ذلك عن جهل، وتقصير عفوي شأني في ذلك شأن كل من أمن العقوبة فأساء الأدب، فمن يتجرأ على من هو أقوى منه فإن ذلك يكون ناشئاً عن جهله بقوته.

ومع من أساء، وتجرأ؟

ويأتي الجواب: أنه أساء لربٍ عظيم لا تجازى نعمه.

(وسكنت إلى قديم ذكرك لي ومنك عليّ).

ويتحرق الداعي بعد تطاوله على مولاه، ولكنه يعود ليهدئ من نفسه عندما يعود بذاكرته إلى الوراء، وإلى الماضي القديم ليتصفح من خلال ما مرت عليه من مشاهد.. ما يهدئ من فورته النفسية أنه يحن إلى قديم ذكر الله له، ويسكن النفس

عندما يجد نعم الله عليه متوالية، وعطاءه متواصل من قبل أن يولد، وبعد ولادته وعندما يشب ويترعرع، كل هذه آنات تمر عليه، وهو فيها منعم بمنن الله، وألطافه. وهذه النعم، والألطاف هي التي مهدت الطريق له ليتجرأ بجهله على ربه، ولو كان المولى صارماً في جزائه لما أدى الحال بالعبد إلى هذا التطامن.

٨ ـ (اللَّهُمَّ مَوْلايّ كَمْ مِنْ قَبيحٍ سَتَرتَهُ، وَكَمْ مِن فَادِحٍ مِنَ البَلاءِ أَقَلْتَهُ وَكَمْ مِنْ عِثارٍ وَقَيْتَه، وَكَمْ مِنْ مَكْروهٍ دَفَعْتَهُ، وَكَـمْ مِـن ثَنَـاءٍ جَميـلٍ لَـسْتُ أهـلاً لَـهُ نَشَرْتَهُ).

وها هي نعم الله يستعرضها الداعي معترفاً بسبوغها عليه، وتهن مشاعره هذه الذكريات المؤلمة، فيبدأ بتعدادها، وهو يناجي ربه ليعترف له بأنه البادئ بالجميل، وتنهمل الدموع من عينيه، ويردد هذه الاعترافات:

ومع هذا الفصل في فقراته الدعائية:

(اللهم مولاي كم من قبيح سترته).

وحيث يعترف الداعي لمولاه بهذا الستر، والتفضل يعلم مدى ما صدر منه من القبيح الذي لو اطلع عليه الناس لما تركوه على هذا الحال، بل احتقروه، ولفظوه.

إلاّ أن عناية الله بعبده اقتضت أن يستر عليه لعل في ذلك ما يمنعه من العود إلى مثل ما صدر عنه، وهذه سجية الحليم الكريم لا يؤاخذ عباده بذنوبهم، ولا يفضحهم ليسقطوا في عيون الناس، بل يستر عليهم، ويمن عليهم، ويمهلهم.

«اللهم إن عفوك عن ذنبي، وتجاوزك عن خطيئتي، وصفحك عن ظلمي، وسترك على قبيح عملي، وحلمك عن كثير جرمي عندما كان من خطأي وعمدي، أطمعني في أن اسألك ما لا أستوجبه منك الذي رزقتني من رحمتك، وأريتني من قدرتك، وعرفتني من إجابتك، فصرت أدعوك آمناً، وأسألك مستأنساً، لا خائفاً ولا وجلاً؟» [١].

---

(١) فقرات من دعاء الافتتاح.

ومع كل هذه الأعمال التي تصدر من العبد، فإنه يعود ليسأل ربه آمناً من غير خوف، ولا وجل.

وفي خصوص ستر الله على العباد يحدثنا الخبر:

أنه «يؤتى بالعبد يوم القيامة يبكي، فيقول الله سبحانه: لم تبكي؟

فيقول: أبكي على ما سينكشف عني من عوراتي، وعيوبي عند الناس والملائكة.

فيقول الله: عبدي ما افتضحتك في الدنيا بكشف عيوبك، وفواحشك، وأنت تعصيني، وتضحك، فكيف أفضحك اليوم بكشفها وأنت تعصيني، وتبكي) [١].

وبين يدي هذه الفقرة من هذا الحديث:

(عبدي ما افتضحتك في الدنيا بكشف عيوبك، وفواحشك، وأنت تعصيني، وتضحك).

هنا تتجلى الروعة، والعظمة، وهنا تكمن الرقة ـ في الوقت ذاته ـ.

وهنا يلف الحنو الإلهي هذا العبد اللاهي المتمرد على ربه، فيسدل على قبائحه ستراً يضلل به ليبعده عن أعين الناس.

هذا حاله، وهو عاصٍ فكيف بمن تاب، وعاد إلى رشده ليجد من برد رحمة الله، وفيض عطفه ما يحقق له آماله في قبول التوبة، والتجاوز عن كل ما صدر منه.

(وكم من فادحٍ من البلاء أقلته).

فدحه الأمر، وفدحه الحمل، وفدحه الدين أثقله، وعاله، وبهضه ويقال: نزل به أمر فادح، أو ركبه دَين فادح، أي ثقيل، أما الإقالة، فهي: بمعنى العفو، والمسامحة[٢].

وفي هذه الفقرة يعترف الداعي بنعمة الله عليه في دفع كثير من الابتلاءات، والبلايا التي كان من المقرر نزولها به تبعاً لما جنته يده من الذنوب، ولكنه بعطفه، وكرمه دفع كل ذلك عنه.

---

(١) النراقي: جامع السعادات/ ٢، ٢٧٢.

(٢) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث/ مادة (فدح، وقيل).

ويصور لنا الإمام الكاظم (عليه السلام) مثل هذا المنظر في مناجاته، فيشكر الله على عدم ابتلائه عندما يقول:

«إلهي، وكم من عبدٍ أمسى، وأصبح مسافراً شاخصاً عن أهله وولده، متحيراً في المفاوز تائهاً مع الوحوش والبهائم والهوام، وحيداً فريداً لا يعرف حيلة، ولا يهتدي سبيلاً، أو متأذياً ببردٍ أو حرٍ، أو جوعٍ أو عري، أو غيره من الشدائد مما أنا منه خلو في عافية من ذلك كله فلك الحمد يا رب من مقتدرٍ لا يغلب، وذي أناة لا يعجل.

سيدي ومولاي، وكم من عبدٍ أمسى، وأصبح قد استمر عليه القضاء، وأحدق به البلاء، وفارق أوداءه، وأحباءه، وأخلاءه، وأمسى أسيراً حقيراً ذليلاً في أيدي الكفار، والأعداء يتداولونه يميناً وشمالاً، قد حصر في المطامير، وثقل بالحديد لا يرى شيئاً من ضياء الدنيا، ولا من روحها ينظر إلى نفسه حسرة لا يستطيع لها ضراً ولا نفعاً، وأنا خلو من ذلك كله بجودك وكرمك» [١].

ونظير هذا من أنواع البلاء كثير يدفعه الله عن عبده تفضلاً منه عليه.

(وكم من عثارٍ وقيته).

العثرة: هي الكبوة في المشي، أي السقوط، قيل أيضاً: الزلة، والخطيئة، والوقاية هي الحفظ، ووقاه المرض: حفظه منه [٢].

والمعنى الذي يريده الدعاء من هذه الفقرة هو: بيان، وتعداد الموارد التي كانت مزالاً للأقدام، وكان محتماً سقوط الإنسان في تلك المهاوي السحيقة مكبوباً على وجهه، ولكن: يا رب حفظتني من ذلك، ونجيتني من هذه العثرات فلك الحمد.

«يا من أظهر الجميل، وستر القبيح يا من لم يؤآخذ بالجريرة، ولم يهتك الستر، يا عظيم العفو، يا حسن التجاوز، يا واسع العفو، يا باسط اليدين بالرحمة، يا صاحب كل نجوى، ومنتهى كل شكوى، يا مقيل العثرات، يا كريم الصفح، يا عظيم المن، يا

---

(١) مقاطع من دعاء الجوشن الصغير المروي عن الامام موسى الكاظم (عليه السلام).

(٢) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (عثر، ووقي).

مبتدئاً بالنعم قبل استحقاقها»[١].

(وكم من مكروهٍ دفعته).

المكروه: في المصطلح الفقهي حكم من الأحكام الخمسة، وهو ما كره الله فعله، ولكنه لا يعاقب على الاتيان به فلو جاء به المكلف لم يستحق عليه العقوبة.

أما في اللغة: فهو ما يكرهه الإنسان ويشق عليه[٢].

والمراد من دفع المكروه في لسان الداعي **إما دفع نفس الشيء** الذي يكرهه الإنسان، **أو بإيجاد سبب** يكون موجباً لدفعه.

فمن الأول: بالإمكان القول بأن من فضل الله على عبده أن يدفع عنه ما يكرهه من مرض، ونحوه، وفقرٍ، وغيرِ ذلك مما يكرهه الإنسان.

ومن الثاني: القول بأن (المراد من دفع المكروه جعل الأسباب الدافعة له، والوسائل الموصلة إلى التحرز عنه كالأذكار الواردة في طلب الرزق، وأداء الدين، والأدعية الواردة لدفع الهم، والكرب، والخوف، وخواص حمل القرآن، وقراءته خصوصاً بعض السور منه)[٣].

وهكذا الصدقات فإنها تدفع البلاء المحتم أو تدفع سبعين بلاء.

وقد جاء عن النبي (ﷺ): «إن الله لا إله إلاّ هو ليدفع بالصدقة الداء والدبيلة، والحرق، والغرق، والهدم، والجنون، وعد سبعين باباً من الشر»[٤].

وعن الإمام الباقر (عليه السلام): «البر، والصدقة ينفيان الفقر، ويزيدان في العمر، ويدفعان عن صاحبهما سبعين ميتة سوء»[٥].

---

(١) من الأدعية الواردة في صلاة جعفر الطيار (عليه السلام).

(٢) ابن الأثير: المصدر المتقدم/ مادة (كره).

(٣) السيد جعفر بحر العلوم/ أسرار العارفين/ ٥٩..

(٤) النراقي: جامع السعادات/ ١٤٦.

(٥) النراقي: جامع السعادات/ ١٤٦.

وهكذا ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام): «داووا مرضاكم بالصدقة»[١].

(وكم من ثناء جميلٍ لست أهلاً له نشرته).

وحيث يتصور الداعي نفسه، وقد تراكمت عليها سحب الذنوب وسودت وجهه الخطايا فلا يرى لها جميلاً بين الناس، وأينما حل تعتريه المضايقات النفسية، ويرى أن نتائج أعماله تستوجب أن يحتقره الناس لأعماله القبيحة.

ولكن على العكس يمن الله عليه بأن يحببه في أعين الناس، فتتناوله الألسن بالذكر الحسن، والثناء الجميل، وهو المدح مع أنه لا يرى لنفسه مثل هذا الجميل، واللطف منه تعالى.

ولكنها منة أخرى تضاف إلى بقية النعم التي وفرها الخالق لعباده لتكون الحجة البالغة لله دائماً.

٩ـ (اللَّهُمَّ عَظُمَ بَلائِي، وَأَفْرَطَ بِي سُوءُ حَالي، وقَصُرَتْ بي أعْمالي، وَقَعَدت بي أغلالِي، وَحَبَسَني عَنْ نَفْعِي بُعْدُ آمالِيْ، وَخَدَعَتْني الدُّنْيا بِغُرُورِها، وَنَفْسي بِخيانَتِها، وَمِطالي).

ويقف الداعي أمام موازنة دقيقة تأخذ عليه مسالك التفكير يتصور حالته وجراءته على مولاه، وكلما صدر منه من ذنوب.

ومن جهة أخرى، يلاحظ نعم الله عليه، فهو موفور الصحة كامل الأعضاء ينشر له ربه كل جميل، ويستر عليه القبيح، ويقيه العثرات. فيا عجباً من هذا العطف واللطف.

ويلوم نفسه على ما صدر منه، ولكنه يقنعها بأن لو لم يكن أهلاً للفضل، ومحلاً للرحمة، فإن الله سبحانه هو أهل الفضل، والرحمة قد ورد عن (صلى الله عليه وآله) في تعقيبات الصلوات اليومية قوله: «اللهم ان لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك، فإن رحمتك أهل أن

---

(١) النراقي: جامع السعادات/ ١٤٦.

تبلغني وتسعني لأنها وسعت كل شيء...»[١].

إن هذه الموازنة التي أجراها الداعي في نفسه بين ما صدر منه، وما منحه ربه من فضل هي التي جعلت منه أن يبدأ ازدواجية الاعتذار عن قبيح ما صنع، وبيان أسباب هذا التمادي الذي سبب له هذه الأعمال، فأطلقها صرخة مدوية مكبراً ما صدر منه.

ومع هذا الفصل في فقراته الدعائية:

(اللهم عظم بلائي).

والبلاء: هو الغم الذي يبلي الجسم[٢]، وبهذه الفقرة أنبأ الداعي عن الغم الذي يسيطر عليه من جراء ندمه، واعترافه:

(وأفرط بي سوء حالي).

والافراط في الشيء هو تجاوز الحد فيه[٣].

وفي ذلك يعترف الداعي بأنه: قد تجاوز الحد في المخالفة، وهذا من سوء حاله أن يدمن، ويكثر من هذه المخالفات التي أبعدته عن جلال الله.

(وقصرت بي أعمالي).

وبالنسبة إلى نعم الله عليه يجد الداعي من نفسه التقصير إزاء شكرها، ولذلك لا يجد نفسه واصلاً إلى درك مرضاته تعالى، ومحققاً للغاية المنشودة من امتثال أوامر الله، وترك ما هو منهي عنه.

(وقعدت بي أغلالي).

والاغلال: هي الأطواق الحديدية، والتي يقيد بها المجرم أو الأسير حيث يجمع

---

(١) الشيخ الطوسي: مصباح المتهجد/ ٢٣٤، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت ـ لبنان.

(٢) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (بلي).

(٣) المصدر المتقدم: مادة (فرط).

يده إلى عنقه، ويربطهما الطوق الحديدي.

وهذه الفقرة من الدعاء تصور لنا حالة الداعي، والذلة تحيطه من جميع جهاته بعد تصويره لحالته بأن أعماله القبيحة، قد قيدته كما تقيد الأطواق الحديدية الأسير، وتذله، وعلى الأخص عند الوقوف بين يدي آسره.

إن هذه الأغلال التي تحبس الداعي، وتقعده إنما تقعده عن الالتفات إلى الأمور الخيّرة، والأعمال الصالحة، والاتجاه إلى الله، وحينئذٍ فيبعد عن كل ذلك لسوء سريرته.

(وحبسني عن نفعي بعد آمالي).

وبعد الأمل الذي يقصده الدعاء في هذه اللقطة هو التسويف الذي يلازم المرء فيمنعه عن القيام بما يلزم إزاء وظائفه الدينية، والاجتماعية فيدأب ليقضي أيام شبابه عابثاً لاهياً مؤملاً أنه سيعود إلى الرشد بعد ذلك.

إن هذا التسويف هو الذي يضيع الفرصة على هذا المسكين فيدعه يتخبط في آثامه، ولربما يدركه الموت فتفسد عليه أبواب الغفران، وعندها يخسر الصفقة، ولا ينفعه الندم حينذاك: ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۞ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾[1].

ما أشدها من لحظات، وما أحرجها من ساعة تمر على الإنسان، وهو يحتضر ليلفظ أنفاسه الأخيرة.

ساعة يخاطب النبي الكريم (ﷺ) فيها جبرائيل، وهو يقول: (حبيبي عند الشدائد لا تخذلني). وإذا كان نبي الرحمة هذا طلبه من جبرائيل، وهو حبيب الله فكيف بالعبد المذنب؟

هذا العبد المسجى يواجه الموت، وهو منه قريب يلتفت إلى عمله فيراه قبيحاً،

---

(١) سورة المؤمنون: الآية، ٩٩ و ١٠٠.

ويلتفت إلى أمواله فيراها مكدسة، ولم يكن قد استثمرها في طرق الخير، ولم يؤد حق الله منها، وها هي الأبواب تغلق في وجهه فلم يبق لديه إلاّ طلب واحد ذلك هو الرجوع به إلى سابق وضعه ليتدارك ما فات، ويصلح ما أفسده نتيجة التسويف، وطول الأمل.

ولكن: لقد فات الأوان، وبعد الزورق عن الساحل، وقد لفته الأمواج العاتية، وانتهى كل شيء، فقد جاء الجواب الإلهي: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾.

لقد تلاشت الآمال العريضة، وضاعت الفرصة، وخمد الضوء فلف الموت بردائه الحالك هذا المسجى فماتت البسمات على شفتيه.

إذاً، فلابد للإنسان، وهو يخوض غمار هذه الحياة من اليقظة والحذر قبل أن تنسد في وجهه الأبواب بحلول الشيخوخة حيث تضعف القوى، فلا يقوى حينئذٍ على تدارك ما فات، ومن ثم فشبح الموت يقطع إليه خط الرجوع، والتدارك.

ولذلك نجد النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) يؤكد على هذه الجهة، ويحذر من التمادي وعدم الالتفات إلى ما يلزم من المبادرة قبل فوات الأوان. فيقول:

(والذي نفسي بيده ما طرفت عيناي إلاّ ظننت أن شفري لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي، ولا رفعت طرفي فظننت أني واضعه حتى أقبض، ولا لقمت لقمة إلاّ ظننت أني لا أسيغها حتى أغص بها من الموت.

ثم قال: يا بني آدم إن كنتم لا تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى)[1].

وفي خبر آخر يقول (صلى الله عليه وآله):

(أكلكم يحب أن يدخل الجنة؟

قالوا: نعم يا رسول الله، قال: قصروا من الأمل، واجعلوا آجالكم بين أبصاركم)[2].

---

(١) النراقي: جامع السعادات/ ٣، ٣٦.

(٢) المصدر المتقدم. ٣، ٢٨.

وبمثل هذا ونحوه مما يحث على الحذر، والاستعداد، واغتنام الفرصة للتزود بالأعمال الصالحة جاءت الأخبار الكثيرة مؤكدة أن الإنسان لابد له من التوجه إلى الله، والانشداد إلى تعاليمه المقدسة.

ولابد لنا من إيضاح نقطة دقيقة، ونحن نتعرض لمثل هذا النوع من الأخبار، فالملاحظ على كثير من الآيات، والأخبار التي يظهر منها أن يكرس الفرد حياته للعبادة، والتفرغ لها كما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

هو تغليب الجانب العبادي في هذه الدنيا بحيث يفهم منها أن الفرد لابد له من ترك الدنيا، وما تتطلبه الحياة الاجتماعية من إدارة، وعمل لتأمين الوسائل المعيشية ـ على سبيل المثال ـ فلنقف بين يدي الحديث السابق من قول النبي (ﷺ): «يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى».

فكيف نعد أنفسنا من الموتى؟ والإسلام يريد منا العمل لنقوم ببناء حياة اجتماعية فضلى لنثبت أننا أمة تفوق الأمم الأخرى، والتي تسير على خط الإسلام، ونظمه، وتشريعاته النافعة.

على أن هناك قسماً آخر من الأخبار، نراه يبرمج الفرد في الانشغال بالدعاء، والأعمال المستحبة طوال اليوم، وفي كل ساعة من ساعات الليل، ومن المعلوم أن الإسلام لا يريد من أفراد الأمة الرهبنة، والانخراط في سلك المترهبنين لتكون حصيلة عمر الإنسان هو إهمال الحياة الاجتماعية، وعدم بنائها على النحو الذي تريده الشريعة نفسها، ذلك لأن الإسلام حياة عمل وحياة مزدهرة بالنظم والقوانين التي تنظم حياة الفرد على الصعيدين العبادي، والعملي **فكيف نوفق بين هاتين الجهتين؟**

العبادة: والتي هي غاية الوجود للإنسان كما صرحت به الآية الكريمة في قوله

---

(١) المصدر السابق: ٣، ٣٦. وسورة الذاريات: الآية، ٥٦.

تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١).

والعمل: وهو الذي يبني المجتمع الحديث الذي يزخر بكل ما يرفه للفرد حياته، وسعادته كما تخطط الشريعة المقدسة عبر الأحاديث الكريمة، ويأتي الحل لهذه المشكلة من خلال الأحاديث التي وردت عن المشرع والتي وفقت بين هاتين الجهتين: الوظائف العبادية، والعملية، يقول (ﷺ): «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» (٢).

وهكذا في حديث آخر جاء قوله (ﷺ): (اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع الآخرة، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل)(٣).

ومثل ذلك ما ورد في قوله (ﷺ):

«ليس منا من ترك لآخرته ولا آخرته لدنياه»(٤).

إن هذه الموازنة بين أعمال الدنيا والآخرة، هي التي يريدها المشرع الإسلامي، فيعطي الجانب الدنيوي حقه ليعمل كأنه يعيش إلى آخر الزمن فلا يتقاعس عن متطلبات الحياة الاجتماعية ـ وفي الوقت نفسه ـ عليه أن لا يغفل عن آخرته ليجمع بين الجانبين.

أما الإنهماك في الأعمال الدنيوية، أو الرهبنة، والاتجاه إلى الحياة الأخروية فهذا ما لا يريده الإسلام للأمة في كل أدوارها، وأجيالها المتعاقبة، فالدنيا التي تمنع الآخرة يتعوذ النبي (ﷺ) منها في الحديث الثاني، لأن هذا الانهمال معناه: أن يخسر الآخرة، ويخسر من وراء ذلك معنى العبادة والتي هي الغاية من خلق الإنسان، وإتيانه لهذه الحياة.

---

(١) سورة الذاريات: الآية، ٥٦.

(٢) السيد جعفر بحر العلوم: أسرار العارفين/ ٦٢.

(٣) النراقي: جامع السعادات/ ٣، ٣٦.

(٤) المصدر المتقدم. جامع السعادات: ٣/ ٣٦.

وإذاً، فالطريق الوسط هو أن يعيش الإنسان دنياً لا تمنعه من آخرته، ولا آخرة تستوجب إهمال دنياه، بل يجمع بين الاثنين.

عمل: شعاره العبادة.

وعبادة: لا تنفك عن العمل.

والجمع بين هذين إنما يتحقق، بالتوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة، التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر، ومن كل معنىً غير التعبد لله.

بهذا، وذلك يتحقق معنى العبادة، ويصبح العمل كالشعائر، والشعائر كعمارة الأرض، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد، والرضى بقدر الله، كلها عبادة، وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن، والإنس لها، وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه.

(وخدعتني الدنيا بغرورها).

خدعه: ختله، وأراد به المكر من حيث لا يعلمه [١].

والغرور: الأباطيل، وقيل: تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب [٢].

والتعبير بالخداع: ينطوي على معنىً يريد الداعي بيانه من خلال هذه الفقرة الدعائية.

أنه يريد أن يقول: إن هذا الإنهماك في طلب الدنيا، والاقدام على هذه المخالفات لم يكن عن علمٍ منه، وتقصير بل هو مخدوع خدعته الدنيا والخداع ـ كما مر في اللغة ـ هو الختل من حيث لا يعلم.

أما الغرور: فيكمن فما تشتمل عليه هذه الحياة من لذائذ وقتية، وشهوات عارمة

---

(١) لاحظ ابن منظور: لسان العرب/ مادة (خدع، وغرر).

(٢) المصدر المتقدم. لسان العرب/ مادة (خدع، وغرر).

غير مشروعة تجر الإنسان إلى مهاوي الرذيلة وتبعده عن الواقع، وما يرفع النفس، ويصونها عن كل قبيح: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1]. متاع خادع كالسراب الذي: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[2].

ومن الغريب أن يكون وصف الدنيا بأنها ـ (متاع الغرور) ـ، قد صدر من الخالق لهذا الكون. العالم بكل جزئية، وكلية. وقد جاء هذا الوصف في ذيل الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾[3].

وعن الشيخ البهائي، أن هذه الخصال الخمس المذكورة في الآية من اللعب، واللهو، والزينة، والتفاخر، والتكاثر مرتبة بحسب سني الإنسان، ومراحل حياته فمثلاً نراه يتولع أولاً: باللعب وهو طفل، أو مراهق، ثم إذا بلغ، واشتد عظمه تعلق باللهو والملاهي، ثم إذا بلغ أشده اشتغل بالزينة من الملابس الفاخرة والمراكب البهية، والمنازل العالية، ثم إذا اكتمل أخذ بالمناظرة بالأحساب، والأنساب، ثم إذا شاب يسعى في تكثير المال، والولد[4].

ولكن، كل ذلك يذهب هباء ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ ثم تكون نتيجته أنه كالحطام.

وإذاً، فقد تلاشت الآمال، وكانت اللذات المزيفة كالأحلام لم يبقَ منها إلاّ بعض ذكريات تحتفظ بها الذاكرة، وصور مرت على الذهن كالشريط الذي يمر على الإنسان تسير به حافلة الزمن.

ويصحو الإنسان من غفوته الحالمة ليجد نفسه، وقد غرته الدنيا فذهبت ملاذها

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ١٨٥.

(٢) سورة النور: الآية، ٣٩.

(٣) سورة الحديد: الآية، ٢٠.

(٤) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن/ في تفسيره لهذه الآية، الكريمة، سورة الحديد: الآية، ٢٠.

الوقتية، وبقي ما خلفته من تبعات وأوزار.

يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في مقام تحذيره عما تخلفه الدنيا من ويلات، ومصائب: (اذكروا انقطاع اللذات وبقاء التبعات).

ومرة أخرى: نعود إلى الفقرة الدعائية «وخدعتني الدنيا بغرورها».

لنقول: إنها تشير إلى حالة نفسية يمر بها الإنسان في حياته، وهي: التغلب المستمر في روحيته، فالحياة دائمة الإغراء، والإنسان دائم النسيان والتناسي، وصحيح أن كل ما في الدنيا للإنسان، ولكن ليس كل إنسان يحسن استغلال ما في هذه الحياة، لذلك فهو دائماً عرضة للغرور، والانحراف عن الطريق الصحيح للعيش في هذه الدنيا.

وهنا يوقظ الدعاء في نفس الداعي حسه، وينبهه إلى نقطة حساسة تلك هي التأثير المستمر في حياة الإنسان الذي يجب أن يكون يقظاً له لئلا ينجرف إلى الجانب السيء.

(ونفسي بخيانتها).

أما الخيانة: فهي نقض العهد [(١)].

وأما النفس: فقد ذكروا لها معاني عديدة، ذكر كثير منها في القرآن الكريم، والأخبار. منها: اللوامة، والأمّارة، والمطمئنة، والراضية والمرضية.

وفي مورد آخر قسمها الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) لراوي الدعاء كميل ابن زياد فعدها أربعة: النامية، أي النباتية، والحسية، وهي الحيوانية، والعاطفة، أي القدسية، والكلمة الإلهية، ولكلٍ من هذه الاربعة خمس قوىً، وخاصان.

وقد أسهب شيخنا الطريحي في هذا الموضوع في كتابه (مجمع البحرين) مادة: نفس. كما وقد تعرض لذلك كثير من الباحثين، والمفسرين، ولكن وخوفاً من الإطالة فقد ارجأنا البحث عن النفس، وما يمت إلى حقيقتها بصلة لئلا نخرج عن الصدد، ولأن النفس ـ والتي يراد بها هذا الكيان الشخصي لكل فرد حيث يكون بها

---

(١) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (خوت).

قوام هذه الحياة ـ أصبحت لها صورة منطبعة في الذهن يتخيلها الإنسان، وإن كان البحث في حقيقتها مثار جدل، ونقاش بين العلماء، ولهذا لا نرى داعياً للتوغل في تعريفها، ولذلك نعود لنلتمس ما يقصده الدعاء من توجيه الداعي إلى الاعتراف بخيانة النفس.

والملاحظ: إن الدعاء في الفقرة السابقة ألقى اللوم على الدنيا لأنها خدعته بغرورها، وفي هذه الفقرة ألقى التبعة على نفسه فهي التي خانته، وأوردته هذه الموارد، ولكن الخيانة لمن؟ ومع من كان نقض العهد؟ بعد أن عرفنا أن الخيانة هي نقض العهد في اللغة، وكذا في المصطلح العلمي الخاص.

وهذا ما لم يذكر في نصوص الدعاء إلاّ أننا من التناسق الدعائي، ومن خصوصية المورد بكامله نعلم أن الخيانة إنما كانت لعهد النفس مع الله عندما نالت شرف الإسلام، وأسلمت بالرسالة المحمدية. ذلك أن الفرد عندما يسلم، أو يصل إلى سن التكليف، فيختار الإسلام ديناً له يجعل المظهر، لذلك إعلان الشهادتين بقوله: «أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله».

وبإظهار هذه الشهادة تترتب المظاهر الخارجية، والتي يتمتع بها، وبتعبير أوضح نقول: إن إسلام الفرد ينبني على مظهر خارجي، وهو إظهار الشهادتين أمام الناس، وفي المجتمع، وما يترتب على ذلك من إطاعة القوانين، وعدم الخروج عليها.

وعلى مبدأ داخلي ذاتي يكون بين الإنسان وربه تعهد بأن يؤمن به حقاً، ويعترف به، وبصفاته، وأن يمتنع عن كل ما نهي عنه مما لا يطلع عليه إلاّ الله.

وهذا الجانب الداخلي يعطيه الله أكثر أهمية لأنه يجعل من الفرد إنساناً كاملاً بنفسه، وبدون رقيب خارجي يوقظه إلى مثل هذا الالتزام، وكما وأن التعاليم الإسلامية في أكثرها مبنية على القبول الداخلي، والنقد الذاتي، فإن داخل الإنسان، ونفسه هي التي تشع إلى الخارج على شكل تصرفاته مع الآخرين.

كل مسلم من كونه محقون المال، والدم، والعرض، فهو بعد ذلك كفردٍ من أفراد المجتمع الإسلامي له ما لهم، وعليه ما عليهم لأنه يشهد الشهادتين، ومن قال هذه

الشهادة حقن ماله، ودمه، وعرضه كما يقوله الحديث.

وأما ما وراء ذلك من التزام بمبادئ الإسلام وقوانينه، وما يتبع ذلك من اعتقاد بضروريات الدين وأصوله، وفروعه، وما يترتب على ذلك من ثواب، وعقاب، فإن هذا أمر يعود إلى عقيدة هذا الفرد، ومدى التزامه، وإيمانه بالإسلام، ونظمه، ومقرراته فإذا تبع إظهار الشهادتين اعتقاد كامل كان ذلك الفرد مثال المسلم المؤمن.

أما في صورة عدم الاعتقاد، فإن هذا الفرد لا يتعدى كونه فرداً محكوماً بالإسلام بحسب المظاهر الخارجية.

وعوداً لما نحن بصدد إثباته من العهد، فإن من أقر بالله وبرسوله، وآمن إيماناً كاملاً بذلك فهو يعترف.

إذاً: بأن هذه الشريعة المقدسة هي الدستور الإلهي الذي على المكلف أن يلتزم به، ويطبقه بكل ما يحتوي عليه على الصعيدين: العبادي، والمعاملي.

وهذا هو العهد بينه، وبين الله على الإقرار بوحدانيته، وان محمداً مبلغ لرسالته، وهو ـ في الوقت نفسه ـ متمسك بكل التعاليم والأحكام التي جاءت بها تلك الرسالة.

وإذاً، فأي مخالفة من قبل الإنسان المكلف معناها نقض للعهد، والاتفاق على تطبيق محتويات القانون الإلهي، وعليه أن يتحمل تبعات هذا النقض، وهذه المخالفات.

والداعي: لا يخرج في جميع حالاته عن كونه بشراً.

لذلك نراه دائماً، وفي مثل هذه الموارد يريد التهرب من المسؤولية حيث يفرض من نفسه كياناً آخر هو الذي يقوم بهذه المخالفات، ولذلك يلقي اللوم عليها، ولهذا جاءت هذه الفقرة معطوفة على قوله: (وخدعتني الدنيا بغرورها)، فكما كانت الدنيا خادعة، وهو مخدوع فكذلك نفسه خائنة فهو مظلوم، أو متظلم.

(ومطالي).

والمطل: هو التسويف بالوعدة مرة بعد أخرى [1].

وهنا عطفه الداعي على ما سبق من اعتذاره لله تعالى بخيانة نفسه حيث ألقى اللوم على نفسه بخيانتها، وعدم قيامها بما فرضه الله تعالى، أو التسويف بالاتيان بذلك مرة بعد أخرى إلى أن فات الأوان، وذهبت الفرصة فيكون المعنى: «وخدعتني نفسي بخيانتها، وتسويفها».

١٠ـ (يا سَيِّدي فَأسألُكَ بِعِزَّتِكَ أنْ لا يَحْجُبَ عَنْكَ دُعائِي سُوءُ عَمَلي، وَفِعَالي وَلا تَفْضَحْني بِخَفيِّ ما أطَّلَعْتَ عَلَيْهِ مِنْ سِرِّي، وَلا تُعَاجِلْني بالعُقُوبَةِ عَلى مَا عَمِلْتُهُ في خَلَواتي مِنْ سُوءِ فِعْلي، وإسَاءَتي، وَدَوامِ تَفْريطي وَجَهالَتي، وَكَثْرَةِ شَهَواتي، وَغَفْلَتي).

ويتناول الدعاء في هذا الفصل بفقراته العديدة معالجة مشكلة التستر على الأعمال التي يصدرها الإنسان في خلواته حيث يظهر بمظهر الصلاح ويبطن المنكرات ليجلب بذلك ود الناس، وعطفهم.

هذا النوع من البشر الذين يعيشون في خلواتهم يفجرون، ويخالفون، ولكنهم يلتزمون بما تمليه عليهم المظاهر الاجتماعية.

ولربما يقول البعض: إننا لماذا نلاحق الإنسان حتى في مخدعه ومأمنه ما دام محافظاً على الوضع العام، وما يمليه عليه الاجتماع من آداب سلوكية والمهم هو حفظ النظام العام؟

ويجاب عن ذلك: إن الإمام (عليه السلام) لا يكتفي من الإنسان بهذا المقدار من الالتزام، والتقيد ليحافظ على المظهر فقط بل يوجه الداعي عبر الدعاء إلى تهذيب نفسه، وتوجيهه إلى الله لتسمو نفسه، وليكون مثال المؤمن المتطامن الذي يسلم الناس من يده، ولسانه، ولا يتحقق ذلك إلاّ بأن يكون الدعاء عند الفرد النفسية

---

(١) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (مطل).

الصالحة ذات الوجه الواحد في الخفاء والعلن، لذلك فإن الفرد الصالح هو من يكف نفسه عن القيام بما ينافي على كلا الصعيدين الداخلي، والخارجي امام الناس، أو بعيداً عن أعينهم، فإن الجريمة لا تختلف من حيث كونها جريمة في الشارع العام، أو في البيت، وبين جدرانه، إلاّ أنها في الخارج يضاف إلى كونها جريمة انها تأخذ طابعاً آخر، وهو مساعدتها على التفسخ، والتحلل الذي يصيب المجتمع من كافة أطرافه من جراء انتشار الجرائم بين أفراده.

إن هؤلاء الذين يحافظون على مظاهرهم الخارجية لجلب عواطف الناس وإظهار انفسهم بالمظهر الذي يتناسب مع الوضع الديني، وهم يخفون الجريمة في خلواتهم إنما يراؤون بأعمالهم، وهم بذلك قد اشتروا رضا المخلوق بسخط الخالق، وهذا ما لا تقره الشريعة المقدسة ولا أي رسالة أخرى نزلت من السماء.

ولهذا نرى الدعاء في هذا الفصل يوجه الداعي إلى التخلي عن هذه المخاتلات، والخدع ليعتذر إلى الله عزّ وجل فيما صدر منه في الخفاء، ويعاهده متضرعاً على أن يكون مثال الفرد المسلم المؤمن الذي لا تختلف حاله في كل الأوقات، والأماكن يراقب الله في كل لحظة من لحظات حياته لأن الله معه في كل زمان، ومكان، ولا تخفى عليه خافية.

ومع هذا الفصل في فقراته الدعائية:

(يا سيدي: فأسألك بِعِزَّتِكَ أن لا يحجب عنك دعائي سوء عملي وفعالي).

وعاد الداعي أدراجه إلى الوراء ليرى ماذا فعل فيما مضى من عمره خدعته الدنيا بغرورها. وغرته نفسه بخيانتها، وهو أعلم بما صدر منه، فرأى ذنوبه قد تراكمت، وقد حجبت دعاءه من الوصول إلى الله ليتجاوز عنه، وهذا ما يخشاه الإنسان في هذه الحياة، إنه يخشى أن تكون أعماله القبيحة كالدرن الذي ينشر غلافاً على الشيء فيكون طبقة عازلة، وهكذا الذنوب تراكمت فحجبت نفسه عن المثول بين يدي خالقها لتنهل من نميره العذب وليلفها وشاح لطفه الكريم، ولهذا كانت الرقة بادية على هذا

النداء المتضمن لخضوع الداعي لمولاه، وهو يطلب العفو ويريد التجاوز، وأن لا يكون ما صدر منه من قبيح الأعمال حاجباً ومانعاً عن وصول صوته إليه فإن فعلت، وأعرضت بوجهك الكريمة عني فأنا أهل لذلك، ولكنك يا سيدي إن تجاوزت، وتفضلت بحلمك، وكرمك فأنت أهل لذلك. فلا تعاملني على قبيح ما عندي، بل عاملني بجميل ما عندك يا رب.

(ولا تفضحني بخفي ما إطلعت عليه من سري).

إن هول الجريمة قد أنسى الداعي رحمة الله، وستره المرخى على العباد، فهرع إلى ربه يدعوه أن لا يفضحه ويكشف أمام أعين الناس ما أخفاه هو عنهم، فالمجتمع لا يرحم إذا عرف من هذا الفرد تستره على الجريمة، ولذلك نرى الداعي يسأل ربه أن يكفيه شر الناس، وأذاهم عندما تنظر إليه العيون شزراً وتهمس الشفاه تتحدث عنه.

(ولا تعاجلني بالعقوبة على ما عملته في خلواتي).

المعروف بين الكل حتى أصبح واضحاً هو أن العقاب، والجزاء إنما هو في الحياة الآخرة بعد الحساب يوم القيامة، وهكذا الثواب، وعندها ترى نتائج الحساب، فإما إلى الجنة، أو إلى النار تبعاً لما عمله، وما قدمه في دنياه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وهذه حقيقة أصبحت من الوضوح بمكان إلاّ عند من ينكر البعث، والحساب واليوم الآخر، والجزاء مثوبة وعقوبة. فلهؤلاء طريقتهم الخاصة النابعة من إلحادهم، أو شركهم بالله، ولسنا مع هؤلاء المنكرين.

وإذاً، فمن الملفت أن يوجه الدعاء الداعي في التوجه إلى الله، والطلب منه أن لا يعجل له عقوبته على ما اقترفه في هذه الدنيا، وفي خلواته، وهل عقاب الله يكون في دار الدنيا.. بعد أن قدمنا أن الجزاء مثوبة وعقوبة إنما هو بعد الموت، وفي تلك الدار لا في حال الحياة؟

وللإجابة على ذلك نقول:

ليس كل العقاب منحصراً بما بعد الموت، بل بالإمكان تقسيم العقاب على ثلاثة أقسام:

١ـ ما يحصل بعد الموت، وبعد الحساب، وهو العالم الأخروي.

٢ـ ما يحصل في حال الحياة، وبعد الموت.

٣ـ ما يكون في حال الحياة فقط.

أما القسم الأول: فإنه يكون مرتباً على الشرك بالله، أو ترك ما يفرضه من الواجبات، والمحرمات، وما هو من هذا القبيل فإن كل ذلك ينال جزاءه العبد بعد الحساب في يوم القيامة، وبذلك يدخل النار لمدة معينة، أو يخلد فيها تبعاً لحجم الذنب الذي صدر منه شركاً، أو تركاً لأوامر، أو عصياناً لنواهي كان المفروض أن يتجنبها.

وأما القسم الثاني: فهو ما يكون عقوبة على الظلم الذي يصدر من العبد، والتجاوز منه على حقوق الآخرين فهذا ينال جزاءه الظالم في الدارين الدنيا والآخرة، وقد حكى القرآن، وعرض صوراً لذلك فقال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ (١).

وقد تضمنت الآية الكريمة الحكاية عن حال قارون، وتطاوله وإصراره على الفساد في الأرض، وغروره بكل ما حوله، وشيوع ظلمه وأذاه إلى الناس، وكان يخرج من بيته متزيناً بالذهب، والأحجار الكريمة، وقد نقلت المصادر التفسيرية بأنه خرج مرة في أربع آلاف دابة عليها أربعة آلاف فارس عليهم، وعلى دوابهم الأرجوان (٢).

وقيل: خرج في جوار بيض إلى سرج من ذهب على قطف أرجوان على بغال بيض عليهن ثياب حمر، وحلي، وذهب (٣).

كل هذه المشاهد تمر، وقارون يبغي عليهم كما تصرح الآية في قوله تعالى:

---

(١) سورة القصص: الآية، ٨١.

(٢) الارجوان: صبغ احمر، أو ثياب حمر. لحظ لذلك الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (رجو).

(٣) لاحظ لذلك الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية، ٨١ سورة القصص.

﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[١].

فهل يتركه الله يعبث في الأرض فساداً، ثم ليموت حتف أنفه ليطوي سجلاً حافلاً بالفساد، والبغي، والظلم، والجور، والتلاعب بأموال الناس، ونفوسهم، وأعراضهم، وبعد، وفي يوم القيامة ينال جزاءه، وحينئذٍ تكون حياته مشجّعة لغيره ممن ينهج على نهجه ويسير على خطاه؟

وطبيعي أن يكون الجواب بالنفي، بل لابد من إنزال العقوبة به في الدنيا ليكون عبرة لغيره لتستقيم تلك الأمور.

وكان جزاؤه، وحسماً لمادة الفساد أن خسف الله به، وبداره الأرض فضم الثرى بين جنبيه رمز الظلم، والخيانة، فكان هذا حظه في الدنيا، وله من عقاب الآخرة ما لا يعلمه إلاّ الله سبحانه.

وفي سورة أخرى من سور القرآن الكريم تطالعنا الآيات بصورة أخرى لمثل هذا النوع من العقاب المتوخى منه حسم مادة الفساد قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٢].

لقد أذاقهم الله العذاب في الدنيا لأن هؤلاء البغاة الكفرة ظلموا الناس، وتجاوزوا، واستعلوا عليهم، وخالفوا أوامر الله، ونواهيه بل، وأشركوا به فعجل لهم العذاب في الدنيا نتيجة جرائمهم البشعة فمن أخذته الصيحة في الآية الكريمة فهم: ثمود، وقوم شعيب. والمراد بالصيحة هي ـ العذاب ـ أما من خسف به الأرض فهو: قارون، ومن كان جزاؤه الغرق فهو: فرعون، وقومه، وقوم نوح[٣].

هذا في الدنيا، وأما في الآخرة، فحسابهم عسير، وعسير جداً. إذ هم على موعد

---

(١) سورة القصص: الآية، ٧٦.

(٢) سورة العنكبوت: الآية، ٤٠.

(٣) الطبرسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية، الكريمة/ ٤٠ ، سورة العنكبوت.

مع الله، وأمام الميزان، وعند الحساب:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (1).

وحاشا لله أن يظلم أحداً لأن الظلم قبيح، وهو منزه عن القبيح بل ذلك بما قدمت أيديكم، وأن الله ليس بظلامٍ للعبيد.

وأما الأخبار: فقد تضمنت أيضاً عرضاً لمثل هذه الصور العقابية فقد جاء عن رسول الله (ﷺ) قوله: «خمس إن أدركتموهن فتعوذوا بالله منهن.

١ـ لم تظهر الفاحشة في قومٍ قط حتى يعلنوها إلاّ ظهر فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا.

٢ـ ولم ينقصوا المكيال، والميزان إلاّ أخذوا بالسنين، وشدة المؤنة وجور السلطان.

٣ـ ولم يمنعوا الزكاة إلاّ منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا.

٤ـ ولم ينقضوا عهد الله، وعهد رسوله إلاّ سلط الله عليهم وأخذ بعض ما في أيديهم.

٥ـ ولم يحكموا بغير ما أنزل الله إلاّ جعل الله بأسهم بينهم» (2).

وفي مقام المقارنة بين هذه المعاصي الخمس وبين ما جعل لكل واحدٍ منها من العقوبة قيل: (إنه رتب على كل أحد من المعاصي المذكورة عقوبة مناسبة.

فإن الأول: لما كان في تضييع آلة النسل ناسبه الطاعون الموجب لانقطاعه ـ بناءً على أن الفاحشة هي الزنا ـ.

والثاني: لما كان القصد فيه زيادة المعيشة ناسبه القحط وشدة المؤنة، وجور السلطان بأخذ المال، وغيره.

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٨١.

(٢) السيد جعفر بحر العلوم: أسرار العارفين/ ٦٧.

والثالث: لما كان فيه منع ما أعطاه الله بتوسط الماء ناسبه منع نزول المطر من السماء.

والرابع: لما كان فيه ترك العدل، والحاكم العادل ناسبه تسلط العدو، وأخذ الأموال.

والخامس: لما كان فيه رفض الشريعة، وترك القوانين العدلية ناسبه وقوع الظلم، وغلبة بعضهم على بعض) [١].

هذه نماذج، وصور من العقاب في الدنيا جزاءً على صدور الذنوب والفحشاء، والمنكر تأديباً، وعبرة للغير في هذه الحياة.

القسم الثالث: من أقسام العقاب، وهو ما يكون العذاب متوجهاً على العبد في الدنيا دون الآخرة، وهذا يبتني على أن الله إذا أحب عبداً، وله ذنب ابتلاه بأنواع العذاب ليكون ذلك تكفيراً له عما صدر منه من ذنب فقد جاء عن رسول الله (ﷺ): (قال الله عزّ وجل: ما من عبدٍ أريد أن أدخله الجنة إلاّ ابتليته في جسده، فإن كان ذلك كفارة لذنوبه، وإلاّ شددت عليه عند موته حتى يأتيني ولا ذنب له، ثم أدخله الجنة)[٢].

وفي خبر آخر عن الإمام أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: (إذا أراد الله عزّ وجل بعبدٍ خيراً عجل عقوبته في الدنيا، وإذا أراد بعبدٍ سوءً أمسك عليه ذنوبه حتى يوافي بها يوم القيامة) [٣].

والروايات التي أشارت إلى هذا المعنى كثيرة، وكلها تصرح بأن الله إذا تعلقت إرادته أن لا يعذب عبداً لأمور هو أعرف بها، ومن أجلها استحق عطف الله، وابتلاه بما يرفع عنه عقاب الآخرة، وبلائها.

---

(١) أسرار العارفين/ ٦٧.

(٢) الشيخ الكليني: الكافي/ باب تعجيل العقوبة، حديث ٥ ـ ١٠.

(٣) الكافي/ باب تعجيل العقوبة، حديث ٥ ـ ١٠.

ومن هذا العرض يتضح لنا، أن الداعي حيث يطلب من سيده أن لا يعاجله بالعقوبة (**لا تعاجلني على ما فعلته في خلواتي**).

إنما يقصد العقوبة من القسم الثاني، لا العقوبة من القسم الثالث لأن عقوبة القسم الثاني لا ترفع شيئاً من عذاب الآخرة، ولا تخفف منه شيئاً، ولذلك يطلب الداعي عدم التعجيل بها عليه.

أما العقوبة من القسم الثالث، فإن على الداعي أن يطلبها من الله لأن العقوبات الدنيوية مؤقتة بينما عذاب الآخرة شديد، ولا طاقة على تحمله: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ** ﴾[1].

فليست عملية التعذيب تنتهي بمرة واحدة يحرق فيها المذنب في نار جهنم، وتنتهي المشكلة، ويعود كل شيء إلى مكانه، بل هي عملية متكررة حسب عظم الذنب تنضج الجلود فتبدل غيرها ليذوقوا العذاب، وليعلموا:

﴿ **أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ** ﴾[2].

(من سوء فعلي، وإسائتي، ودوام تفريطي، وجهالتي، وكثرة شهواتي، وغفلتي).

وبدأ الداعي يعدد تلك الأمور التي كان قد فعلها، والتي طلب من الله أن لا يعجل العقوبة عليه في الدنيا من أجلها وهي أفعاله السيئة القبيحة، وتفريطه المستمر بواجباته، وجهله بكثير مما يلزمه، وكثرة شهواته المسعورة غير المشروعة.

أما غفلته: فالمراد بها غفلته عن كثير مما يلزم القيام به.

وقد يرد الإشكال على التعبير بالغفلة: فإن الغافل كيف يعاقب مع أنه غافل؟ وعليه فلماذا يطلب الداعي التجاوز عما صدر منه في حال الغفلة، وهو غير مؤاخذٍ عليه؟

والجواب عن هذا الإشكال: إن الغفلة في اللغة جاءت اسماً لغيبة الشيء عن بال الإنسان، وعدم تذكره ـ وفي الوقت نفسه ـ قيل: المراد بها ما لو ترك الإنسان الشيء

---

(١) سورة النساء: الآية، ٥٦.

(٢) سورة البقرة: الآية، ١٦٥.

إهمالاً، وإعراضاً كما جاء ذلك في المصادر اللغوية [1].

وينحل الإشكال إذا قلنا: إن الداعي قد استعمل الغفلة في المعنى الثاني، وهو الإهمال، والإعراض، والمعنى بناءً على هذا التفسير الثاني:

أي رب، ولا تعاجلني بالعقوبة على ما أهملته، وأعرضت عنه من الواجبات، وترك المحرمات.

١١ـ (وَكُنِ اللَّهُمَّ بِعِزَّتِكَ لِي فِي الأَحْوَال كُلِّهَا رَؤوفاً، وَعَلَيَّ فِي جَمِيعِ الأُمُورِ عَطُوفاً. إلَهِي، وَرَبِّي مَنْ لِي غَيْرُكَ أسأَلُهُ كَشْفَ ضُرِّي، وَالنَّظَرَ فِي أمري؟ إلَهِي، وَمَوْلايَ أجْرَيْت عَلَيَّ حُكْماً إتَّبَعْتُ فيهِ هَوى نَفْسي، وَلَمْ أحْتَرِسْ فِيهِ مِنْ تَزْيينِ عَدُوِّي. فَغَرَّني بِما أهوَى، وأسْعَدَهُ عَلى ذَلِك القَضَاءُ، فَتَجاوَزْتُ بِما جَرَى عَلَيَّ مِنْ ذَلِك بَعْضَ حُدُودِكَ، وَخَالَفْتُ بَعْضَ أوامِرِك، فَلَكَ الحَمْد (فَلَكَ الحُجَّةُ) عَلَيَّ فِي جَميع ذَلِكَ، وَلا حُجَّةَ لِي فيما جَرى عَلَيَّ فيهِ قَضاؤُك وَألزَمَني حُكْمُكَ، وَبَلاؤُكَ).

يشتمل هذا الفصل من الدعاء على مقاطع أربعة:

فالمقطع الأول: والذي يبدأ بقوله «وكن اللهم بعزتك لي» الخ. وينتهي بقوله (إلهي، وربي من لي غيرك).

نرى الإمام (عليه السلام) يوجه الداعي فيه إلى تغيير لهجة الطلب والالتماس، من حيث قصرها على المغفرة، والتجاوز عن الذنوب، بل يوجهه إلى تصعيد حملته الدُعائية لطلب الرأفة منه تعالى في كل شيء.

إن الاحساس بالرحمة، والعطف الكامل من الله لعبده، وشعوره بأن الله هو مصدر كل ذلك هو الذي حدا بالداعي أن يقفز بالطلب إلى هذا الحد، فيتجاوز من طلب المغفرة إلى طلب الرأفة، والعطف عليه في كل شيء بما تشتمل عليه كلمة (كل) من التعميم.

---

(١) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (غفل).

وأما المقطع الثاني: والذي يبدأ بقوله «إلهي وربي من لي غيرك» وينتهي بقوله: «إلهي ومولاي أجريت علي حكماً».

فيظهر الدعاء فيه عجز الداعي الكامل عن كشف الضر عنه، وعدم وجود من يلجأ إليه للقيام بهذه المهمة غير ربه، فهو الذي بيده مفاتيح الخير، وأنه على كل شيء قدير.

وأما المقطع الثالث: والذي يبدأ بقوله: «إلهي ومولاي أجريت عليَّ حكماً» لينتهي بقوله «فلك الحجة عليه».

فيتلخص في اعتراف الداعي بالقاء كافة المسؤوليات في المخالفة على نفسه، واعتبار التقصير ناشئاً من قبله.

وفي المقطع الرابع: والذي يبدأ بقوله: «فلك الحجة عليَّ في جميع ذلك» نرى الداعي يسلم أمره إلى الله بعد إجراء هذه السلسلة من الاعترافات وأخيراً التصريح بأنه: هو الخاسر، وأن الحجة لله عليه لا له على ربه فهو المغلوب، والخاسر، وبالأخير، فإنه المفتقر إلى رحمة ربه.

ومع المقاطع المذكورة.

(وكن اللهم بعزتك لي في الأحوال كلها رؤوفاً، وعليَّ في جميع الأمور عطوفاً).

الرؤوف، من الرأفة، ويقول أهل اللغة ان الرأفة أشد من الرحمة. والعطوف: من العطف، وهو الرجوع، ويراد به هنا: اشفق، ورق له ووصله، وبره كل ذلك مصداق للعطف [١].

إن الداعي بدأ يلتمس من ربه بعد أن أحس من دفء رحمة ربه ما جرأه على التطاول في الطلب أنه يريد من ربه أن لا يقف عند نقطة معينة من حنوه، وعطفه، بل

---

(١) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (عطف).

يذهب به إلى أقصى حد ليكون محاطاً بكامل لطفه، وفي جميع الآنات التي تمر عليه مع إحساسه بأنه المذنب المقصر، والمتجاوز على الحدود. ولكن الملجأ هو الله لأنه القائل: (عبدي أوَجدت صدراً أوسع مني فشكوتني إليه).

ما أرق هذا العتاب الهادئ يصدر من مصدر القوة، والاقتدار يناغي به ضعيفاً لا يملك لنفسه ضراً، ولا نفعاً يريد منه أن يتوجه إليه فهو الرؤوف العطوف.

يقال، (إن قارون لما تمادى في غيّه، وبغيه دعا عليه موسى (عليه السلام) فأوحى الله إلى موسى: إني أمرت الأرض أن تعطيك، وسلّطتها عليه، فمرها بما شئت تطعك.

فجاء موسى إلى قارون وكان قارون من أقارب موسى (عليه السلام) فلما رآه قارون عرف الغضب في وجهه فقال: يا موسى ارحمني. فقال موسى: يا أرض خذيهم. فاضطربت دارهم، وخسف به، وبأصحابه حتى تغيبت أقدامهم، وساخت دارهم على قدر ذلك. فقال قارون: يا موسى ارحمني فقال: يا أرض خذيهم، فاضطربت دارهم، وخسف به، وبأصحابه إلى ركبهم، وساخت داره على قدر ذلك، وجعل قارون يقول: يا موسى ارحمني، وجعل موسى يقول: يا أرض خذيهم، فاضطربت داره، وخسف به، وبأصحابه إلى سرتهم، وساخت داره على قدر ذلك. فقال قارون: يا موسى ارحمني. فقال موسى: يا أرض خذيهم، فخسف به، وبداره، وبأصحابه فلما خسف به أوحى الله إلى موسى: يا موسى ما أشد قلبك، وعزتي وجلالي.. لو بي استغاث لأغثته فقال موسى: رب غضباً لك فعلت) [1].

قارون وبشهادة القرآن الكريم أنه بغى على الأمة وأنه الظالم العضوض، ومع كل ذلك يقسم الله بعزته، وجلاله أنه لو توجه إليه في تلك اللحظات الحرجة، واستغاث به لوجده عنده، وأغاثه، وعفا عنه.

أي لطف هذا، وأي رحمة هذه، وأي حلمٍ يتصوره الإنسان أن يكون مثل قارون، وما هو عليه من الجنايات لو لجأ إلى الله لوجده عنده؟

---

(١) لاحظ الطبرسي: مجمع البيان. والسيوطي: الدر المنثور/ في تفسيرهما للآية ٨١ من سورة القصص.

سبحانك يا رب...

(إلهي وربي من لي غيرك أسأله كشف ضري والنظر في أمري).

والضر: بفتح الضاد، وضمها ضد النفع، وسوء الحال والشدة:

ويقول النحويـون: إن ـ مَن ـ للاستفهام، وهي في هذه الفقرة أيضاً جاءت للاستفهام، ولكن من باب «وكم سائل عن أمره وهو عالم»، والداعي يعلم أنه ليس له غير الله يكشف ضره، وينظر في أمره إلاّ أنه يلجأ إلى الله يستفهم منه، وهو يريد بهذا الاستفهام الصوري أن يقول: ربي ليس لي غيرك من أسأله، وألجأ إليه.

(إلهي ومولاي أجريت عليَّ حكماً اتبعت فيه هوى نفسي).

وفي هذه الفقرة يبين الداعي أن مخالفته للأحكام الشرعية التي كلف بها من قبل الله سبحانه إنما كانت تبعاً لأهوائه النفسية، وميوله الشهوانية تاركاً جانب العقل، والذي يوضح له أن مخالفة أوامر الله، ونواهيه العقاب الأخروي والبعد عن ساحته المقدسة، ولربما كان مع ذلك العقاب في الدنيا كما مر من نقلنا لبعض الصور التي عرض مشاهدها القرآن الكريم من الجمع بين العقابين الدنيوي والأخروي.

(ولم أحترس فيه من تزيين عدوي فغرني بما أهوى).

إحترس: أي تحفظ. من حرسه أي حفظه، والمعنى إنني لم أتحفظ في المخالفات مما زينه لي عدوي، وهو الشيطان حيث حبب لي الفواحش، وارتكاب المحرمات، فهو قد حسن ذلك في نظري فأقدمت عليه منقاداً لشهواتي النفسية فكانت الشهوات هي: النافذة التي أطل منها العدو عليَّ ـ **فغرني بما أهوى** ـ. فكنت مخدوعاً من قبله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [1].

---

(١) سورة البقرة: الآية، ١٦٨.

(وأسعده على ذلك القضاء).

أسعد على الشيء وأسعده عليه أعانه والنائحة الثكلى أعانتها على البكاء [1].

وتأتي هذه الفقرة مكملة لما سبق من الفقرات الماضية من اعتذار الداعي بأن مخالفاته، إنما كانت تبعاً لتسلط الهوى عليه، وعدم احتراسه، وتحفظه من عدوه الذي كان سبباً في تزيين هذه المخالفات في نظره، وزاد على ذلك، وأعان عليه القضاء الذي لا طاقة له على رده.

وإلى هنا ينتهي الشرح الاجمالي لهذه الفقرة، وقبل أن ننتقل إلى الفقرة التالية. نجد السؤال الآتي يفرض نفسه علينا وهو:

إن الذي يظهر في قوله (عليه السلام) «**وأسعده على ذلك القضاء**» أن القضاء كان له الدخل في الاشتراك مع بقية العوامل التي كانت السبب في صدور هذه الذنوب. فما هو هذا القضاء؟ وكيف يكون الداعي واقعاً تحت تأثيره بحيث لم يتمكن من مخالفته كما يقال: ـ أصبت بكذا ـ لأن ذلك كان بقدرٍ، وقضاء علي؟

وقد جرت بمثل ذلك محاورة بين الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وبين سائل تصدى للسؤال منه بعد انصرافه من الشام. (قال له: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرنا إلى الشام أبقضاء من الله، وقدر؟ فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): أجل يا شيخ ما علوتم تلعه، ولا هبطتم بطن واد إلاّ بقضاء من الله، وقدر. فقال له الشيخ عند الله احتسب عنائي يا أمير المؤمنين؟

فقال له: مه يا شيخ، فوالله لقد عظم الأجر في مسيركم وأنتم سائرون...) [2].

أما جواب الإمام (عليه السلام) إلى السائل فنرجئه إلى ما سيأتي بعد بياننا لمعنى القضاء والقدر، ليتضح لنا أن هذا السؤال قد طرح من قبل، وإن الإنسان إذا كان عرضة للقضاء والقدر، فكيف يثاب؟ وعلى أي شيء يعاقب، وهذه هي شبهة المجبرة الذين

---

(١) ابن منظور: لسان العرب/ مادة (سعر).

(٢) الشيخ الكليني: الكافي/ باب الجبر والقدر، والأمر بين الأمرين، من كتاب التوحيد حديث ١.

يقولون: أن العباد مجبورون على أفعالهم، وليس لإرادتهم في تلك الأعمال أي تأثير.

إذاً، فلابد من البحث عن معنى القضاء والقدر.

القضاء:

قلما يستعمل لفظ القضاء، وبمفرده، وعلى ألسن الناس، بل نرى دائماً إذا جيء بلفظ القضاء أردف معه بلفظ القدر، فيقال: القضاء والقدر. حتى أن الكثير يتخيل أن هاتين الكلمتين وضعتا لمعنى واحد، والعطف بينهما إنما جيء به للتوضيح، وإلاّ فالقضاء هو القدر كما أن القدر ليس إلاّ القضاء، ولكنه تخيل خاطئ للفرق بين هذين المصطلحين.

فالقضاء في اللغة هو: الحكم، وقال الأزهري:

القضاء في اللغة على وجوه: مرجعها إلى انقطاع الشيء، وتمامه وكلما أحكم عمله، أو أتم، أو ختم، أو أدى أداءً، أو أوجب، أو علم، أو انفذ، أو أمضى فقد قضي[1].

أما في القرآن الكريم فقد جاءت آيات عديدة تقول:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[2].

ويقول المفسرون أن كلمة ـ قضى ـ في هذه الآية يراد بها الأمر أي: وأمر ربك.

وفي قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾[3].

جاءت هذه الكلمة ـ فَقَضَىٰهُنَّ ـ بمعنى الخلق أي: فخلقهن سبع سماوات. الخ.

أما في قوله تعالى: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾[4].

فإنها جاءت بمعنى الحكم أي: فاحكم بما تحكم به.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب/ مادة (قضى).

(٢) سورة الاسراء: الآية، ٢٣.

(٣) سورة فصلت: الآية، ١٢.

(٤) سورة طه: الآية، ٧٢.

وفي قوله تعالى: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[1].

فقد استعملت ـ قُضِيَ ـ بمعنى الفراغ. أي فرغ من ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2].

وأريد بقوله ـ قَضَىٰٓ ـ الإرادة أي إذا أراد أمراً.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾[3].

ومعناها: إذ عهدنا إلى موسى[4].

وبعد استعراضنا لهذه الآيات الكريمة لم نجد بينها، وبين المعنى اللغوي فارقاً، فإن هذه المادة في كل هذه الآيات المذكورة أريد منها:

النهاية، والحسن، والإنجاز، وهذا يلتقي تماماً مع المعنى اللغوي الذي فسر الكلمة: بانقطاع الشيء، وتمامه.

القدر:

وأما القدر: فإن كثيراً من اللغويين يقولون أنه: القضاء، والحكم.

أما ابن منظور فقد قال: قدر. القدير، والقادر من صفات الله عزّ وجل يكونان من القدرة، ويكونا من التقدير[5].

ويرى كثير من المفسرين أن ليلة القدر في الآية الكريمة:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[6].

---

(١) سورة يوسف: الآية، ٤١.

(٢) سورة آل عمران: الآية، ٤٧.

(٣) سورة القصص: الآية، ٤٤.

(٤) لاحظ لهذا المعنى القرطبي في تفسيره: ١٠، ٢٣٧.

(٥) ابن منظور: لسان العرب/ مادة (قدر).

(٦) سورة القدر: الآية، ١.

هي ليلة تدبير الأمور، وتقسيم الأرزاق في تلك السنة.

وهكذا الحال في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [١].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [٢].

ومن مجموع هذه الآيات، وكلمات اللغويين بالإمكان أن نخلص إلى النتيجة التالية، حيث نقول:

إن القدر كما يستعمل في القدرة على الشيء، وإحكامه كذلك يستعمل في تقدير الشيء، وتدبيره، ووضعه بموضعه.

ولكن الذي يلوح لنا أن كلمة القدر عندما تأتي مع القضاء في الاستعمال الخارجي يراد منها المعنى الثاني، والذي هو التدبير والتقدير، ووضع الشيء موضعه كما سيتضح لنا ذلك من ثنايا البحث.

بين القضاء والقدر:

وبين القضاء، والقدر تقدم وتأخر في المرحلة. فالقضاء متأخر عن القدر. إذ القضاء لا يكون إلاّ بعد حصول القدر، والذي هو التدبير، والترتيب، ويظهر ذلك جلياً من الآيات، والأحاديث الآتية: يقول تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [٣].

وفي محاورة جرت بين يونس بن عبد الرحمن، وبين الإمام الرضا (عليه السلام) جاء في آخرها قول الإمام (عليه السلام) ليونس: «... فتعلم ما القدر؟ قلت: لا. قال (عليه السلام): هي الهندسة، ووضع الحدود من البقاء، والفناء. قال ثم قال (عليه السلام): والقضاء: هو الابرام، وإقامة العين» [٤].

وفي خبر آخر يسأل الراوي الإمام قائلاً: قلت: ما معنى القدر؟ قال (عليه السلام):

---

(١) سورة القمر: الآية، ٤٩.

(٢) سورة فصلت: الآية، ١٠.

(٣) سورة القمر: الآية، ٤٩.

(٤) الشيخ الكليني: الكافي/ باب السعادة والشقاء من كتاب التوحيد، حديث ٤١.

تقدير الشيء من طوله، وعرضه. قلت: ما معنى قضى؟ قال (عليه السلام): إذا قضى أمضاه فذلك الذي لا مرد له[1].

من هذا يتضح لنا أن مرحلة القدر هي: مرحلة التدبير، والترتيب. إذ كل شيء في هذا الوجود مرتب، ومقدر، وله نظامه الخاص، نظام هندسي دقيق يقدر الشيء فيه بعرضه وطوله.

كل شيء بما تشتمل عليه كلمة ـ شَيْءٍ ـ من صغير، وكبير، ومرئي، وغير مرئي ناطقٍ، وصامت متحركٍ، وساكن كل ذلك بنص الآية الكريمة:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾.

قدر يحدد حقيقته، وصفته، ومقداره، وزمانه، ومكانه، وتفاعله وتأثيره، وتأثره من غير فرقٍ بين الذرات الصغيرة، والأجرام الكبيرة. فالقضية لا تتبع الحجم، بل تتبع النظام التركيبي، والنظام التسبيبي المنتج لما يترتب على الأسباب من مسببات.

فالقدر: هو هذه الأوليات التي قدر الله لها أن تسير على ذلك النظام الخاص ـ وعلى سبيل المثال ـ فعملية الزرع نراها تأخذ مجراها الطبيعي لو حقق لتلك العملية أن تستكمل الشروط الخاصة من سقي الأرض، وبذر البذر، وكون الأرض صالحة للزراعة، وتكون النتائج المترتبة على ذلك هي:

خروج الزرع في الوقت المحدد له. أما لو قدر، ولم يحصل أحد هذه المقدمات والشروط المذكورة، فإن النتاج لا يحصل، أو يحصل، ولكنه ليس بالشكل الذي يكون عليه لو قدر للشروط أن تحصل كاملة.

وهكذا بقية الأمور التي قدر لها أن توجد في هذا الكون، وفي كل آنٍ من آنات الزمن للحيوان، والنبات، وغيرهما مما في هذا الوجود.

كل ذلك بالإمكان أن نطلق عليه ـ تبعاً لما تفيده الآية الكريمة، والأخبار الشريفة ـ كلمة: قدر.

---

(١) المصدر المتقدم: باب المشيئة والإرادة، حديث ١.

وبعد هذه المرحلة تأتي مرحلة القضاء، فكل ما ينتج من عالم الأوليات والأسباب فهو ـ القضاء ـ فإذا قيل: القضاء حتم، فهو من باب أن المسبب لابد من حصوله عند حصول السبب، مع عدم المانع من التأثير، وفي مثالنا السابق فإن الأرض الخالية من الشوائب إذا ألقي فيها البذر، وسقيت كان خروج الزرع فيها حتماً لأن حكمة الله اقتضت هذه النتيجة بعد إجراء تلك المقدمات.

إذاً، القضاء ليس هو إجبار الله لخلقه، أو لكل شيء على حصول النتائج، بل هو الحتمية على ما قدّر للشيء من تقدير فهو ترتيب حتمي لما يحصل من وجوه الأوليات، وتفاعلها.

وحينئذٍ، فبيد العبد أن يدفع القضاء، ويقف في طريقه لأن الأوليات بيده، وهي مقدوره له من حيث الوجود، والعدم.

يقول الإمام الرضا (عليه السلام) لسائله: (ما من فعل يفعله العباد من خير وشر إلاّ ولله فيه قضاء. قلت: فما معنى هذا القضاء؟ قال: الحكم عليهم بما يستحقونه على أفعالهم من الثواب، والعقاب في الدنيا، والآخرة) [١].

إن الله بعد أن بيّن للناس خيرهم، وشرهم قضى، بأن من سلك طريق الخير نال الثواب، أما من يسلك طريق الشر كان جزاؤه العقاب. وحينئذٍ، فالأمر بيد الإنسان نفسه ما دامت الأوليات تحت اختياره فبإمكانه أن يبذر ما ينتج العقاب، أو يزرع ما يحصد منه الثواب.

يقول الأصبغ بن نباته: (إن أمير المؤمنين (عليه السلام) عدل من عند حائط مائلٍ إلى حائط آخر. فقيل له: يا أمير المؤمنين تفر من قضاء الله؟ قال: أفر من قضاء الله إلى قدر الله عزّ وجل) [٢].

إن هذه المحاورة تجسد لنا عملية القضاء، والقدر كاملة.

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار/ ٥، ١٢، حديث ١٨، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان

(٢) المصدر المتقدم: ٤١، ٢، حديث ٣.

ذلك لأن الإمام (عليه السلام) كغيره من البشر يعلم أن من جلس عند حائط مائلٍ للانهدام، فإنه لو وقع عليه لكان ذلك باختياره فهو إذاً: مخير بين أن يبقى في مكانه ليكون عرضة للانهدام عليه أو ينتقل إلى حائط آخر، فيسلم من كل ذلك، ولهذا نرى الإمام (عليه السلام) يقول: أفر من قضاء الله إلى قدر الله.

وقد مر بنا أن ذكرنا طرفاً من المحاورة بين السائل وبين الإمام (عليه السلام) عند عودتهم من الشام حيث قال السائل: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن خروجنا إلى الشام بقضاء، وقدر قال (عليه السلام):

نعم: يا شيخ، ما علوتم تلعة، ولا هبطتم وادياً إلاّ بقضاء، وقدر من الله فقال الشيخ: عند الله احتسب عنائي يا أمير المؤمنين.

إن هذا الجواب من السائل معناه القول: بفكرة المجبرة حيث يقولون بنفي الثواب، والعقاب عن الإنسان لأن كل أعماله بقضاء من الله، وقدر فهو مجبور عليها، ولذا كان جواب الإمام (عليه السلام) له ناظراً إلى نفي هذه الشبهة، وإثبات أن الإنسان مختار، وحر في تصرفاته، وإذا صدر منه الذنب، أو ما يضر بنفسه فإنما ذلك بسوء تصرفه، وإن كانت تلك النتائج حتمية الوقوع لحصول الأوليات بسببه. لذا أجاب الإمام(عليه السلام) ذلك الشيخ قائلاً: (مه يا شيخ فإن الله قد عظم أجركم في مسيركم، وأنتم سائرون، وفي مقامكم وأنتم مقيمون، وفي إنصرافكم، وأنتم منصرفون ولم تكونوا في شيء من أموركم مكرهين، ولا إليه مضطرين. لعلك ظننت أنه قضاء حتم، وقدر لازم لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب، والعقاب، ولسقط الوعد، والوعيد) [١].

ومن خلال هذا الجواب حيث يقول (عليه السلام): «ولم تكونوا في شيء من أموركم مكرهين ولا إليه مضطرين». تتضح لنا نقطة حساسة بها تنحل مشكلة الإجبار على الفعل، وتلك هي ما يتوسط بين مرحلتي التقدير، القضاء من وجود إرادة الإنسان،

---

(١) ابن شعبة الحراني: تحف العقول/ ٤٦٨.

واختياره فإن ذهاب هؤلاء، ومن ضمنهم السائل المذكور حيث كان باختيارهم وإرادتهم كان الأجر، والثواب محفوظين لهم، ولم يكونوا مكرهين على سفرهم ذلك، ولا مضطرين إليه فلم يكن في البين إجبار على سفرهم ليسقط الوعد، والوعيد، وليبطل ثوابهم.

إن هذه الحرية، والإختيار التي مَنَّ الله بها على العباد هي التي عبر عنها الإمام الصادق (عليه السلام): بالأمر بين الأمرين.

حيث جاء ذلك في حديث قال فيه: (لا جبر، ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين)[1].

فأفعالنا من جهة كون أسبابها الطبيعية بأيدينا فهي إذاً تحت قدرتنا، واختيارنا وهو تعالى لم يجبرنا عليها ليقال: بأنه عزّ وجل ظلمنا في عقابه لنا عليها ـ وفي نفس الوقت ـ لم يترك المجال كلية لنا بحيث يكون هو أجنبياً عنها ليكون مسلوب القدرة إزاءها، بل هي أفعالنا، ولله الكلمة الفصل فيها ـ وعلى سبيل التوضيح ـ نقول: أنا لو وجدنا السبب بأنفسنا، وكنا عالمين بأنه يحصل المسبب بعد حدوثه فهنا لو لم يتدخل الله ليمنع تأثير ذلك السبب وتوقيفه فإنه بعدم تدخله لم يكن قد ظلمنا، وصحيح أنه تعالى كان بإمكانه أن يقف في طريق تأثير السبب، إلاّ أنه حيث لم يتدخل لم يكن ذلك ـ كما قلنا ـ ظلم منه في حقنا لأننا نحن الذين أوجدنا السبب، وعلمنا بأن المسبب محقق الحدوث بعد حصول سببه فالعقاب نستحقه بدون حيف.

يقول الإمام الرضا (عليه السلام): «ما من فعل يفعله العباد من خير وشر إلاّ ولله فيه قضاء. قلت: فما معنى هذا القضاء؟ قال: الحكم عليهم بما يستحقونه على أفعالهم من الثواب، والعقاب في الدنيا، والآخرة»[2].

فالقضاء كما أوضحه الإمام في كلامه هذا هو الحكم المترتب على أفعالهم فإن اختاروا الخير كان القضاء هو الحكم لهم بالثواب، وإن كان ما اختاروه شراً كان

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي: باب الجبر، والقدر، والأمر بين الأمرين، حديث ١٣.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار/ ٣، ٥.

القضاء هو الحكم عليهم بالعقاب.

الأمور التي تدفع القضاء:

عرفت أن القضاء بعد حصول الأسباب لابد من تحققه تحقيقاً لحصول المسبب بعد وجود السبب، ولكن هل يرد القضاء شيء وهل في البين ما يبطل تأثير ذلك السبب بعد حصوله لو استثنينا إرادة الله، ومسيئته فإن الله إذا أراد شيئاً فلا يقف في طريق إرادته شيء، فإن الكلام في غير مشيئة الله، وإرادته من العوامل الخارجية؟

وفي مقام الجواب عن هذا السؤال نقول:

نعم: ترد القضاء، ولو كان مبرماً العوامل الآتية:

١ـ الصدقة:

وقد جاء في فضلها (أنها تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار) [١].

وقال (ﷺ): (أن الله لا إله إلاّ هو ليدفع بالصدقة الداء، والدبيلة والحرق، والغرق، والهدم، والجنون، وعد سبعين باباً من الشر) [٢].

وهكذا تتوالى الأخبار الكريمة، وقد ذخرت بها كتب الأحاديث من جميع المذاهب، وهي تعظم الصدقة، وتنوه بأنها تدفع البلاء والقضاء، وكلما يحل بالإنسان من سوء.

٢ـ الدعاء:

ومثل الصدقات يأتي الدعاء في صلاحيته لرد البلاء، والقضاء. فعن بسطام الزيات عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (أن الدعاء يرد القضاء، وقد نزل من السماء، وقد أبرم إبراماً) [٣]، وفي حديث آخر عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال: قال علي بن الحسين(عليهما السلام): إن الدعاء، والبلاء ليترافعان ـ أو يتواقفان ـ إلى يوم القيامة. إن

---

(١) النراقي: جامع السعادات/ ٢، ١٤٥.

(٢) جامع السعادات/ ٢، ١٤٥.

(٣) الشيخ الكليني: الكافي/ باب الدعاء يرد البلاد، والقضاء، حديث ٣.

الدعاء ليرد البلاء، وقد أبرم إبراماً [١].

الترافق، والتوافق واحد والمعنى: أن الدعاء يبقى سائراً مع البلاء، وموقفاً لتأثيره إلى يوم القيامة، وعندها فلا فائدة في القضاء حينئذٍ.

وهناك عوامل أخرى تكون موجبة لرد القضاء، ودفع البلاء كإطعام الضيف، وقضاء حوائج الناس، وإغاثه الملهوف، وصلة الرحم، وغير ذلك، ولا مجال لنا للتوسع في بيانها تحرزاً من الإطالة والخروج عن الصدد.

عود على بدء:

ولنعد بعد مسيرتنا هذه مع القضاء، والقدر إلى الفقرة التي وصلنا إليها من الدعاء من قول الإمام (عليه السلام): «وأسعده على ذلك القضاء».

فقد اتضح لنا أن إعانة القضاء على صدور الذنوب من الداعي لم يكن ظلماً من الله لذلك الداعي بل لأن الداعي بعد أن هداه الله النجدين نجد الخير، ونجد الشر كما جاء في الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [٢].

وعلم أن اقتراف هذه الذنوب نتيجته الحتمية للوقوع في هٰذا العقاب لأن القضاء إبرام ذلك التقدير، ومع ذلك فقد أقدم، وأذنب، ولهذا كان القضاء قد فرض العقاب من دون تأخير، وإذاً فلا يلومن إلاّ نفسه، لأن من أنذر فقد أعذر، والإنذار صدر من الأنبياء والمرسلين حتى قال النبي (صلى الله عليه وآله) في حجة الوداع:

«يا أيها الناس اتقوا الله، ما من شيء يقربكم من الجنة، ويباعدكم من النار إلاّ وقد أمرتكم به، وما من شيء يقربكم من النار، ويباعدكم من الجنة إلا وقد نهيتكم عنه، وأمرتكم به» [٣].

(فتجاوزت بما جرى عليّ من ذلك بعض حدودك وخالفت بعض أوامرك).

---

(١) المصدر السابق: الموضع نفسه، حديث ٤.

(٢) سورة البلد: الآية، ١٠.

(٣) أحمد بن محمد بن خالد البرقي: المحاسن/ ١، ٢٧٨، دار الكتب الإسلامية، طهران.

البعض من الشيء، أو بعض كل شيء هو الجزء منه، أو الطائفة منه ويجوز كونه أعظم من بقيته كالثمانية من العشرة.

أما الحد: فهو الحاجز بين الشيئين، ومنتهى الشيء.

وحدود الله: طاعته، وأحكامه الشرعية لمنعها من التخطي إلى ما وراءها ومنه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١).

أما في المصطلح الشرعي، فقد يراد من الحدود الشرعية: الحدود المقررة عند المخالفات كقطع يد السارق، وكحد الزنى، وحد اللواط، وحد القذف.

وقد يراد من الحدود الشرعية الأحكام الشرعية من الأوامر، والنواهي. كما قد يراد من الحدود الشرعية: (كل حكم شرعي من الأحكام الخمسة، والتي هي الأوامر، والنواهي، والمستحبات، والمكروهات، والمباحات). ويسمى الجميع حداً لأن الأحكام الشرعية كالحدود، والحواجز المضروبة للمكلفين أخذ عليهم أن لا يتعدوها، ويتجاوزوها.

ولقد أبقى الدعاء الباب مفتوحاً للداعي في التعبير عن مقدار المخالفات التي صدرت منه، ويريد طلب العفو عنها بلفظ ـ البعض ـ الذي يطلق ـ كما عرفت ـ من كلام اللغويين: على الجزء وعلى الطائفة وعلى الأغلب.

ونبقى نحن، وهذا التكرار لهذه المخالفة لبعض الأوامر بعد بيان مخالفة بعض الحدود حيث كان بإمكان الدعاء أن يكتفي بالفقرة الأولى لاحتواء مضمونها على ما تحتوي عليه الفقرة الثانية فالحدود تدخل فيها الأوامر.

وربما يعتذر عن ذلك: بأن التكرار إنما هو لعظم المخالفة لتلك الأوامر كترك الصلاة ـ مثلاً ـ والتي جاء فيها: (فإن قبلت قبل ما سواها، وإن ردت رد ما سواها)(٢).

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٢٩. الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (بعض، وحد).

(٢) الشيخ الصدوق: الأمالي/ ٧٣٩، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة.

وهكذا ما كان في عظم شأنه مثل الصلاة، ولهذا خصها الدعاء بالتكرار.

(فلك الحمد ـ فلك الحجة ـ عليَّ في جميع ذلك، ولا حجة لي فيما جرى عليَّ فيه قضاؤك).

اختلفت نسخ الدعاء في هذه الفقرة ففي البعض منها جاء: (فلك الحمد عليَّ) وفي البعض الآخر: (فلك الحجة عليَّ).

أما المعنى على القراءة الأولى فهو: إن الداعي بعد أن أخذ في تعداد ما صدر منه، وأن صدور تلك المخالفات كان تبعاً لهوى نفسه، وعدم تحفظه من تزيين عدوه له أكمل دعاءه بالاعتراف بأن لربه الحمد في جميع ذلك لأن الله كان قادراً لأن يقابله إزاء هذه الذنوب، والجرائم التي صدرت منه بتعجيل العقاب في الدنيا قبل الآخرة، وأن يفضحه بين الناس، ولكنه مع كل ذلك فقد عرف، وستر عليه.

لذلك لم يجد الداعي إلاّ أن يعترف بأن لربه الحمد على نعمه المتواصلة، ويكون قوله بعد هذه الفقرة (ولا حجة لي فيما جرى عليَّ فيه قضاؤك). يعطي معنى آخر يبدأ به الداعي ليقول: إنني فيما أجريته عليَّ من القضاء لا حجة لي لتكون كلمتي مقدمة في مقام الدفاع عن نفسي، بل أنا المغلوب في كل ذلك لأنني المخدوع من قبل الدنيا، والشيطان لاتباعي، وميولي لشهواتي النفسية، وحينئذٍ فلا يكون ترابط بين هاتين الفقرتين «فلك الحمد عليَّ» و ـ لا حجة لي ـ الخ.

وأما على القراءة الثانية: فيكون المعنى: أن الداعي بعدما بين كل ذلك التجأ إلى ربه ليقول: إلهي إن لك الحجة عليَّ في كل ذلك، لأن المراد بالحجة ـ الدليل، والبرهان ـ ويكون ذلك من صغيرات الآية الكريمة والله ولي الذين آمنوا:

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[1].

بل إنما: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[2].

---

(١) سورة النساء: الآية، ١٦٥.

(٢) سورة الأنعام: الآية، ١٤٩.

لقد سلح الله البشر بالعقل، وأرسل إليهم الأنبياء، والرسل مبشرين ومنذرين. فلم يدعوا حكماً إلاّ بينوه جزئياً، أو كلياً، وبكل ما يتعلق بالإنسان، ومن جميع نواحيه العبادية، والمعاملية، وهكذا كل ما يتعلق بالأمور الأخروية، رحمة منه على العباد: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1]. ظلمات الجهل، وظلمات الظلم، والتكبر، والطغيان، وظلمات الجشع، والنهب، وظلمات أُخرى تحيط بالإنسان من كل جوانبه.

بعد كل هذا: فإن لله الحجة البالغة على البشر، ولا حجة لهم على الله في كل ذلك.

ومع هاتين القراءتين، (فلك الحمد) أو (فلك الحجة) نرجح أن تكون الثانية هي الأنسب بالسياق الدعائي حيث يكون الداعي قد سلم أمره إلى الله معترفاً بأن له الحجة عليه، ولا حجة له على ربه.

١٢ـ (وَقَد أَتَيْتُك يا إِلهي بَعْدَ تَقْصيري، وَإِسْرافي عَلى نَفْسي مُعْتَذِراً، نادِماً، مُنْكَسِراً، مُسْتقيلاً، مُسْتَغْفِراً، مُنيباً، مُقِرّاً، مُذْعِناً، مُعْتَرِفاً، لا أَجِدُ مَفَرّاً مِمّا كانَ مِنّي، وَلا مَفْزَعاً أَتوَجَّهُ إِلَيْهِ في أَمْري، غَيْرَ قَبُولِك عُذْري، وإِدْخالِك إِيّايَ فِي سَعَةٍ منْ رَحْمَتِك).

وبدأ الداعي يلقي بكل ثقله ميمماً رحاب الله، ومتجهاً إليه بعد أن وجد نفسه مغلوباً، وقد أغلقت الأبواب في وجهه صفر اليدين من كل حجة يستند عليها، ويبرر من مواقفه التي خالف بها ربه والحجة في كل ذلك لله عليه.

أي ربِ فإلى من يلجأ المذنبون، وليس لهم غير رحمتك رحاباً يتذوقون فيه طعم عفوك، ويتفيئون به ظلال غفرانك.

ويلملم الداعي مرة أخرى أطرافه، ويحث الخطى مسرعاً، وبوارق الأمل تلوح له ويرمق السماء بطرف كسير وهو يردد:

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٥٧.

(وقد أتيتك يا إلهي بعد تقصيري وإسرافي على نفسي).

ويقول أهل اللغة: أن المقصر هو الذي يقدر على الأمر، ولكن يقف عنده، أو ينتهي إليه [١].

وكلمة التقصير تبين معناها واضحة عند كل أحد فلا داعي إلى التعمق فيما يقوله اللغويون في تفسيرها.

وبهذه الفقرة نرى الدعاء يوجه الداعي إلى الاعتراف بالتقصير دائماً إزاء حقوق الله، وواجباته. فعن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام)، وهو ينصح بعض ولده قائلاً: (يا بني عليك بالجد لا تخرجن نفسك من حد التقصير في عبادة الله عزّ وجل، وطاعته فإن الله لا يعبد حق عبادته) [٢].

ويريد الإمام (عليه السلام) أن يقول لولده: بأن الشعور بالتقصير يجعل الإنسان منشدّاً دائماً إلى خالقه لا يغفل، ولا يتوانى عن أداء واجباته، وترك ما نهي عنه، وبهذا تكون نفسه في دوامة من العمل نحو تكميل ما تجد لديها من نقص، ومثل هذا الشخص يكون الأداة الصالحة لبناء مجتمع خيّرٍ بعيداً عن الغرور والإجرام، يأمن منه كل أحد، ويسلم منه الناس، وهذه إحدى العلامات التي تميز الفرد المسلم من غيره، فالمسلم من سلم الناس من يده ولسانه.

وبعد التقصير يأتي الاعتراف من الداعي: بالإسراف على نفسه، وعدم التورع عن محارم الله، بل السير حثيثاً في هذا المنطلق حتى رأى من نفسه التجاوز، وعدم الإعتدال، ولذلك جاء ربه، وقد عرف خطأه وبعد الاعتراف بالإسراف يأتي دور الاعتذار كنتيجة طبيعية فيردد الداعي: الهي، وقد أتيتك:

(معتذراً):

وإذا كان الشاعر يقول: «والعذر عند كرام الناس مقبول».

---

(١) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (قصر).

(٢) الشيخ الكليني: الكافي/ باب الاعتراف بالتقصير من كتاب الإيمان والكفر، حديث ١.

فكيف بالرب الكريم العطوف على عباده، فهل يتركهم يصدون عنه، وهم يجرون أذيال الخيبة، والحرمان.

كلا، وألف كلا، لأن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) حدث عن النبي (صلى الله عليه وآله) إنه قال: (إن الله كريم بيده الخيرات يستحي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن الظن به، ثم يخلف ظنه، ورجاءه) [١].

وبعد الاعتذار فقد أتيتك يا رب:

(نادماً):

والندم كما يقول اللغويون، هو: الأسف، والحزن، والتوبة، وها هو الداعي يظهر الندامة تائباً يؤكد أنه لا يعود إنساناً يتقمص الشر متبعاً شهواته الجنسية، بل سيكون بالمستوى اللائق به كإنسان جاء إلى ربه معتذراً نادماً على ما صدر منه ولم يكتف الداعي بذلك، بل خاطب ربه متضرعاً بأنه عاد إلى حضيرته.

(منكسراً):

علامة الخضوع، والذلة. وهذا التعبير في الداعي يعطي أنه غير متطاول، ولا شامخ، بل هو في غاية الخشوع جاء ليستميح من ربه العطف، ويستدر منه الغفران، ولهذا نجد الحديث القدسي، يقول: «أنا عند القلوب المنكسرة».

تلك القلوب التي تطامنت فخرج ما فيها من خيلاء وكبر، لذلك شعرت بأنها ضعيفة أمام خالقها، فجاءت إليه منكسرة لأنها علمت: أن الله لا يحب كل ختال فخور.

ويقول الإمام أبو عبد الله (عليه السلام) (قال: فيما أوحى الله عزّ وجل إلى داود (عليه السلام) يا داود كما أن أقرب الناس من الله المتواضعون كذلك أبعد الناس من الله المتكبرون) [٢].

كل هذا، وغيره حداً بالداعي أن يترك غروره، ويأتي ذليلاً ليجد ربه عنده. شأنه

---

(١) المصدر المتقدم: باب حسن الظن بالله (عزّ وجلّ)، حديث ٢.

(٢) الشيخ الكليني: الكافي/ باب التواضع، حديث ١١.

في ذلك شأن كل قلب منكسر يكون الله عنده، ومع الانكسار يردد الداعي: يا رب جئتك:

(مستقيلاً):

والاستقالة: طلب الإقالة. أما الإقالة فهي: طلب أحد المتبايعين الفسخ من صاحبه، وتطلق الاستقالة، ويراد بها أن يرفعه من سقوطه، ومن عثرته [١].

وهذا المعنى الثاني: هو الذي يطلبه الداعي من ربه فهو يريد منه عزّ وجل أن يرفعه من عثراته، وزلاته، وهو معنى يراد به أن لا يرتب المولى الآثار المترتبة على ما اقترفه من ذنب، وما صدر منه من منافيات كانت موجبة لسقوطه في المهاوي السحيقة، وسيأتي البيان والتوضيح في فقرات الدعاء الآتية من قوله: (واقلني عثرتي، واغفر زلتي). ويا رب مع طلب الاستقالة جئتك:

(منيباً):

والإنابة: هي الرجوع، والعودة إلى الشيء مرة بعد أخرى يقال: نابت السباع إلى المنهل والنحل تنوب إلى الخلايا، وإلى الله بمعنى: تاب، وفلان لزم الطاعة لله [٢].

والإنابة هنا هي العودة إلى الله في كل الأمور لا في البعض دون البعض، وإلاّ لما كان الداعي نائباً، ومخلصاً في اعترافه، وإعتذاره بأنه عاد إلى حرم الله يلتمس منه الصفح، والتوبة.

فالعودة إلى الله معناها: العودة إلى الطريق المستقيم، ومراقبة الله في كل صغيرة، وكبيرة، وفي السر والعلانية، والشعور بأن الله مطلع عليه في كل الحركات والسكنات.

يقول إسحاق بن عمار: (قال أبو عبد الله(عليه السلام) يا إسحاق خف الله كأنك تراه، وإن كنت لا تراه، فإنه يراك، فإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم

---

(١) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (قيل).

(٢) المصدر المتقدم: مادة (نوب).

أنه يراك، ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين عليك)[١].

وأخيراً: يا إلهي لا آخراً فقد أتيتك يا رب:

(مقراً مذعناً معترفاً):

أما الإقرار: فهو إثبات الشيء.

والإذعان: هو الانقياد يقال: ناقة مذعان أي منقادة.

والاعتراف: هو الإقرار، وأصله إظهار معرفة الذنب، وذلك ضد الجحود[٢].

والداعي بهذه الفقرات يثبت على نفسه بأنه مذنب ويبين أن هذا الإقرار إنما يصدر عن إنقياده بتسجيل ذلك عليه لا بدافع من أحد، أو بإكراه من الغير عليه.

وحيث كان الإقرار هو الإثبات، إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بهما، فإن ذلك قد يكون هو المنطلق لما ذهب إليه البعض من القول:

بأن الإقرار: هو القول باللسان.

والإذعان: هو الاعتقاد بالجنان.

والإعتراف: هو الإقرار مع الإعتقاد[٣].

وعلى هذا يظهر لنا السبب في هذا الجمع بين الإقرار، والإعتراف والإذعان ليجعل الداعي من إقراره بذنوبه، وجرائمه إقراراً كاملاً لأنه يقف بين يدي ربٍ مطلع على جميع الخفايا، ولا يخفى عليه شيء: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ** ﴾[٤].

فلن يمكن إذاً ستر شيء عليه، ولا إخفاء نيةٍ عنه لاطلاعه على ما في الأرض

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ باب الخوف والرجاء من كتاب الإيمان والكفر، حديث ٢.

(٢) ابن منظور: لسان العرب. والراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن/ المواد التالية: (قر) (ذعن) (عرف).

(٣) القاضي السبزواري: شرح دعاء كميل/ ١٣٩.

(٤) سورة آل عمران: الآية، ٥.

والسماء، وما بينهما، وما فيهما، وهو بكل شيء عليم.

كل ذلك من صفاته تعالى، والعبد يناجي هذا الرب فكيف يخفي عليه شيئاً؟

(لا أجد مفراً مما كان مني ولا مفزعاً أتوجه إليه في أمري).

وهذه حقيقة لابد من الخضوع إليها والاعتراف بها تلك هي:

إن الداعي، وقد تصور نفسه محاطاً بذنوبه، وملزماً بها فهي تطوقه وتلتف عليه فلا يجد لنفسه مهرباً من تبعاتها، ولا ملجأ يلجأ إليه منها إلاّ أمل واحد فبه يتمكن من إنقاذ نفسه من الحساب العسير، وذلك هو:

(غير قبولك عذري).

وقد جعل الداعي قبول الله لعذره هو الملجأ، والمفزع إليه، وبذلك يحصل له الاطمئنان، والراحة النفسية.

(وإدخالك إياي في سعة من رحمتك).

وقد عطف الدعاء هذه الجملة على ما سبق من طلبه من قوله:

«قبولك عذري» فهو يريد من ربه أن يقبل عذره، وفوق ذلك أن يدخله بعد قبول عذره في سعة رحمته ليكون مشمولاً لألطافه، وعواطفه لا أن يقبل عذره فقط، ويتركه بعد ذلك هملاً، وقد تجاوز عنه فقط بل قد تجاوز عنه وشمله برحمته ليكون من المنظورين له عزّ وجل.

وبذلك تشمله الهداية، ويخصه بالتوفيق لمواصلة المسيرة في سبيله، والأخذ بأحكامه الشرعية على اختلافها.

١٣ : (اللَّهُمَّ فَاقْبَلْ عُذْري، وارْحَمْ شِدَّةَ ضُرِّي، وَفُكّني مِن شَدِّ وَثَاقي. يا رَبِّ أرْحَمْ ضَعْفَ بَدَني، وَرِقَّةَ جِلْدِي، وَدِقَّةَ عَظْمي. يا مَن بَدَأ خَلْقي، وَذِكري، وَتَربِيَتي، وَبِرّي، وَتَغْذِيَتي. هَبْني لابْتِداءِ كَرَمِكَ، وَسالِفِ بِرِّكَ بي.

يا إلهي، وَسَيِّدي، وَرَبّي أتُراكَ مُعَذِّبي بِنارِكَ بعدَ تَوْحيدِكَ، وَبَعْدَما انطَوى

عَليه قَلْبي مِن مَعْرِفَتِكَ، وَلَهِجَ بِهِ لِساني مِنْ ذِكْرِكَ، واعتَقَدهُ ضَميري مِن حُبِّكَ، وَبعْدَ صِدقِ اعْترافي ودُعائي خاضِعاً لرُبوبيَّتِك؟ هَيْهاتَ أَنْتَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ تُضيِّعَ مَنْ رَبَّيتَهُ، أو تُبْعِدَ مَنْ أَدْنَيتَهُ، أو تُشَرِّدَ مَنْ آويْتَهُ، أو تُسَلِّمَ إلى البَلاءِ مَنْ كَفَيْتَهُ، وَرَحِمْتَهُ، وَلَيتَ شِعري يَا سَيِّدي، وَإِلهي، وَمَوْلاي أَتُسَلِّطُ النَّارَ عَلى وُجُوهٍ خَرَّتْ لِعَظَمَتِكَ ساجِدَة، وَعلى أَلْسُنٍ نَطَقَت بِتَوحيدِكَ صادِقَةً وَبِشُكْرِكَ مَادِحَةً، وَعَلى قُلُوبٍ اعْتَرَفتْ بإلهيَّتكَ مُحَقِّقَةً، وَعَلى ضَمائِرَ حَوَتْ مِنَ العِلْم بكَ حَتّى صارَتْ خاشِعَةً، وَعلى جَوَارِحَ سَعَت إلى أوطانِ تَعَبُّدِكَ طائِعَةً، وأَشارَت باسْتِغْفارِك مُذْعِنَةً، ما هكَذا الظَنُّ بِكَ، وَلا أُخبِرنا بِفَضْلِك عَنْك يا كَريمُ).

قد يجد الإنسان نفسه وحيداً وسط أسلاك شائكة من الآلام الروحية، والمضايقات النفسية نتيجة قيامه بأعمال مخالفة لما تمليه عليه القوانين الشرعية، ونتيجة تصرفات لا تنسجم مع القوانين التي يتوخى من ورائها صلاح المجتمع.

وحيث يعجز الإنسان عن الوصول إلى حلٍ ينقذه من ذلك، يتجه إلى ربه ليستعطفه بكل الوسائل التي يأمل من ورائها أن يجلب رضاه.

وللإستعطاف صور عديدة يتفنن الإنسان في الإقدام عليها.

فمرة: نراه يقدم عليه بكل عزيز ممن له المكانة السامية عنده.

وأخرى: يتقرب إليه بالصدقات، والخيرات.

وثالثة: يتملق إليه باللسان، والالتماس يطلب منه الصفح أو العون.

ورابعة: يتقرب إليه بما يرغب فيه من التوبة، والعبادة.

وهكذا يبقى العبد المذنب يبحث عن الطرق التي يتوخى من ورائها العطف ليستدر الرحمة من ربه فيصل إلى غايته من التجاوز عنه.

والدعاء وإن سبق له أن عرض بعض الصور التي يستدر بها الداعي عطف المولى فيما سبق له من الفقرات في الفصول الماضية، إلاّ أنه في هذا الفصل الذي نقلناه

بكامله أخذ يوجه الداعي إلى سلوكية مسلك جديد، يتوخى من ورائه تحصيل غايته المنشودة من الوصول إلى روح الله، ورضوانه.

لقد تضمن هذا الفصل ثلاثة مقاطع من صور الاستعطاف، وخاتمة يبدأ:

المقطع الأول من قوله: (يا رب ارحم ضعف بدني).

ويتضمن هذا المقطع بيان حالات الداعي الجسمية، والنفسية لربه، وأن هذا المخلوق الضعيف لا يقوى على تحمل الجزاء المترتب على ما صدر منه من مخالفات كان رائده فيها هو الشيطان.

لذلك يطلب الرفق من ربه بهذا البدن المكون من لحم ودم وعظم، وعصب، وكلها مواد لا تقوى على التعذيب الدنيوي فضلاً عن التعذيب الأخروي.

وأما المقطع الثاني: فيبدأ من قوله: «يا من بدء خلقي، وذكري، وتربيتي... الخ».

وينحو الدعاء في فقرات هذا المقطع إلى جلب عطف الله من طريق استعراض أياديه الكريمة عليه، وأنه بدأ بالنعم، والفضل من أول مسيرته الحياتية فكيف يتركه بعد توسطه أمواج هذه الحياة العاتية لا يملك لنفسه أي نفع، ولا يدفع عنها أي ضرر، فهو يطالبه بإدامة ما عوده عليه من أيادي بيضاء.

أما المقطع الثالث: فيبدأ من قوله: «يا إلهي، وسيدي أتراك معذبي بنارك بعد توحيدك... إلى آخر الفصل».

وفي هذه الفقرات من المقطع الثالث يكون الاستعطاف قد أخذ شكلاً جديداً. فالداعي يستعطف ربه من طريق إجراء المعادلات الحسابية حيث يبدأ بالموازنة بين نواياه وعقائده التي انطوى عليها قلبه من توحيد الله، وعدم الشرك به، وما لهج به لسانه من ذكر الله، ومدحه، والثناء عليه، وغير هذا من تعظيم خالقه، وبين ذنوبه، وما قام به من أعمال لم تكن صدرت منه عن عناد، وسوء قصد، بل عن هوى النفس، وغرور يلازم طبيعة الإنسان، وعلى الأخص في مراحل الشباب، وعنفوان شهواته الجنسية.

وأخيراً، يستنتج من هذه المعادلة: أن الجانب المشرق يرجح على الجوانب المظلمة، وتكون الآثار المرتبة على من عبد الله، وخضع له مقدمة على تأثير تلك الأعمال القبيحة.

لقد نصّب الداعي من نفسه حكماً على نفسه، وأصدر الحكم لصالحه معتمداً على الصفات التي تحلى بها الله من العفو والكرم، واللطف، والحلم والشفقة، والتي جعلت منه كريماً يطمع كل شقي في كرمه، وغفرانه، ورعايته.

ومع المقاطع الثلاثة في هذا الفصل:

(اللهم فاقبل عذري وارحم شدة ضري وفكني من شد وثاقي).

والضر: هو: ضد النفع، وسوء الحال، والشدة [١].

وجاء في بعض المصادر اللغوية: إن الضر بالفتح شائع في كل ضرر، وبالضم خاص بما في النفس كمرض، وهزال [٢].

أما الوثاق: فهو ما يشد به من قيدٍ، أو حبل، أو نحوهما [٣].

ويصور الداعي في هذه الفقرات نفسه، وقد أوثقته الذنوب كالحبل الذي يشد الإنسان، لذلك يطلب بتوسله هذا من ربه أن يقبل عذره، ويرحم سوء حاله، ويخلصه من المشاكل التي جعلته مكتوفاً، وموثوقاً بها، فمنه يطلب العون، وإليه تمد الأيدي، وإلى ساحته تؤم قوافل المذنبين.

(يا رب ارحم ضعف بدني).

وبدأ الداعي يستعطف الخالق ليرحم ضعف بدنه هذا البدن الضعيف من أول تكوينه، ومن أول لحظة يبدأ فيها خلايا منوية تبدأ مسيرتها في صلب الرجل لتستقر في وعاء الرحم، ومن ثم يتدرج ليكون جنيناً، ويتطور ليخرج إلى عالم الوجود،

---

(١) الشرتوني: أقرب الموارد: مادة: ضرر، ووثق.

(٢) المصدر المتقدم: مادة: ضرر، ووثق.

(٣) المصدر السابق: مادة: ضرر، ووثق.

ويعيش فيقضي دور الطفولة، وهكذا ليطوي دور الشباب، بعد كل هذا يمر دور الشيخوخة، وهو في كل هذه المراحل، والأدوار ضعيف لا يقوى على شيء. يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾[1].

إن الآية الكريمة يدل منطوقها تقسيم مراحل الإنسان إلى ثلاثة:

ذكرت أنه **ضعيف في مرحلتين، وهما مبدأه، وشيخوخته.** ووصفته بالقوة في **المرحلة المتوسطة** بين المبدأ والشيخوخة، وهي: مرحلة الشباب، وعنفوان الصحة، وهيجان الغرائز الجنسية.

ولكنا ومع هذا الوصف القرآني بالإمكان أن نقول:

بأن الإنسان ضعيف في جميع أدواره، ومراحله حتى في فترة شبابه والتي أطلق القرآن عليها (صفة القوة)، وذلك لأن القوة في لسان الآية الكريمة هي القوة نظراً للمرحلتين: المبدأ، والمنتهى. فالإنسان بالنسبة إلى طفولته، وشيخوخته يختلف عن دور شبابه فإنه قوي في هذه الفترة، وفي كامل نشاطه إلاّ أنه: وهو في هذه الحالة ضعيف لا يقوى على الوقوف أمام الغرائز النفسية، والميول الشهوانية.

وهو في هذه المرحلة كبقية مراحل حياته عرضة للأمراض، والنكبات المؤلمة تدميه الشوكة، وتزعجه الذبابة، فهو ضعيف أمام كل هذا وغيره من العوارض. فهو إذاً ضعيف رغم جبروته، وتكبره.

ولا منافاة بين أن يكون هذا البدن ضعيفاً من هذه الجهات، ولكنه ـ في الوقت نفسه ـ متناسق الأعضاء، والأجزاء في كل أعصابه وخلاياه يسير بدقة متناهية من حيث التنظيم الجسمي. فإن التناسق، والإتقان، والدقة في الهيكل شيء، وضعف البنية الجسدية شيء آخر ـ وعلى سبيل المثال ـ فإنا نشاهد بعض الساعات الصغيرة الحجم منتظمة العمل دقيقة الضبط، ولكنها عرضة لكل طارئة، ولربما يؤثر الملقط

---

(١) سورة الروم: الآية، ٥٤.

الصغير على بعض أجزائها لو أراد المصلح أن يمسكه بقوة، ولا ينافي ذلك أن يقال: أنها ساعة قوية، ومتينة.

والداعي بتوسله إلى ربه أن يرحم ضعف بدنه ينظر إلى هذه الجهة من عدم قدرة بدنه في الوقوف أمام الأعراض، والأمراض والأزمات النفسية، وهو بعد كل هذا هيكل مركب من لحمٍ ودم وعظم، وكل هذه لا تتحمل الحرق بالنار نتيجة ما اقترفه الداعي من ذنب.

ولم يكتب الداعي من التوسل إلى ربه بضعف بدنه، بل عرض صفة أخرى من أجزائه الجسدية، والتي لا تقوى هي أيضاً أمام ما سيحل بها من عذاب متوقع بعد ارتكاب الذنوب، وقد عبر عنها بقوله:

(ورقة جلدي).

والجلد: أحد أعضاء الجسم العامة، وهو يؤدي عدداً من الوظائف الحيوية، فهو يقوم بدور الحاجز الواقي من الجراثيم، وهو بمثابة درعٍ يحمي الأنسجة الرقيقة الحساسة التي تقع تحته من الإصابات الميكانيكية، وغيرها، وهو يؤدي عمل العازل للحرارة، والبرودة، ويعين على طرح الفضلات من داخل الجسم إلى خارجه على شكل (عرق)، وهو يدرأ التعرض الزائد للأشعة فوق البنفسجية الشمسية، وذلك بما ينتجه من خضابٍ واقٍ، وهو بما يحويه من متلقيات الاحساس يتيح للجسم أن يحس بالألم، والبرد، والحرارة، واللمس، والضغط.

تركيب الجلد:

ويتركب الجلد من جزئين جوهريين، وهما:

١ـ البشرة، أو الطبقة الخارجية.

٢ـ الأدمة، أو الطبقة الداخلية.

أما البشرة: وهي أقل غلظة من الأدمة، وتتكون من بعض طبقات تختلف أنواع خلاياها.

أما عدد خلايا البشرة: فيختلف باختلاف مواضع الجسم، وهو على أعظم ما يكون في راحتي اليدين، وأخمس القدمين حيث يكون الجلد على أغلظه.

أما الأدمة: وتقع تحت البشرة، وهي الطبقة الثخينة من الجلد وتتكون من نسيج ضامٍ يحتوي على أوعية دموية، وأعصاب.

وللأدمة بروزات في داخل البشرة تتكون منها نتوءات تسمى (الحليمات)، وفي هذه الحليمات تنتهي الأعصاب التي تمتد خلال الأدمة، وعن طريق هذه الأعصاب يحدث الشعور بمختلف الإحساسات الجلدية مثل: اللمس، والألم، والضغط، والحرارة، والبرودة[١].

هذا الجلد المكون من أنسجة، وأوعية دموية، وهو مجموعة أعصاب رقيقة يحق للداعي أن يتوسل إلى ربه في عدم تعريضه للحرق بالنار، وللداعي الحق في أن يضج في التوسل إلى الله تعالى في أن يرحم رقة جلده بعدما رأى الله عزّ وجل يخبر عن مجازاة المذنبين في الآية الكريمة: ﴿**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ**ۗ﴾[٢].

كلما نضجت جلودهم... بدلناهم جلوداً غيرها، وهكذا تستمر عملية التعذيب تبعاً لعظم الذنب، وحجم الجريمة.

وهكذا وقبل أن ننتقل إلى الفقرة التالية يحسن بنا التطرق إلى مشكلة تبديل الجلد بعد نضجه حسبما جاء في منطوق الآية. **فما معنى تعذيب الجلد الجديد** مع أنه ليس هو الجلد الذي كان حين العصيان. إن هذا الجلد لم يكن موجوداً حين عصى البدن، وصدر منه الذنب فما ذنبه ليحترق، وليأتي غيره، ويحترق بعد احتراق هذا، وهكذا إذاً فلنستمع إلى محاورة جرت بين الإمام الصادق (عليه السلام) وابن أبي العوجاء في هذا الموضوع.

---

(١) لاحظ الموسوعة الطبية الحديثة: مادة جلد، ٥، ٦٦٤.

(٢) سورة النساء: الآية، ٥٦.

يقول حفص بن غياث القاضي: (كنت عند سيد الجعافرة جعفر بن محمد (عليهما السلام) لما قدمه المنصور، فأتاه ابن أبي العوجاء، وكان ملحداً فقال ما تقول في هذه الآية.

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾(١) هب هذه الجلود عصت فعذبت فما بال الغير؟ قال أبو عبد الله (عليه السلام): ويحك هي هي وهي غيرها، قال: اعقلني هذا القول، فقال له: أرأيت لو أن رجلاً عمد إلى لبنة، فكسرها ثم صب عليها الماء، وجبلها، ثم ردها إلى هيئتها الأولى ألم تكن هي هي، وهي غيرها، فقال بلى: أمتع الله بك(٢).

ويكمن جواب الإشكال في هذه العبارة: (هي هي، وهي غيرها) في وقت واحد.

ويتصدى الشيخ أبو جعفر الطوسي(رحمه الله) وهو من أكابر فقهاء الامامية المتقدمين لتفسير مثل هذه العبارة فيقول: (إن الله تعالى يجددها بأن يردها إلى الحالة التي كانت عليها غير محترقة كما يقال: جئتني بغير ذلك الوجه، وكذلك إذا جعل قميصه قباءً جاز أن يقال: جاء بغير ذلك اللباس، أو غيّر خاتمه، فصاغه خاتماً آخر جاز أن يقال: هذا غير ذلك الخاتم)(٣).

ولنأخذ مثال الخاتم، ونطبق عليه قول الإمام (عليه السلام).

فباعتبار المادة وهي الفضة ـ مثلاً ـ فهو هو، لعدم طرو مادة أخرى عليه، وهو غيره باعتبار اختلاف الصياغة، وكذلك الحال في الجلود، فإن وحدة المادة محفوظة بوحدة الصورة. (فبدن الإنسان كأجزاء بدنه باقٍ على وحدته مادام الإنسان هو الإنسان، وإن تغير البدن بأي تغيير حدث فيه)(٤).

---

(١) سورة النساء: الآية، ٥٦.

(٢) السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن/ ٤، ٣٨٥، منشورات جماعة المدرسين، قم المقدسة.

(٣) الشيخ الطوسي: التبيان في تفسير القرآن/ ٣، ٣٣٠، المطبعة العلمية في النجف الأشرف.

(٤) لاحظ السيد الطباطبائي: المصدر المتقدم.

وقد اختار هذا الوجه: الزجاج، والبلخي، وأبو علي الجبائي، وقال عنه الشيخ الطوسي: (أنه هو المعتمد)[١].

(ودقة عظمي).

والعظم: هو النسيج الصلب الذي يكون الجزء الأكبر من الهيكل البشري ويتكون الجهاز الهيكلي للإنسان: من مائتين وستة من العظام المستقلة يربط بعضها إلى بعض عند المفاصل (أربطة)، وتدفعها إلى الحركة (عضلات)، وتثبتها في العظام (أوتار).

تركيب العظم:

وليس العظم متجانساً في بنيانه، وتركيبه، بل يتكون من عدد من الطبقات من مواد مختلفة.

الطبقة الأولى: ويطلق عليها اسم (السمحاق)، وهو كما تعرفه الموسوعات الطبّية: غشاء ليفي ضامٍ يستر سطح العظم ما عدا نهايته، وينطبق عليه انطباقاً تاماً، وهو شديد الالتصاق، ويشتد التصاقه بالسطوح العظمية غير المنتظمة التي تكثر فيها التعرجات والنتوءات، والشوامخ، والقنازع.

والسمحاق غني بالأوعية الدموية، وفي طبقته العميقة خلايا نشيطة بإمكانها أن تولد المادة العظمية.

الطبقة الثانية: النسيج العظمي ويوجد فيه ما يلي:

أ ـ أقنية دقيقة: يختلف قطرها موازية لمحور العظم، ومتصلة فيما بينها، وتشتمل على ألياف عصبية رقيقة، وأوعية دموية تنفذ إليها من الثقب المغذية للعظم.

ب ـ المادة العظمية: وتتشكل من صفيحات عظمية ملتصقة على بعضها بصورة مختلفة، وفي وسط هذه الصفيحات الخلايا العظمية، وتسمى مصورات العظم، وهي خالية من الغشاء، ولها كثير من الاستطالات الهيولية تربط فيما بينها، وتفرز المواد

---

(١) الشيخ الطوسي: المصدر المتقدم.

الخلالية العظمية اللازمة لها من الدم.

ج ـ النسيج الاسفنجي: ويتشكل من حجب دقيقة عظمية تحدد أجوافاً منتظمة يملؤها النقي الأحمر (المخ الأحمر) خلاياه مشبعة بخضاب الدم (هيموغلوبين).

د ـ النسيج الغضروفي: ويستر رأس العظم، وهو نسيج أبيض لامع مرن يتشكل من خلايا مدورة كبيرة، وتسمى (مصورات الغضروف) تجتمع اثنان منها، أو أربع تحيط بها محفظة، وتظل أمداً طويلاً محتفظة بخاصة النمو، والانقسام، وتحدث مادة خلالية تتألف من (٢ ـ ٣٪) من مواد معدنية، ومادة أجنبية، وإذا ما غليت انقلبت إلى الجلاتين.

الطبقة الثالثة: النقي (مخ العظم).

ويوجد في وسط العظام الطويلة قناة يملأها (النقي) وهو مادة صفراء في جسم العظم.

ويتألف من شبكة ضامة رخوة فيها خلايا شحمية، وأوعية شعرية كبيرة، وخلايا حمر جديدة، وخلايا بيض مختلفة الأنواع، وفيها أيضاً خلايا كبيرة هي: خلايا النقي ذات نوى عديدة، ثم خلايا (لمفاوية) وهي تتلف المادة العظمية وتوسع القناة.

التركيب الكيمياوي للعظم:

والأساس الكيمياوي للعظم الذي يعطيه الصلابة، والقوة هو: (فوسفات الكالسيوم) حيث يشكل ٨٥٪، ويحتوي على فحمات (كاربونات الكلس) بنسبة ٩٪. وعلى (فوسفات المانيزا) بنسبة ٢٪. وعلى (فلور الكلس) بنسبة ٤٪.

تشكل العظام:

تبدو العظام في شكلها مخاطية، وتتشكل العظمة الواحدة من مجموعة من الخلايا الضامة، وهذه الخلايا تصبح خلاياً عظمية، وتكون العظم كما في العظام الغشائية كقبة الجمجمة والأضلاع، أو تصبح خلاياً غضروفية تصنع من الغضروف نموذجاً

للعظم، ثم تتلف هذا الغضروف بعد أن تلتهمه الخلايا الضامة وينقلب عظماً.

أنواع العظام:

للعظم نوعان رئيسيان هما:

١ـ العظام الطويلة: وهي عظام الذراعين، والرجلين.

٢ـ العظام المسطحة: وهي كعظام الجمجمة، والصلب والحوض.

وتغلظ العظام الطويلة عند أطرافها، وهو تنظيم يفيد في أثقال الوزن، والجهد من قصب العظام إلى المفاصل، وتتكون الأطراف الغليظة أكثر ما تتكون من النسيج الاسفنجي.

أما العظام المسطحة: فيغلب أن تكون منحنية لتهيء سطحاً واسعاً لاتصال العظام بها [1].

وتتوسع كثير من الموسوعات الطبية في تقسيم العظام، وبيان أقسامها، وخصوصياتها، وخوفاً من الخروج عن الصدد لكان بالإمكان إعداد تقرير وافٍ عنها.

وعلى أي حال، من هذا العرض لبيان حقيقة العظم وتركيباته، تظهر لنا الدقة المتناهية في هذا التركيب الذي يشكل الهيكل الأساسي للبدن بما فيه من أنسجة، وألياف، وغضاريف، ويلتفت الداعي إلى بديع صنع الله، ونعمته عليه، لذلك يتوسل إليه أن يرحم هذا الجهاز الدقيق الذي يدل التعمق فيه على قدرته، وعظمته فمن الحيف أن يكون هذا الجهاز الدقيق أكلةً للنار، وطعمة للحريق، والتعذيب.

وصحيح أن الإنسان جنى على نفسه، ولكن عفو الله أشمل.

وإلى هنا ينتهي المقطع الأول من هذا الفصل.

---

(١) لاحظ الموسوعة الطبية الحديثة: ١٠، ١٣٩٧ ـ ١٣٩٨، وكذلك من علوم الطب في الإسلام: ٢٢ ـ ٢٧.

(يا من بدأ خلقي).

وبهذه الفقرة يبدأ المقطع الثاني من الفصل حيث يستعرض الداعي أيادي الله عليه فيذكره بها لتكون منة أخرى منه عليه.

وأول يدٍ لله عليه هي: خلقه، وإفاضة الروح عليه، ونقله من الأصلاب إلى هذه الحياة.

وفي استعراضنا للمسيرة الحياتية نجد القرآن الكريم يتحدث عنها بآيات كريمة هي ما جاء في قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾[1].

وقوله عزّ وجل: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ** ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ** ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ** ﴾[4].

ولم يقتصر القرآن الكريم على هذه الآيات، بل هناك آيات أخرى جاءت بهذا المضمون، وكلها تشرح لنا عملية تكوّن الإنسان من اللحظة الأولى.

والذي يظهر من مجموع الآيات الكريمة أن عملية تكوين الإنسان بدأت على مرحلتين:

١ ـ مرحلة خلق الإنسان الأول، وهو آدم، وحواء.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية، ١٢ ـ ١٤.

(٢) سورة الروم: الآية، ٢٠.

(٣) سورة الحج: الآية، ٥.

(٤) سورة السجدة: الآية، ٧ ـ ٨.

٢ـ وهي مرحلة خلق البشر من هذين: آدم، وحواء.

أما المرحلة الأولى: فالآيات الكريمة عبرت مرة بأن خلقه كان من تراب، وأخرى: من طين.

وسواءً كان المبدأ هو: التراب، أو الطين، فإنهما شيء واحد، وينبيء هذا عن أن جسم الإنسان الأول (آدم) يتكون من نفس المواد الأولية التي تتكون منها التربة، وإن كان الطب الحديث لم يتوصل لحد الآن لحل هذه القضية من كيفية خلق هذه المادة.

أما المرحلة الثانية: فقد عبرت الآيات الكريمة عنها بأن خلق الإنسان من آدم كان من (ماء مهين).

ولكن كيف تبدأ هذه المسيرة الحياتية، وتتطور. ذلك ما تفصله لنا الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾[1] إلى آخر الآية السابقة.

وفي هذه الآية بدا لنا واضحاً المراحل التي يمر بها الإنسان من اللحظة الأولى من تكونه إلى تمام خلقه، وأن هذه المراحل تبدأ من: نطفة إلى علقة، إلى مضغة، إلى عظام، ومن ثم تأتي مرحلة الإكساء اللحمي بعد تكون العظام ليكون الجنين تاماً مستعداً للانتقال من بطن أمه إلى هذه الدنيا وإذا ما أردنا أن نتناول الموضوع بشيء من التفصيل نرى الموسوعات الطبية تحدثنا عن مراحل تطور الجنين في الرحم على النحو التالي:

المني: وهو سائل غروي قشطي أصفر مبيض قلوي التأثير له رائحة خاصة به، وعند خروجه يتحد مع مزيج مركب من إفراز الحويصلات المنوية، وغدد كوبر، والبروستاتا، وغدد مجرى البول.

والحيوان المنوي مجهري الحجم يشبه صغير الضفدع (أبا ذنيب) له رأس أبيض

---

(١) سورة المؤمنون: الآية، ١٢.

مسطح، وجزء متوسط مستدر، وذيل طويل يدفعه إلى الأمام بحركته الدائبة القوية.

وتتكون الحيوانات المنوية في الخصية، وعند نضجها يحملها السائل المنوي الذي يندفع إلى المهبل في ذروة الاتصال الجنسي أي عند (القذف)، ويخرج من القضيب عند القذف ما يملأ ملعقة شاي من المني تقريباً، وبه نحو: مائتا مليون حيوان منوي. ويموت أغلب الحيوانات المنوية بعد مدة قصيرة، ويدخل الباقي منها إلى الرحم. ويتمكن عدد قليل من دخول أنبوبة (فالوب) ليلقح واحد منها البيضة إن كانت هناك.

ويكفي حيوان منوي واحد من هذا العدد الكبير لإخصاب البيضة فتطمر رأسه في داخلها، ويسمى هذا بـ (التلقيح) وتبدأ عملية التناسل، وبعد اتحاد البويضة بالحيوانين المنويين، وتلقحها تتحول إلى بيضة مخصبة تدخل إلى الرحم بسبب انقباض البوق، ومساعدة أهداب البشرة المغطية لطبقته المخاطية، وهي في هذا الدور يطلق عليها القرآن الكريم اسم: (النطفة) حيث تستقر في [قرار مكين] وهو الوعاء الخاص من رحم المرأة ليحافظ عليها في تمام المدة المعينة.

وبعد هذا يبدأ تحول هذه (النطفة) إلى (علقة) لتصبح في دور يمكنها من التغذية بما يقدمه الرحم لها من دم.

ومن دور كونها علقة تتحول إلى دور كونها (مضغة) وهي القطعة من الدم الغليظة، ومن ثم، وبعد أن تأخذ المضغة مجراها الطبيعي في التغذية تشتد لتكون عظاماً رخوة في مبدئها ثم تتصلب، ويأتي بعد ذلك دور الإكساء باللحم، فيكون هذا الحيوان (حميلاً) فإن اسم الحمل يطلق على البيضة في الأسبوعين الأولين. وفي الأسابيع الإثني عشر التالية يطلق عليه اسم (الجنين).

أما بعد ذلك فيطلق عليه اسم (الجميل).

وقد تضمنت كثير من الموسوعات الطبية كشفاً يبدأ من الشهر الأول للحمل لينتهي به في الشهر العاشر، وبينت فيه قطر الحمل، وطوله وصفاته، وغذاءه، ووزنه

في كل شهر من تلك الشهور [(١)].

ولسنا في صدد بيان كيفية تكوين الإنسان من مبدئه على الشكل الدقيق إلى بقية أدوار حياته عندما يرجع إلى أرذل العمر ليستقبله التراب مرة أخرى بعد أن كان منشأة منها، بل المهم بيان ما يتعلق بهذه الفقرة من بدء خلق الإنسان بهذا التنظيم الدقيق، وإعطاء صورة من نعم الله عليه حيث صوّره، فأحسن صورته، وتدرج به بهذه المراحل التي ذكرناه محفوظاً، ومراعىً وفق نظام خاص تحوطه العناية وترعاه أدق حاضنة: غذاءً، ودفئاً وحناناً إلى أن يكتمل (حميلاً) لينزل برفق إلى هذه الحياة طفلاً سوياً.

كل هذه التطورات تمر على ذهن الداعي فيتصورها ليرى رعاية الله له في بدء خلقه، وتكوينه فلماذا يتركه، وهو مخلوقه، وصنيع قدرته؟

(وذكري وتربيتي وبري وتغذيتي).

وهذه من جملة أياديه الكريمة على الإنسان فبعد أن بدأ خلقه فقد جعله بين المذكورين في هذه الحياة، وقد كان عدماً، ومن ذلك العالم المجهول جاء به ليكون انساناً سميعاً، وبصيراً يتمتع بهذه الحياة. وليقدم الحياة الدائمة بعد موته ما يجعله قرير العين هانئاً. ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [(٢)].

إنه لم يكن شيئاً مذكوراً قبل أن يخلق فلماذا جاء به، ودفعه إلى خضم هذه الحياة، وقد أكملت الآية الكريمة المسيرة بقوله تعالى:

﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [(٣)].

---

(١) لاحظ لهذه البحوث مفصلاً الموسوعة الطبية الحديثة: مادة (جنين وتناسل) ٤ و ١٣، وكذلك من علوم الطب في الإسلام ٢٢ ـ ٣٣ .

(٢) سورة الدهر: الآية، ١ – ٢.

(٣) سورة الدهر: الآية، ٣.

ولقد أناطت يد الله بالإنسان دوره ليؤدي ما عليه حيث هداه السبيل، ومن ثم يكون إنساناً يستفيد منه الآخرون، وليقوم بكل ما أنيط إليه من أدوار يكون فيها مراقباً من قبل الله، فيؤدي رسالته، وبعد كل هذا ينال جزاءه في ذلك العالم الذي يقدر له البقاء فيه.

وبعد خلقه، وذكره توالت أياديه الكريمة عليه.

فأحسن تربيته، والبر به، وتغذيته ـ كما تنص على ذلك فقرات الدعاء ـ.

أما تربيته: فإنه حفظه بعد أن أخرجه إلى هذا الوجود، فكفله الحواظن وهيأ له من عطف أبويه ما يحسن تربيته، والمحافظة عليه من كل سوء وأحسن إليه بكل النعم التي تمتع بها في هذه الحياة.

ومن ثم هيأ له الغذاء الكافي في جميع المراحل التي تمر بها مسيرته الحياتية حملاً، ورضيعاً، وشاباً، وشيخاً، وفي كل هذه الأدوار منحه من نوعية الغذاء ما يناسبه ذلك الدور الذي يمر به.

بهذا الأسلوب العاطفي بدأ المقطع الثاني من دعائه.

وقبل أن ننتقل إلى الفقرات من هذا المقطع يجدر بنا أن ننتقل إلى مشهد من مشاهد الدعاء المماثلة لعرض هذه المسيرة الحياتية لنرى لذة الدعاء، ورهبة الموقف الخشوعي للخالق عزّ وجل.

إنه الإمام الحسين (عليه السلام) يخرج من خيمته في ظهيرة يوم التاسع من ذي الحجة، وفي وسط ضجيج الحجيج، وتكبيرهم، وتهليلهم يحوط به أهل بيته، ولفيف من شيعته ليقف بجانب الجبل من وادي عرفات متجهاً إلى صوب البيت الحرام، ويرفع يديه إلى السماء، وبوجه تظهر عليه إمارات الخضوع، ودموع منهمرة من عينين منكسرتين يبدأ أبو الشهداء بصوت يجلله الحزن فيقول:

(اللهم اني أرغب إليك، وأشهد بالربوبية لك مقراً بأنك ربي، وإليك مردي ابتدأتني بنعمتك قبل أن أكون شيئاً مذكوراً وخلقتني من التراب، ثم اسكنتني الأصلاب أمناً لريب المنون، واختلاف الدهور، والسنين، فلم أزل ضاعناً من قلب

إلى رحم في تقادمٍ من الأيام الماضية، والقرون الخالية، فابتدعت خلقي من مني يمنى، واسكنتني في ظلمات ثلاث بين لحمٍ، ودمٍ، وجلدٍ لم تشهدني خلقي، ولم تجعل اليّ شيئاً من أمري، ثم اخرجتني للذي سبق لي من الهدى إلى الدنيا تاماً سوياً، وحفظتني في المهد طفلاً صبياً، ورزقتني من الغذاء لبناً مرياً، وعطفت عليّ قلوب الحواظن، وكفلتني الأمهات الرواحم، وكلأتني من طوارق الجان، وسلمتني من الزيادة، والنقصان فتعاليت يا رحيم يا رحمن) [1].

وإذا كانت هذه أياديك عليَّ يا رب في جميع أدوار حياتي فلماذا تعرض بوجهك الكريم، وتعذبني وأنت ربي؟ بل:

(هبني لابتداء كرمك وسالف برك بي).

وعوداً عليّ بدء يا رب: فكما كان من ابتداء كرمك، وما مضى من برك بي حيث بدأت خلقي، وتلطفت في تربيتي، وتغذيتي ورعايتي، فهبني مرة أخرى تمن بها عليّ من شمول عطفك لي فلا حد لكرمك، ولا ساحل لجودك، بل أنت جواد كريم.

(يا إلهي وسيدي وربي أتراك معذبي بنارك بعد توحيدك).

وبالبدء بالمقطع الثالث: تبدأ العملية الحسابية مع الله لجلب عطفه، وقد بدأها الداعي بندائه بألفاظٍ كلها تدل عليه.

فالإله: هو المعبود، ولا معبود لنا سواه.

والسيد هو المسلط على القوم، ورئيسهم، ولا أسلط منه علينا فهو بيده كل شيء، وقادر على كل شيء.

والرب: وهو المالك، والمطاع، وهو مالك كل شيء، وهو:

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [2].

والنداء بهذه الأسماء على هذا النوع من التعاقب يرسم لنا صورة واضحة عن

---

(١) من دعاء الامام الحسين (عليه السلام) في يوم عرفة . ذكرته جميع كتب الأدعية، والمزارات .

(٢) سورة الفرقان: الآية، ٢.

حالة الداعي، وهو يكرر هذه الاسماء، فنتصوره كالغريق يطلق صرخات الاستغاثة يطلب النجدة من ربه.

وكما يقول الشاعر:

شخصنا إليك بأبصارنا　　　شخوص الغريق لمر السفن

(أتُراك).

والهمزة للاستفهام الحقيقي، و (ترى) مضارع (رأى)، والرؤية هنا قيل أنها: (بصرية) وقيل أنها: (علمية) والكاف مفعول ترى الأول، والجملة الواقعة بعد فعل المضارع في موضع المفعول الثاني إن كانت ترى علمية، وفي موضع الحال إن كانت مأخوذة من رأى البصرية.

وتكون القراءة في هذه الصورة بفتح التاء، وربما قرئت بضم التاء على أن يكون فعلاً مبنياً للمجهول، والكاف ضمير في محل رفع على أنه نائب فاعل [١].

والمعنى المراد من هذه الكلمة واضح حيث يستفهم الداعي من ربه فإنه هل يعذبه بعد توحيده؟

ومن هنا يبدأ الحوار الرقيق بين الداعي وخالقه، فهو يطالبه بما صرحت به السنة الكريمة من غفران ذنب من وحد الله، وقال: (لا إله إلاّ الله) وهي أخبار كثيرة.

منها: ما عن الإمام الصادق (عليه السلام) قول: (لا إله إلاّ الله ثمن الجنة) [٢].

وفي حديث آخر: (إن الله تبارك وتعالى أقسم بعزته، وجلاله أن لا يعذب أهل توحيده بالنار أبداً) [٣].

---

(١) لاحظ السيد جعفر بحر العلوم: أسرار العارفين/ ٧٤، حيث تناول تحليل هذه الكلمة من الناحية الأدبية، والنحوية بشكل مفصل.

(٢) لاحظ لهذه الأخبار، وغيرها الشيخ الصدوق: التوحيد/ باب ثواب الموحدين، والعارفين. الأحاديث ٦ و ٧ و ١٣.

(٣) لاحظ لهذه الأخبار وغيرها الشيخ الصدوق: التوحيد/ باب ثواب الموحدين والعارفين، الأحاديث٦ و٧ و١٣.

وفي حديث ثالث: «إن الله تبارك وتعالى حرم أجساد الموحدين على النار» (١).

وبهذا المضمون توجد أخبار كثيرة كلها تضمن لمن وحد الله أن لا تمسه النار. ولهذا جاء الداعي يطالب ربه بهذه الوعود التي صرح بها أمناء الشريعة.

فهو وإن كان قد أذنب، وصدرت منه المخالفات، ولكنه قدم في حياته ما يضمن له كسب الموقف من توحيد الله، وعدم الشرك به.

ويجدر بنا، ونحن بهذا الصدد أن ننتقل إلى حديث آخر يعرض لنا الإمام أبو عبد الله (عليه السلام) نحواً من المحاورات التي تجري بين الله وعبيده المذنبين يوم القيامة.

قال (عليه السلام): إنه إذا كان يوم القيامة أمر الله تبارك وتعالى بقوم ساءت أعمالهم في دار الدنيا إلى النار، فيقولون: يا ربنا كيف تدخلنا النار، وقد كنا نوحدك في دار الدنيا، وكيف تحرق النار ألسنتنا، وقد نطقت بتوحيدك في دار الدنيا؟ وكيف تحرق قلوبنا، وقد عقدت على أن لا إله إلاّ أنت؟ أم كيف تحرق وجوهنا، وقد عفرناها لك بالتراب؟ أم تحرق أيدينا، وقد رفعناها بالدعاء إليك؟

فيقول الله جل جلاله: عبادي ساءت أعمالكم في دار الدنيا فجزاؤكم نار جهنم.

فيقولون: يا ربنا عفوك أعظم أم خطيئتنا؟ فيقول عزّ وجل: بل عفوي.

فيقولون: رحمتك أوسع، أم ذنوبنا؟ فيقول عزّ وجل: بل رحمتي. فيقولون: إقرارنا بتوحيدك أعظم. فيقول عزّ وجل: بل إقراركم بتوحيدي أعظم. فيقولون: فليسعنا عفوك، ورحمتك التي وسعت كل شيء. فيقول الله جل جلاله: ملائكتي وعزتي، وجلالي، ما خلقت خلقاً أحب الي من المقرين بتوحيدي، وأن لا إله غيري. وحق عليّ أن لا أصلي بالنار أهل توحيدي. أدخلوا عبادي الجنة) (٢).

ويلحظ القارئ الرقة تفيض من جميع جوانب هذه المحاورة بين الخالق، وعباده المذنبين ـ وفي الوقت نفسه ـ نجد إلى جانب ما تتحلى به المحاورة من الرقة،

---

(١) لاحظ هذه الأخبار وغيرها الشيخ الصدوق: التوحيد/ باب ثواب الموحدين والعارفين، الأحاديث٦ و٧ و١٣.

(٢) الشيخ الصدوق: التوحيد/ باب ثواب الموحدين والعارفين، حديث ٣١.

والاستعطاف الرصانة في السلوكية للطريق المؤدي إلى استخلاص النتيجة على وفق ما يرغبون. ذلك لأنهم ـ وكما هو واضح من ترتيب الحديث ـ بدأوا في المحاورة على جولتين.

كانت الأولى منهما عرض ما قاموا به من جانبهم من تعظيم الخالق وتوحيده، والسجود له، والدعاء له، والالتماس منه دون أن يشركوا معه أحداً وقد عرضوا ضمن هذه المحاورة عرض مستمسكاتهم التي يرجون من وراء عرضها الصفح عنهم.

ويأتي الجواب من الله عزّ وجل: (عبادي ساءت أعمالكم في دار الدنيا فجزاؤكم نار جهنم).

ولكنهم، وبعد هذا الرد لم يقنطوا من رحمة ربهم، وإن كانت أعمالهم قد ساءت في دار الدنيا، بل بدأوا بالجولة الثانية حيث سلكوا طريق المطالبة بما وصف به نفسه جل جلاله من العفو، والرحمة، والمغفرة، ومن ثم إجراء المقارنة بين ما يترتب على إقرارهم بتوحيده، وتعظيمه، وعدم الشرك به، وبين حجم الذنوب الصادرة منهم.

وبعد أن قدموا كل ما لديهم من وسائل دفاعية، واستعطافية لجأوا، وعلامات الخضوع ترتسم على تلك الوجوه ليقولوا: (يا ربنا فليسعنا عفوك، ورحمتك التي وسعت كل شيء).

وتمر لحظات رهيبة، ويخيم الصمت على الجموع المنتظرة لصدور الحكم من محكمة العدل الإلهية بحقهم.

لحظات يمتزج فيها الأمل، والخوف، وأمام الجميع يترائى شبح المصير المظلم، ومن ورائه نار جهنم ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾[1]، ولكن الجوانب المشرقة تتغلب لتنير الطريق لهم إلى الجنة.

ويتجلى اللطف الإلهي بأبهى صوره عندما يصدر النداء من الله إلى الملائكة يحمل بين طياته آيات الرفق، والحنو، والغفران. «ملائكتي، وعزتي، وجلالي، ما خلقت

(١) سورة الاسراء: الآية، ٩٧.

خلقاً أحب اليّ من المقرين لي بتوحيدي، أدخلوا عبادي الجنة».

ويسدل الستار، وتتهادي الجموع المرحومة بين صفوف الملائكة الموكلين ليقطعوا الطريق الأخضر إلى النعيم الدائم: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ﴾[1].

ويتنفس الصعداء، وتطفو علامات الشكر، وتهلل الوجوه:

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾[2].

(وبعدما انطوى عليه قلبي من معرفتك).

انطوى قلبه على الشيء اشتمل عليه.

والمراد من هذه الفقرة هو إظهار الداعي بكمال معرفته بالله عزّ وجل حيث اعتقد باتصافه بما ذكر له من الصفات من كونه: واحد، أحد، قديم، عليم، حكيم، حي، غني، قادر، سميع، بصير، عالم، ولا يوصف بما توصف به المخلوقات فليس هو بجسم، ولا صورة، وليس جوهراً ولا عرضاً، وليس له ثقل، أو خفة، ولا حركة، ولا سكون، ولا مكان، ولا زمان، ولا يشار إليه كما لا ند له، ولا شبيه، ولا ضد، ولا صاحبة له، ولا ولد، ولا شريك، ولم يكن له كفواً أحد لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار[3].

إن الداعي عطف على استفهامه الأول ـ من أنه كيف يعذبه الله بالنار بعدما وحده، ولم يشرك به، وهكذا بعدما اعتقده من صفاته وآمن بها ـ قوله:

(ولهج به لساني من ذكرك).

وبهذه الفقرة يعرض الداعي ما قام به من تعظيم الله في دار الدنيا من توحيده

---

(١) سورة الزمر: الآية، ٧٣.

(٢) سورة الزمر: الآية، ٧٤.

(٣) لاحظ الشيخ محمد رضا المظفر: عقائد الامامية/ ٣٦، مطبعة النعمان، النجف الأشرف.

ومعرفته الكاملة به، وما لهج به لسانه من ذكره، وذكر الله هو دعاؤه وبيان صفاته، وتمجيده، وحمده، وكل ما يمت إلى ذلك بصلة.

وعندما يعتز الداعي، ويعرض أمام ربه من جملة ما يستند إليه في مقام المحاسبة أن لسانه كان لهجاً بذكر ربه، وبيان آياته فهو لا يذهب بعيداً ولا يشط في طلباته، بل يطالبه بما وعد به الذاكرين جزاء ذكرهم يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا * وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا * هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا * تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾ [١].

وإذا كان الله هو الذي يصلي عليهم، والصلاة منه لعباده المغفرة، والرحمة لهم، وكذلك ملائكته حيث يدعون لهم بإنزال الرحمة عليهم، ومع هذا يخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة، ومن الضلالة إلى الهدى، وهذا هو جزاؤهم في الدنيا. وأما في الآخرة فقد: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾، أجر يصفه الكريم بأنه: (كريماً).

وقد جاء عن ابن عباس في هذه الآية قوله: (إن الله لا يفرض على عباده فريضة إلاّ جعل لها حداً معلوماً، ثم عذر أهلها في مال عذر غير الذكر. فإن الله لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلاّ مغلوباً على عقله) [٢].

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله): «من أكثر من ذكر الله عزّ وجل أحبه الله، ومن ذكر الله كثيراً كتبت له براءتان براءة من النار، وبراءة من النفاق» [٣].

وعنه (عليه السلام) في حديث آخر: «من أكثر من ذكر الله عزّ وجل أظله الله في جنته» [٤].

وإن القلب ليظل فارغاً، أو لاهياً، أو حائراً حتى يتصل بالله، ويذكره ويأنس به، فإذا هو مليء جاد، قار، يعرف طريقه، ويعرف منهجه ويعرف من أين، وإلى أين

(١) سورة الأحزاب: الآيات، ٤١ ـ ٤٤.
(٢) السيوطي: الدر المنثور في التفسير المأثور/ ٥، ٢٠٤.
(٣) الشيخ الكليني: الكافي/ باب ذكر الله عزّ وجل كثيراً، حديث ٥٢٣.
(٤) الشيخ الكليني: الكافي/ باب ذكر الله عزّ وجل كثيراً، حديث ٥٢٣.

ينقل خطاه.

ومن هنا، يخص القرآن الكريم كثيراً، وتؤكد السنة على ذكر الله، ويربط القرآن بين هذا الذكر، وبين الأوقات، والأحوال التي يمر بها الإنسان لتكون الأوقات، والأحوال مذكرة بذكر الله، ومنبهة إلى الاتصال به حتى لا يغفل، ولا ينسى.

ويحسن بنا قبل الانتقال إلى الفقرة اللاحقة أن نتعرض إلى شبهة قد ترد علينا، ونحن نستعرض هذه الأخبار، وغيرها مما يشتمل على المغفرة لمن يقول: (لا إله إلاّ الله) أو أن من قالها كذا مرة في اليوم غفرت ذنوبه، ودخل الجنة، وهكذا، وتحرير **الإشكال**: هو أن الإنسان مع هذه الأخبار سيجد له طريقاً معبداً يسلك بواسطته إلى شهواته ومخالفاته فيعمل ما يشاء، وله من لسانه منطلق واسع يشهد فيه أنه لا إله إلاّ الله، وتنتهي المشكلة بسلام، وتغفر له جميع ذنوبه، وهكذا ومع إشراقة صباح جديد تبدأ العملية: مخالفات، وذكر إلى ان يختار الله لعبده الدار الآخرة، وحينئذٍ فيقدم على رب كريم.

ويأتي الجواب مستوحىً من حديث الإمام الصادق (عليه السلام) لرد أمثال هذه الشبهة حيث يقول: (من قال لا إله إلاّ الله مخلصاً دخل الجنة، وإخلاصه أن تحجزه لا إله إلاّ الله عما حرم الله عزّ وجل)[1].

وبمثل هذا جاءت روايات أخرى، وتتضح لنا أبعاد القضية من هذا القول فقول: (لا إله إلاّ الله) لا يكون شافعاً للمذنب أعماله مطلقاً بل لابد لها من شروط، ومن شروطها أن يعقل ماذا يقول، ويلتزم بأنه لا إله في هذا العالم سواه، وحينئذٍ فلابد من الالتزام بأوامره، ونواهيه فمن قالها تائباً، ونادماً على ما صدر منه، وملتزماً أن لا يعود وجد من برد (لا إله إلاّ الله) ما يطفئ به حر نار جهنم. أما من قالها كبقية الكلمات العابرة التي تمر على لسانه في كل يوم، فإن هذه لا تنفعه شيئاً في مقام تخليصه من كل ما صدر منه.

---

(١) الشيخ الصدوق: التوحيد/ ٢٧.

وليعلم الداعي أنه عند دعائه، وتوسله يقف بين يدي من هو مطلع على جميع نواياه، وحركاته، وسكناته، فلابد من حسن النية، والإخلاص، والتوبة.

(واعتقده ضميري من حبك).

الضمير: هو القلب، وسمي بذلك لأنه مضمر، ومستتر [١].

والضمير، والقلب، والفؤاد، كلها ألفاظ ترمز إلى شيء واحد، وربما قيل: بأن القلب أخص من الفؤاد [٢] والمعنى واضح.

أما أعتقد: فهي كما في اللغة: أن أعتقد كذا صدقة، وعقد عليه قلبه، وضميره [٣].

وقد تصدى العلماء فأطنبوا في هذا المقام من بيان المراد من المحبة، وما هي المحبة فهل هي محبة ذاته، أو صفاته، وهل أن محبة ذاته مقدمة على محبة صفاته؟

وما للمتكلمين هنا من كلام، وكذا ما يقولوه العارفون من رأي بهذا الشأن.

ولا نرى ضرورة للخوض في مثل هذه التفصيلات، والبعد عن تلك الشفافية التي تفصح عنها هذه العبارة عندما يقول الداعي:

(واعتقده ضميري من حبك).

إن الأنغام العذبة التي تبعثها هذه الفقرة من الدعاء تجسد لنا بالحرف الواحد ما تحمل عبارة «أنا أحبك يا رب» بين طياتها من رقة، وانعطاف من العبد نحو ربه.

فلماذا نشوش هذا النغم بهذه الأقوال؟

ثم من منا لا يعرف ما هو الحب، ويقدر العلاقة التي تربط بين الأبوين، وأولادهم، أو الأسرة فيما بينهم، أو العشق الذي يحصل بين متحابين، وكل أولئك بشر فكيف بالعلاقة بين الخالق، ومخلوقه، مع ما يراه من نعمة عليه، وأياديه

---

(١) الشرتوني: أقرب الموارد: مادة (خمر).

(٢) المصدر المتقدم: مادة (عقد).

(٣) المصدر المتقدم: مادة (عقد).

الكريمة، وعواطفه المتواصلة من أول لحظة يتكون فيها أصله إلى آخر ومضة من ومضات حياته وقد لا يعرف الكثير من البشر أقسام المحبة، وأنواعها، وما تشتمل عليه من تعاريف تزخر بها الموسوعات اللغوية، إلاّ انه يجد في نفسه ميلاً ورغبة، وانجذاباً، وهوىً يسوقه نحو خالقه بحيث تسكن إليه ويلجأ إليه كلما داهمته ملمة، وحين يدعو يشعر بلذة غريبة لأنه يقف بين يدي عطوف ودود.

وهذه هي المحبة، وهذا هو الميل، والانجذاب الذي اشتمل قلب الداعي عليه، والذي يعتز به، ويحتفظ به كأحسن شافع لديه حين يقف بين يدي ربه ليقدم له ما اشتمل عليه قلبه من حبه، والتودد إليه فيقول: «إلهي أتراك معذبي بنارك بعد توحيدك، وبعدما انطوى عليه ضميري من حبك».

ويبلور الداعي وجهة نظره في تقديم هذه الصفة منه كمستند يبرد ما صدر منه من مخالفات في دار الدنيا. فهو يعتز بأن قلبه أصبح وعاءً يضم حب الله بين جنباته، وكما يقولون: «إن شرف المكان بالمكين» وهكذا فكم من بقعة من بقاع الأرض تشرفت بضمها لجسد نبي من أنبياء الله، أو ولي من أولياء الله، وليس لهؤلاء وأمثالهم إلاّ شرف الانتساب إلى الله جل جلاله فكيف بحب الله إذا كان قلب الداعي تشرف بوعائيته، وانطوائه عليه؟

وإذا ما انصتنا خاشعين إلى الإمام الحسين (عليه السلام) وهو يدعو ربه في ظهيرة يوم عرفات لرأيناه يعزو التوفيق لنيل شرف وعائية قلب المؤمن لحبه تعالى إليه جلت عظمته، فهي يد كريمة أخرى تضاف إلى أياديه، ونعمه على عباده أنه يقول: (أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك، ووحدوك وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك) ـ إلى أن يقول ـ:

(يا من أذاق أحباءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متحلقين).

وإلى أن يقول: (وأنت البادئ بالإحسان قبل توجه العابدين).

وإذا كان هو الذي أشرق الأنوار في قلوب أوليائه، وأزال عنها الاغيار فجعلها أوعية طاهرة لحبه فهل يحرقها بالنار؟

ثم، وبعد هذا فما الفرق بين وعائين؟

قلب: ضم حب الله، وانطوى عليه.

وقلب: اشتمل على حب شريك له، وتملق إليه.

فإن قلنا بأن كليهما يحفظ من النار فهو مخالف لنص الآية الكريمة:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾[1].

وإن قلنا: بتعذيب كليهما، فهو خلاف الوجدان فكيف يكون قلب المؤمن كقلب المشرك من حيث الجزاء، والتقدير؟

ولابد حينئذٍ من التفصيل، والتفريق بين القلبين تمييزاً لوعائية حب الله عن حب غيره.

(بعد صدق اعترافي ودعائي خاضعاً لربوبيتك).

والداعي بهذه الفقرة يخاطب ربه، وهو المطلع على السرائر فيقول له: كيف تعذبني بنارك بعد أن ظهر لك يا رب صدق اعترافي، وندمي وتوبتي، والتي ظهرت على ما مر من دعائي لك، وتوسلي حال كوني خاضعاً لربوبيتك؟

فليس هو اعترافاً مع عدم خضوع، أو خضوع من غير اعتراف.

بل هما معاً: اعتراف بالذنب، وخضوع له باعتبار ربي، وخالقي.

وبنهاية هذه الفقرات تنتهي هذه المحاورة، وفيها قدم الداعي كل ما لديه من حجج، ومستمسكات تدعم موقفه الذي تشبث به لحصول المغفرة والعطف من ربه.

وطبيعة مثل هذه المواقف تقضي بانتظار المذنب لما يصدر عليه من حكمٍ، ولكن الداعي خالف في موقفه هذا جميع الأعراف التي تمليها أصول المحاكمات من تقديم المدعى عليه دفاعه، وانتظاره لنتائج المحاكمة حيث تتلخص بصدور الحكم عليه،

---

(١) سورة النساء: الآية، ٤٨.

بل انبرى يتطفل ليصدر الحكم بنفسه، ولهذا نراه يناجي ربه قائلاً:

(هيهات أنت أكرم من أن تضيع من ربيته).

وهيهات: كلمة معناها البعد، وقيل: كلمة تبعيد، وتضييع من أضاع، وهو الاتلاف، والهلكة، والإهمال، والمعنى:

هو استبعاد الداعي أن يكون الله وهو الموصوف بالكرم أن يهمل من كان مشمولاً لرعايته، وعطفه من أول لحظة من لحظات حياته والمراد من تربيته هو ما أسداه عليه من النعم ـ كما تقدم ـ في دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) في يوم عرفة، فهو (سلام الله عليه) ـ بعد أن بين بدء تكوين الإنسان، وانتقاله في الأصلاب، وخروجه إلى الدنيا تاماً سوياً، وأنه عطف عليه قلوب الحواضن، ورزقه من اللبن ما يغذيه، وسلمه بعد ذلك من الزيادة، والنقصان، وبعد كل هذا ـ أخذ في بيان تكملة المسيرة الحياتية، وإعطاء صورة من تربية الله، ورعايته لهذا المخلوق فقال: (حتى إذا استهللت ناطقاً بالكلام أتممت عليّ سوابغ الإنعام، وربيتني زائداً في كل عام. حتى إذا أكتملت فطرتي، واعتدلت أمرتي أوجبت عليّ حجتك، بأن الهمتني معرفتك، وروعتني بعجائب حكمتك).

إلى أن يقول: (ثم إذا خلقتني من خير الثرى لم ترض لي يا إلهي نعمة دون أخرى، ورزقتني من أنواع المعاش، وصنوف الرياش بمنك العظيم الأعظم عليَّ، وإحسانك القديم الي).

صلوات الله عليك يا أبا الضيم. لقد استعرضت هذه المسيرة، ودللتنا على نعم الله من بدء تكويننا، وأياديه الكريمة، ورعايته، وكل ذلك تربية من الله لنا، فللداعي الحق لو طالب ربه في لطفه المستمر، واستبعاده كل البعد من أن يضيع الله مخلوقه، وصنيعته، ومن حباه لطف تربيته، ولئن كانت شفقة الأبوين مضرب الأمثال من ناحية تعلقهما بالولد فيحرصان على حياته، وعدم إيصال أي أذىً إليه، فإن شفقة الله على عباده أعظم لأن الإنسان مخلوق الله، ومن صنع يده.

(أو تبعد من أدنيته):

أدنيته: قربته، والقرب من الله من الواضح ليس القرب المكاني لاستحالة ذلك لاستلزامه اشغال الحيز له عزّ وجل، وهو محال، بل القرب هو: المعنوي الناشيء من رضا الله، وعطفه، وكرمه نحو المخلوق، وهذه، وغيرها كلها علامات قرب الإنسان من ربه، وعدم انزجاره منه.

وإذا كان الأمر كذلك، فهيهات يا رب أن تبعد، وتطرد من بابك من عطفت عليه، وخصصته منك بالعناية.

(أو تشرد من آويته):

شرد القوم: أي مزقهم.

وآوى القوم: أنزلهم في المكان وآويت فلاناً في داري، أي: أنزلته فيه [1].

والمعنى الذي يقصده الداعي، من استبعاده من تشريد الله لعبده المذنب بعد إيوائه له هو أن سبوغ نعمه لعبد وتربيته له، ورعايته له في مراحل الحياة كلها ألطاف تنبيء عن إيواء الله لعبده، وتقريبه منه، والسخط عليه بتعذيبه، معناه: طرده من ساحة رحمته، وإبعاداً له عن مأواه، وهذا ما يستبعده العبد.

وعلى صعيد المقارنات، فالتاريخ يحدثنا عن السمات الحميدة التي يتحلى بها الكثير من البشر، فإنه إذا آوى أحداً، وقبله تحت لوائه فمن البعيد أن يطرده من قربه، وإذا كان هذا الحال المخلوقين فكيف بخالقهم، والمنعم عليهم، وولي الإفضال بالنسبة لهم؟

(أو تسلم إلى البلاء من كفيته ورحمته):

الغم: هو البلاء، وكفى فلان فلاناً، أغناه عن غيره [2].

ويأتي استبعاد الداعي لتسليم الله عبده إلى البلاء بعد أن كفاه، ورحمه تبعاً

---

(١) الشرتوني: لاحظ أقرب الموارد. وابن منظور: لسان العرب في مادة (أوي).

(٢) الشرتوني: أقرب الموارد، مادة (بلي، وكفي).

لمنطوق الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [(١)].

والآية، وإن كان سبب نزولها مشركي قريش حيث كانوا يخوّفون النبي (ﷺ) من آلهتهم، ويحذرونه من غضبها، ويوعدونه بأنه إن لم يكف عنها لسانه فسيصيبه منها الأذى، فجاءت الآية تطمئن النبي (ﷺ) بأن الله يكفيه من الأذى، ويكف عنه كل سوء، ولكن إطلاقها يشمل كل مورد، وكل عبد من عباده، والكفاية أيضاً من كل شيء: أذىً، ورزقاً، وعدواً، وغير ذلك.

إن الله يكفي عباده، وهو غني عنهم، ويرحمهم، وهو ليس بمحتاج لهم، وإنما صنع ذلك تفضلاً منه عليهم، وإذا كان الموضوع يرجع في نهايته إلى التفضل من المولى على عباده، فمن هنا ينشأ استبعاد تسليم الله لعبده المذنب إلى البلاء.

ومرة أخرى نقول، أن الداعي يطالب ربه بما قطعه على نفسه من كفاية عباده، وهب أنه أذنب، وتجاوز، ولكنه، وبتوسله قد تاب، وعاد إلى حضيرة الإيمان فلماذا لا تعود الكفاية، والرعاية، وقد زال السبب الذي دعا بإبعاده، وطرده، وقد صرح القرآن الكريم بأن الله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [(٢)].

(وليت شعري يا سيدي وإلهي ومولاي أتسلط النار على وجوه خرت لعظمتك ساجدة).

ليت شعري: جملة تستعمل في مقام الحيرة، والاستفهام، ومعناها «ليت علمي» أما خبر ليت فمحذوف تقديره حاضر، أو محيط وتقدير مجموعة الجملة «ليت علمي حاضر» [(٣)].

وخرت: أي سقطت، وجملة (خر ساجداً) يراد بها: انكب على وجهه.

ويوجه الدعاء الداعي بهذه الفقرة إلى سلوك طريقة جديدة يبدأ فيها بشكل آخر

---

(١) سورة الزمر: الآية، ٣٦.

(٢) سورة الشورى: الآية، ٢٥.

(٣) الطريحي: مجمع البحرين/ مادة (شعر).

فتح الحوار الحسابي مع ربه بعرضه ما قام به من تعظيم الله، من خلال ما أدته جوارحه من شعائر تعظيمية، كل عضوٍ بما يناسبه من عمل.

وبدءاً من الوجه، وهو مجموع الناصية، والعينين، والخدين، والأنف والفم. وطبيعي أن ما يناسب الوجه بما فيه الجبهة من أداء حق الله هو السجود له تعالى. ولهذا يطالب الداعي ربه بجزائه على سجوده، ويزيد في روعة الموقف التعبير الذي تحمله عبارة (خرت لعظمتك ساجدة)، وقد عرفت أن مصطلح: خرت ساجدة، أي: انكبت على وجوهها، والانكباب هو السقوط.

وفي انكباب العبد على وجهه ساجداً لربه من الخضوع، والذلة ما لا يعطيه التعبير بكلمة «سجد لك وجهي» فإن السجود هو وضع الجبهة على الأرض. ووضع الجبهة، وإن كان يحمل بين طياته كل معاني الخضوع، ولكنه ـ في نفس الوقت ـ يفقد تلك الرقة التي تحصل من منظر العبد، وهو يسقط إلى الأرض ساجداً، فإن ذلك يظهر غاية التسليم، والانقياد.

وللسجود لله تعالى آثاره في تقرب العبد إلى ربه لذلك نرى الإمام الصادق (عليه السلام) يقول:

(أقرب ما يكون العبد إلى الله عزّ وجل وهو ساجد) (١).

ويأتي هذا القرب من الله نتيجة إعطاء السجود لأبرز صورة من صور الخضوع والتذلل حيث يتجرد الإنسان من كبريائه وغروره، فيسجد على الأرض ليلامس التراب جبينه، وهو ينكب على وجهه زيادة في الخضوع.

وتمثل هذه الصورة العبودية الخالصة له عزّ وجل، وهي ترمز لتخلي الإنسان عن اللجوء لغير الله تعالى، وبالسجود له يعلن العبد بأنه في غاية الخضوع له، وإيذاناً منه بخلوصه في توحيده وصدق نيته.

بعد كل هذا، لا نعجب إذا رأينا الإمام أبا عبد الله الصادق (عليه السلام) يقول:

---

(١) المولى الكاشاني: المحجة البيضاء/ ١، ٣٤٦، باب فضيلة السجود.

«إن العبد إذا سجد، وقال: يا رب، يا رب، يا رب. حتى ينقطع نفسه قال له الرب تبارك وتعالى: لبيك ما حاجتك» [١].

ولماذا لا يقول الرب لعبده، وعلى هذه الحالة من التذلل له «لبيك ما حاجتك»؟ بعد أن علم من عبده صدق النية، والانشداد إليه.

لبيك: كلمة يقولها الله لعبده.

والله، هو الله، مالك السماوات، والأرضين، وهو القادر، وهو الجبار، وهو الذي لا يتخلف عن إرادته أي شيء يتنازل إلى هذا المخلوق الضعيف الذي يفقد كل حول، وكل قوة ليقول له: لبيك، ويمنيه بحاجته، وماذا يريد الداعي بتوسله، وتضرعه أليس يريد من ربه إبعاد شبح النار عنه أليس يريد منه المغفرة، والتجاوز، فهل يحسن بالله أن يرجع عن عطفه، وتلبيته ليرد عبده في أحرج ساعاته؟

ومن الوجه ينتقل الدعاء بنا إلى جارحة أخرى قامت بدورها في أداء ما عليها من حق تجاه الخالق الكبير.

(وعلى ألسنٍ نطقت بتوحيدك صادقة، وبشكرك مادحة).

وقد ورد في الحديث عن أهل البيت (عليهم السلام): (أكثروا من التهليل والتكبير فإنه ليس شيء أحب إلى الله عزّ وجل من التهليل والتكبير) [٢].

وفي حديث آخر يقول الإمام الصادق (عليه السلام): «خير العبادة قوله: لا إله إلاّ الله» [٣].

وجاء في الحديث عن الإمام أبي الحسن (عليه السلام): (من حمد الله على النعمة فقد شكره وكان الحمد أفضل من تلك النعمة) [٤].

وإذا كان للتهليل والشكر، هذه المنزلة عند الله فكيف يحرق الله لساناً ما انفك عن ترديد صفة توحيده، وما ترك شكر الله على نعمائه؟

---

(١) المصدر المتقدم/ ١، ٣٤٧.

(٢) الشيخ الكليني: الكافي/ باب التسبيح والتهليل والتكبير، حديث ٢ و ٥ من كتاب الدعاء.

(٣) الشيخ الكليني: الكافي/ باب التسبيح والتهليل والتكبير، حديث ٢ و ٥ من كتاب الدعاء.

(٤) المصدر المتقدم: حديث ٣ من كتاب الإيمان والكفر: باب الشكر.

وبعد هذا فمن المظاهر الخارجية ينتقل الدعاء لتوجيه الداعي إلى التشبث بجوارحه الداخلية، وكيف أنها كانت تؤدي واجبها على خير ما يرام من أداء حقوق الله إنه يقول:

(وعلى قلوبٍ اعترفت بإلهيتك محققة وعلى ضمائر حوت من العلم بك حتى صارت خاشِعة).

وكيف تسلط النار على قلوبٍ كان شعارها الاعتراف بتوحيدك محققة أي اعترافاً واضحاً لا غبار عليه، ولا تردد فيه؟

وكيف تسلط النار على ضمائر جمعت من الأدلة التي كانت سبباً للتصديق، واليقين بك، فكان من جراء ذلك أنها أصبحت خاشعة لك هذه الضمائر، وهذه القلوب بعد كل ذلك هل يكون نصيبها منك الاعراض والحرمان، والتعذيب؟

ثم، وبعد كل هذا الخشوع فإن هذا الإنسان لم يستقر في مكان خاص يعبدك فيه يا رب، بل تحمل في سبيل عبادتك المشاق من التنقل ليكون في كل مكان يرى له شرف المكانية ليعبدك فيه فهل تسلط النار يا إلهي؟

(وعلى جوارح سعت إلى أوطان تعبدك طائعة)؟

وأوطان التعبد هي: المساجد، والأماكن التي نالت شرفاً بمن ضمته بين أطباقها من أنبياء، وأوصياء، وصالحين.

ألم تكن حرمة لهذا السعي، وهذا القصد؟

إنها جوارح أمّت، وقصدت بيوتك يا رب، فكانت ضيوفك فيها ولكل ضيف قرىً وضيافة، وهل تكون ضيافة الكريم طرد ضيفه عن بابه مهما كان الضيف من توغله في الذنب؟

فلمن يلتجئ بعد ذلك من طردته يا ملاذ المذنبين؟

ولمن يأوي هذا المسكين يا ملجأ الهاربين؟

(وأشارت باستغفارك مذعنة).

شار العسل استخرجه من محله الخاص به واجتناه [١].

بهذا تقول كتب اللغة عن هذه الكلمة.

وجاءت في هذه الفقرة من الدعاء ليعلن الداعي عن حالته النفسية بعد أن سعت به جوارحه، وقادته قدماه إلى مواضع التعبد المشرفة ليعبد ربه فيها، وليشبه انصهاره بالاستغفار، وطلب العفو منه عزّ وجل فحلاوة الاستغفار كحلاوة العسل، والإنسان في كلتا الحالتين يجد لذة في الانهمال للوصول إلى الحصول إلى مطلوبه.

ولم يجد الداعي غير التشبيه المذكور للوصول إلى نفوس العامة من الناس لأن الكل يعرف العسل، وحلاوته، فكان مضطراً إلى مثل هذا التشبيه ليعطي صورة واضحة يسهل الإطلاع عليها من قبل الجميع، ولكن: أين الثريا، وأين الثرى؟

فالفرق بين الحلاوتين واضح، **حلاوة الاستغفار وحلاوة العسل**.

حلاوة العسل: يشعر بها الإنسان من طريق الذائقة يجد فيها الذائق لذة وقتية سرعان ما تزول، ويكون حالها حال بقية المأكولات والمشروبات، وقد يحار الآكل والشارب، أن يصف حالته، وهو يتذوقها، أو بعد ذلك لأن اللذائذ الوقتية لا تبقى لتعرف جيداً.

أما حلاوة الاستغفار: فهي حلاوة النفس يجنيها الإنسان بتضرعه وخضوعه إلى الخالق الكبير.

حلاوة الأمل الأخضر ترفرف بوارقه لتطرد الأشباح القاتمة عن نفس المذنب المستجير، وهو يردد: (يا أملي، وبغيتي، ويا سؤلي، ومنيتي، فوعزتك ما أجد لذنوبي غافراً، ولا أرى لكسري غيرك جابراً، وقد خضعت بالانابة إليك وعفوت بالاستكانة لديك، فإن طردتني عن بابك فبمن ألوذ، وإن رددتني عن بابك فبمن أعوذ؟ يا غافر الذنب الكبير، ويا جابر العظم الكسير.

---

(١) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (شور).

إلهي: إن كان قبح الذنب من عبدك، فليحسن العفو من عندك.

إلهي: ما أنا بأول من عصاك، فتبت عليه، وتعرض لمعروفك فجدت عليه» (١).

أي لذة يجدها الداعي، وهو يدفع كفيه إلى السماء ليستدر بهما عطف ربه، ولسانه يردد هذه الفقرات، ونفسه تتسامى لعلو كرم الله، وهو يشعر بتقصيره، وتضاؤله أمام ربه.

يلجأ الطفل عندما يداهمه الخوف، أو الجوع إلى حضن الأم ليجد من دفء صدرها ما يؤمن له روعه، ومن ذراعيها ما يحميه من الأشباح المرعبة، ومن دقات قلبها ما يغفو على ترانيمه المحببة ويستسلم إلى إغفائه هادئة في محضن العطف، والمحبة.

وهكذا يكون حال المذنب إلى ربه، وأشباح الذنوب تلاحقه ليجد من لذيذ مناجاته ما ينسيه آلامه النفسية، ويبدأ يتضرع، ويستغفر، ويريد من الله العفو ليعود إنساناً كاملاً نقي الثوب.

ويلح في الدعاء، وتسيطر عليه هيبة الموقف، فيغيب في ذات الله، ويستسلم أخيراً إلى غيبوبة حالمة لينتبه، ويد اللطف تهدهد آماله، وإذا بنداء السماء يبعث فيه الرجاء. ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (٢).

لذلك يستفسر الداعي من ربه والدهشة تعلوه فكيف يسلط النار على جوارح سعت إلى أوطان تعبده طائعة، وذاقت حلاوة استغفاره مذعنة ومعتقدة.

(ما هكذا الظن بك ولا أخبرنا بفضلك عنك يا كريم).

هكذا، كلمة مؤلفة: من هاء التنبيه، وكاف التشبيه، وذا الإشارية.

أما الظن: فهو ترجيح أحد الطرفين بسبب يقتضي الترجيح والمعنى اللفظي لجملة (ما هكذا الظن بك): ما كنت أحسب وبها يبدأ الداعي عتاباً رقيقاً مع ربه لعدم توقعه من المولى عزّ وجل أن يعامله على هذا النحو من المعاملة يخيب داعيه،

---

(١) فقرات من مناجاة الامام علي بن الحسين (عليه السلام) في الصحيفة السجادية، من مناجاة المذنبين.

(٢) سورة الحجر: الآية، ٤٩.

ويرد من التجأ إليه متضرعاً تائباً مهما عظم ذنبه.

(ما هكذا الظن بك) ـ وهو في الوقت نفسه ـ عتاب لا يخلو من جرأة، ولكن الداعي قالها: كلمة يستدر بها عطف ربه بعد أن رأى من الأحاديث الكريمة ما يدفعه إلى هذا النحو من العتاب الرقيق المشوب بالتطاول.

إن الإمام الباقر (عليه السلام) ينقل عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله عن الله تبارك وتعالى: لا يتكل العاملون لي على أعمالهم التي يعملونها لثوابي، فإنهم لو اجتهدوا، واتعبوا أنفسهم، وأعمارهم في عبادتي كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي والنعيم في جناتي، ورفيع درجاتي العلى في جواري، ولكن برحمتي فليثقوا، وفضلي فليرجوا، وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا، فإن رحمتي عند ذلك تدركهم، ومتى يبلغهم رضواني ومغفرتي، تلبسهم عفوي، فإني أنا الله الرحمن الرحيم، وبذلك تسميت [(١)].

وعلى ضوء أمثال هذه الأحاديث يصدر الداعي عتابه الهادئ والدهشة تأخذ عليه مسالك التفكير، فالحديث المذكور ـ وعلى سبيل المثال ـ إذا لاحظناه بدقة رأيناه ينفي قدرة الغير على أداء حق الله عليه لنعمه المتواصلة، ولكنه ـ في الوقت نفسه ـ لا يدع اليأس يدب إلى نفسه، بل يوجهه إلى رحمة الله، وفضله وحسن الظن به.

ولكن برحمتي فليثقوا، وفضلي فليرجوا، وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا [(٢)].

إذاً فمسألة عبادة البشر للخالق لا تخضع إلى حساب معين لأن الطرف فيها يكون العبد، ومهما أوتي العبد من فهم فإنه لا يصل إلى حقيقة العبادة اللائقة بمقامه عزّ وجل، ولكنها وبنهاية المطاف تعود إلى رحمته تعالى، وفضله، وحسن الظن به.

والداعي يتشبث بهذه الصفات الحميدة، والألطاف الجزيلة فيطالبه بها.

ولنا وقفة أخرى مع حديث آخر لنقرأ من خلاله عمق التوكل على الله، وحسن الظن به.

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ باب حسن الظن بالله (عز وجل)، حديث ١ من كتاب الإيمان والكفر.

(٢) المصدر المتقدم: ٢، ٧١.

فقد جاء عن الامام محمد الباقر (عليه السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: «والذي لا إله إلاّ هو لا يعذب الله مؤمناً بعد التوبة، والاستغفار إلاّ بسوء ظنه بالله وتقصيره من رجائه والذي لا إله إلاّ هو لا يحسن ظن مؤمن بالله إلاّ كان الله عند ظن عبده المؤمن» (١).

وعليه فهل يؤخذ على الداعي بعد هذه الأحاديث، وغيرها مما كان على هذا النحو من البيان، والتشويق إلى حسن الظن بالله أن يهرع إلى رحاب الله ليبدأ معه لغة العتاب فيقول مخاطباً ربه:

(ما هكذا الظن بك).

ثم يرد فيها بالجملة الثانية:

(ولا أخبرنا بفضلك عنك يا كريم).

ومن هذا المخبر عن فضل الله لعباده؟

فإن كان بشراً لكان في التوقف في النقل مجال واسع لأنه بشر واحتمال التحريف يأتي بحقه.

ولكنه القرآن الكريم تتوالى آياته لتحيط الإنسان بهالة من نور رحمته ولتبشره بنداء الخالق الكريم. قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (٣). وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ (٥).

---

(١) المصدر السابق: باب حسن الظن بالله، حديث ٢.

(٢) سورة الزمر: الآية، ٥٣.

(٣) سورة النساء: الآية، ١١٠.

(٤) سورة الأنفال: الآية، ٣٣.

(٥) سورة النساء: الآية، ٤٨.

١٤ـ (يا رَبِّ وأنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفي عن قَليلٍ مِن بَلاءِ الدُّنيا وعُقوباتِها، ومَا يَجْري فِيها مِنَ المكارِهِ على أهلِها، عَلى أنَّ ذَلِكَ بَلاءٌ، ومَكْرُوهٌ قَليلٌ مكثُهُ، يسيرٌ بَقاؤُهُ قصيرٌ مُدَّتُهُ فَكيْفَ احْتِمالي لِبَلاءِ الآخرَةِ، وَجَليلِ وُقُوعِ المكارِهِ فيها، وَهُو بَلاءٌ تَطُولُ مُدَّتُهُ، وَيَدُومُ مَقامُهُ، ولا يُخَفَّفُ عن أَهْلِهِ لأَنَّهُ لا يكُونُ إلاّ عَنْ غَضبِك، وانتِقامِك، وَسَخَطِك، وَهذا مَا لا تَقُومُ لهُ السماواتُ والأرضُ، يا سيِّدي فكيفَ بِي وَأنا عَبْدُكَ الضَّعيفُ الذَّليلُ الحَقيرُ المِسْكينُ المُسْتكينُ).

يتكفل الدعاء في هذا الفصل بالنظرة الأولية ببيان أن طاقات الإنسان البدنية محدودة لأنها لا تخرج عن تشكيلة كاملة من اللحم، والدم، والعصب، والعظم. وهذه المجموعة من الأعضاء، والأجزاء لا قدرة لها على مقاومة ما يطرأ على البدن من العوارض الخارجية كالأمراض، وما تتعقبها من آلام، وجوع، وعطش، وبرودة، وحرارة، وما تخلفها هذه العوامل من تأثيرات على الإنسان.

فهو إذاً، ضعيف وعاجز عن تحمل هذه العوارض فكيف سيقف صامداً، ويواجه ما سيلاقيه في الآخرة من العذاب المؤقت أو الدائم تبعاً لحجم الذنب الذي صدر منه.

والدعاء ـ كما قلنا ـ بنظرته الأولية يتناول هذه الجهة فيوجه الداعي إلى عرض عدم المقاومة هذه على ربه، والتماس رحمته لتشمل هذا البدن الضعيف غير القادر على تحمل بلاء الآخرة بأبعاده المختلفة عن بلاء الدنيا كماً، وكيفاً.

أما بالنظرة التفصيلية فنرى الدعاء في هذا الفصل يتعرض إلى ما يواجه الإنسان من بلاء، وشبهه فيقسمه إلى قسمين:

دنيوي، وأخروي.

بدا ببيان القسم الأول بقوله: (يا رب وأنت تعلم ضعفي عن قليل من بلاء الدنيا)، وينتهي إلى قوله: (قصير مدته).

أما القسم الثاني: فيبدأ من قوله: (فكيف احتمالي لبلاء الآخرة). لينتهي إلى قوله: (وهذا ما لا تقوم له السماوات والأرض).

أما القسم الأول: وهو البلاء الدنيوي فقد تناوله الدعاء **فقسمه إلى ثلاثة أقسام**:

قسم: **أطلق عليه اسم «البلاء»**.

وقسم آخر: أطلق عليه اسم «العقوبة».

أما القسم الثالث: فقد عبر عنه باسم «المكاره».

وتستوحي هذه الأقسام الثلاثة من عبارة الدعاء القائلة: «يا رب وأنت تعلم ضعفي عن قليل من بلاء الدنيا، وعقوباتها وما يجري فيها من المكاره على أهلها».

ثم ومن ثنايا الفقرة القائلة: «ولا يخفف عن أهله»الواردة بعد قوله: «وهو بلاء تطول مدته، وبدوم مقامه».

تظهر لنا الحقيقة التالية:

وهي: أن ما يكتب على الإنسان من جزاء عقابي نتيجة ارتكابه المخالفات في دار الدنيا، وإن كان الله قد ترك موضوع مغفرته لنفسه حسب ما نصت عليه الآية الكريمة من: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾[1].

ولكن ذلك إنما يجري ما لم يكن يصدر عليه الحكم، ويذهب إلى الجحيم أي في دار الدنيا حيث يكون العبد في وضع قابل للتوبة، والرجوع إلى حضيرة الإيمان.

وهكذا قبل يوم الحساب إذ ربما تكون الحسنات تتغلب على سيئاته بواسطة ما قدمه من حسنات، أو ما يصل إليه من الغير لو كان ذلك الغير قد استغابه، أو كان الشخص مقتولاً، أو قد حصل أجر الشهيد نتيجة موته بغرق، أو حرق، وما شاكل مما هو منصوص عليه في الشريعة.

أما لو انتهت عملية المحاسبة في يوم القيامة وكان (والعياذ بالله) ممن جزاؤه

---

(١) سورة النساء: الآية، ٤٨.

جهنم، ونفذ عليه الحكم فإن باب المغفرة يغلق في وجهه من قبل الله تعالى.

كما سنوضح ذلك عندما نصل إلى تناول هذه الفقرة على الخصوص بالبحث.

والآن من الإجمال والعرض لما يحتويه الفصل من هذه الفهرسة إلى التفصيل في مطالعات الفقرات.

(يا رب وأنت تعلم ضعفي عن قليل من بلاء الدنيا).

البلاء في اللغة: هو الغم الذي يبلي الجسم.

وبهذه الفقرة يبدأ الداعي في بيان عدم قدرته على تحمل ما يطرأ على بدنه من عوارض في هذه الدنيا أولاً من بلائها، وهو القسم الأول فإنه اعتبار كونه انساناً يكون عرضة لكل ما يطرأ عليه من انحرافات مزاجية، فإن الجسم بما يشتمل عليه من الأجهزة يسير منتظماً على وفق نظام دقيق مرتب، وطريقة خاصة، يؤدي كل عضوٍ وظيفته الموكولة إليه فيحافظ البدن عندها على الصحة، ويكون معافىً من كل سوء.

أما إذا عرض لبعض تلك الأجهزة مرض من الأمراض فإن عدم قيام ذلك العضو بأداء وظيفة يوجب انحراف صحة ذلك الشخص ويسبب له آلاماً وانزعاجات تختلف بحسب الشدة والضعف تبعاً لنوعية المرض الطارئ أو الحوادث الطارئة على الجسم من جراء الخدوش أو الكسور وغيرها.

ومهما حاول الإنسان من المحافظة على صحته فإن الأمراض لا مفر منها، وعلى الأقل ما يلازم الحالات الطارئة من المصادفات الخارجية، والتي تلازمه نتيجة تقدمه في السن من ضعف وهزال وغيرهما، وكل ذلك من الابتلاءات الدنيوية التي يحسن الإنسان من جرائها بالآلام تورثه الغم، والذي هو: البلاء وهو ـ في الوقت نفسه ـ ضعيف لا يتحمل معاناتها.

(وعقوباتها).

وهذا هو القسم الثاني، من أنواع الابتلائات، والذي أطلق عليه الدعاء اسم العقوبة.

والعقوبات الدنيوية فإنها تلاحق الإنسان نتيجة مخالفاته لقضايا نهي عنها في الشريعة، ولكنه لم يرتدع عن ذلك فيكون الابتلاء بها من قبيل التأديب، أو ما يطلق عليه من الآثار الوضعية الدنيوية المترتبة على إيجاد ما نهي عن القيام به حفاظاً على وحدة النظام، ولنا على ذلك أحاديث كثيرة تصرح بهذا النوع من العقاب الدنيوي إلاّ أن الملاحظ على تلك الأخبار أن العقوبة التي يستحقها الفاعل على **نحوين**:

عقوبة: تخص مرتكب الذنب بالذات.

وعقوبة: تخص المذنب، وتسري إلى عقبه، وعقب عقبه.

أما العقوبة من القسم الأول: فيدخل فيها كل ما جاء في الحدود الشرعية من الجلد، والرجم، وقطع اليد، وغيرها من بقية الحدود التي تتعرض لها كتب الفقه في هذا المجال.

وتأتي هذه العقوبات مفروضة من قبل الشارع المقدس لتأديب أفراد المجتمع، وحسم مادة الفساد، ولئلا تشيع الفاحشة، وهكذا الحال في الظلم، والتجاوز على الآخرين، فلا يترك الله عزّ وجل عقابه إلى الدار الآخرة، بل يفرض له عقاباً دنيوياً للوقوف في وجه الظالم، وإنصاف المظلوم، وبهذا الخصوص جاء عن النبي (ﷺ) مروياً عن الامام الباقر (عليه السلام) قوله: (ما من أحد يظلم بمظلمة إلاّ أخذه الله بها في نفسه، وماله، وأما الظلم الذي بينه وبين الله، فإذا تاب غفر الله له) [1].

فالظلم حسب منطوق الخبر ظلمان:

ظلم يعود أمره بين العبد وربه، وهذا يرجع فيه إلى الله عزّ وجل وهو أملك به إن شاء غفره، وإن شاء عاقب عليه.

وظلم: يكون بين البشر أنفسهم حيث يتجاوز بعضهم على البعض الآخر، وهذا لا يتدخل الله في أمره، بل يعود في الحقيقة إلى المظلوم، فهو الذي يبت فيه إن

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ باب الظلم من كتاب الكفر والإيمان، حديث ١٢.

شاء تجاوز، وإن شاء بقي على ضلامته ليجد من حماية الله له ما يرد حقه إليه فهو نصير المظلوم، وخصم الظالم، وويل لإنسان يكون الله خصمه، ولهذا نجد الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) يحذر من مغبة هذا النوع من المصير الوخيم فيقول مخاطباً ولده الإمام الحسن (عليه السلام): «يا بني إياك، وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلاّ الله».

وهذا أمر طبيعي أن يعاقب الظالم في نفسه، وماله في دار الدنيا نتيجة ظلمه، وعدم إمهاله إلى الحساب الأخروي يوم القيامة.

فإن هذا التأديب الوقتي المعجل لازم لتأديب الآخرين في عدم إقدامهم على مثل ذلك العمل، وبذلك تكفل سعادة الأفراد، وحفظ حقوقهم وبهذا يستريح أبناء المجتمع الواحد من التعدي، ويأمن البعض من البعض الآخر.

أما الإبقاء، والإغضاء على مثل هذه التعديات فمعناه: عدم الانتظام، وعرقلة المسيرة الاجتماعية على نحوها الكامل.

وهكذا الحال في كثير من الأحاديث التي تعرض صوراً عديدة من مجازاة البعض بالفقر، والبعض بالمرض، وغير هذين من أنواع الابتلاءات الدنيوية.

وأما العقوبة من القسم الثاني: حيث يكون الجزاء والتأديب سارياً إلى من يتناسل من الجاني والمعبر عنه بعقبه، أو عقب عقبه فقد ورد في ابن الزنا حرمانه من بعض المناصب الدينية في موارد نصت عليها كتب الفقه.

وكذلك ما يصرح به الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) من قوله: «من ظلم مظلمة أخذ بها في نفسه، أو في ماله، أو في ولده»[(١)].

وهنا نرى الجزاء سرى من الجاني إلى ولده.

وبعرضنا لمثل هذا النوع من الجزاء التأديبي الساري من الجاني إلى عقبه في الطبقة الأولى، أو في الطبقات المتعاقبة من نسله سنواجه مشكلة لابد من التصدي لها، وحلها.

---

(١) المصدر المتقدم/ حديث ٩.

وتتلخص المشكلة، في أن هذا النوع من التأديب الساري لا ينطبق وقاعدة العدل الإلهي بالنظر إلى النتائج المترتبة على هذه السراية من أخذ البريء بذنب المجرم.

ـ وعلى سبيل المثال ـ فولد الزاني ما ذنبه ليمنع من بعض الحقوق التي يتمتع بها الآخرون من الزعامة الدينية، أو إمامة الجماعة في كثير من أقوال الفقهاء، وهكذا مع أنه مثال الورع التقي؟

أو أن ولد الظالم لماذا يؤخذ بأشق الأحوال، وهو شخص طيب متدين؟

ونظير هذا ما جاء في مسألة الرق فإن من أحكام الشريعة الإسلامية هي استرقاق المسلمين للكفار بشروط تذكر في باب الجهاد من كتب الفقه، ولا ينفع إسلام الأسير بعد إسترقاقه في حال الحرب، بل يبقى الرق ملازماً له، ولولده ما تناسلوا. وهذا ما يفتح على الشريعة نفس الإشكال الذي ذكرناه الآن فإن ولد المأسور، وعقبهم، وهكذا ما تناسلوا ما هو ذنبهم، وأبوهم، أو جدهم، أو أحد أجدادهم، ولو كان بعيداً كافراً كان أو محارباً، وقد أسره المسلمون فكان رقاً لهم. وإن هذا الولد، أو الحفيد، أو من تناسل يجد نفسه الآن مسلماً، وليس هو الجانب فلِمَ يؤخذ بأشق الأحوال؟

مشكلة لابد لها من حل:

ولابد لنا من حلٍ لهذه المشكلة، لذلك نهرع إلى أهل البيت (عليهم السلام) لنبحث بين الأحاديث المروية عنهم لعلنا نجد ما يلقي الضوء على الخطوط الأولية لحل هذه المشكلة.

ومن استعراضنا لبعض الأحاديث يظهر لنا أن بعض طلاب مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) تصدى لعرض المشكلة على الامام ليسمع منه الجواب.

يقول عبد الأعلى مولى آل سام: (قال أبو عبد الله (عليه السلام): من ظلم سلط الله عليه من يظلمه، أو على عقب عقبه. قلت: هو يظلم فيسلط الله على عقبه، أو على عقب

عقبه؟ فقال: إن الله عزّ وجل يقول: ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[1].

ويأتي جواب الإمام (عليه السلام) لعبد الأعلى بإحالته على الآية الكريمة والتي وردت في أولياء اليتامى من تذكيرهم بيوم قد يتركوا يتامى، فيوكل أمرهم إلى أولياء أيضاً، فإذا هم رحموا هؤلاء اليتامى قدر الله من يرحم يتاماهم، والعكس بالعكس.

ويسمى هذا الجواب بالإصطلاح العلمي (جواباً نقضياً) أي إجابة السائل بعدم الاستبعاد، فإن مثل ذلك قد وقع في القرآن الكريم.

والجواب النقضي في الحقيقة لا يحل الإشكال، ويرفع ما يعلق بنفس المعترض من إبهام، بل ربما يقول البعض: بأن الجواب النقضي يزيد في الإشكال لا أنه يرفعه. فيقال أيضاً في الإشكال على نفس الآية: بأنه ما ذنب اليتيم الجديد يقيض الله له ولياً لا يرحمه لأن أباه لم يرحم من كان من اليتامى يتولى أمره؟

ولنترك السائل عبد الأعلى، ومدى قناعته بهذا الجواب، ولا نتوغل في السبب الذي دعا الإمام أن يجيب بالجواب النقضي ولا يجيبه جواباً حلياً.

ولا ندري فلربما كان المقام يقتضي بيان هذا النوع من الجواب لمصلحة لاحظها الإمام (عليه السلام) في عدم التوسع في الإجابة علينا، وبعد ذلك أجابه بحل الإشكال.

وفي هذا الصدد نرى الشيخ المجلسي، وهو من كبار علماء الطائفة الجعفرية يعلق على جواب الإمام النقضي في الحديث المذكور، فيقول: ولما كان استبعاد السائل عن إمكان وقوع مثل هذا ـ لا عن أنه ينافي العدل ـ فأجاب (عليه السلام) بوقوع مثله في قضية اليتامى. أو أنه لما لم تكن له قابلية فهم ذلك، وأنه لا ينافي العدل أجاب بما يؤكّد الوقوع، أو يقال رفع (عليه السلام) الاستبعاد بالدليل الإني وترك الدليل اللمي والكل متقاربة.

وأما دفع توهم الظلم في ذلك فهو، أنه يجوز أن يكون الألم بالغير لطفاً لآخرين

(١) سورة النساء: الآية، ٩ ، الشيخ الكليني: الكافي/ باب الظلم من كتاب الكفر، والإيمان، حديث ١٣.

مع تعويض أضعاف ذلك الألم بالنسبة إلى من وقع عليه الألم بحيث إذا شاهد العوض رضي بذلك الألم، كأمراض الأطفال، فيمكن أن يكون الله تعالى أجرى العادة بأن من ظلم أحداً، أو أكل مال يتيم ظلماً أن يبتلى أولاده بمثل ذلك فهذا لطف بالنسبة إلى كل من شاهد ذلك، أو سمع من مخبر علم صدقه، فيرتدع عن الظلم على اليتيم، وغيره، ويعوض الله الأولاد بأضعاف ما وقع عليهم أو أخذ منهم في الآخرة مع أنه يمكن أن يكون ذلك لطفاً بالنسبة إليهم أيضاً، فيصير سبباً لصلاحهم، وارتداعهم عن المعاصي، فإنا نسلم أن أولاد الظلمة لو بقوا في نعمة آبائهم لطغوا وبغوا كما كان آباؤهم فصلاحهم أيضاً، في ذلك، وليس في شيء من ذلك ظلم على أحد [1].

وبتعبير آخر: أن المصالح الاجتماعية، وما تقتضيه في سبيل الحفاظ على النظام العام، قد تفرض أحكاماً يكون الحيف وارداً على البعض، ولكن ذلك لا يضر ما دام فيه رعاية المصلحة العامة مع تدارك ما يقع على المظلوم من حيث بإضعاف ما فاته.

ـ وعلى سبيل المثال ـ فإن وقوع الظلم على يتامى الظالم حيث يتوخى من ورائه تأديب الأولياء يتسامح فيه لأجل هذه الغاية مع إمكان أن يكون الله سيجبر هؤلاء اليتامى بأنواع الحسنات بها يجبر كسرهم، ويزيد، وهكذا أولاد الظلمة، وأولاد الزنا، وأولاد العبيد. كل أولئك يجبرون بها يعوض خسارتهم، ولدى النتيجة:

إذاً، لا يكون في ذلك عليهم ظلم، لأن الظلم كما تقول عنه كتب اللغة:

هو: وضع الشيء في غير موضعه، وظلمه: جار عليه، ونقصه حقه [2].

ومع التعويض، وجبران الحيف لا يكون في البين ما يدعو إلى تسمية ذلك ظلماً.

ومن هذا القبيل، نتعرض إلى مثالٍ آخر يوضح لنا المطلوب ويلقي ضوءً على عدم وجود الحيف بعد التعويض، وهو ما تذكره الكتب الفقهية من أنه لو تترس

---

(١) المجلسي: مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول/ ١٠، ٣٠٣، منشورات المطبعة الحيدرية، طهران.
(٢) ابن منظور: لسان العرب/ مادة (ظلم).

الكفار بأسارى المسلمين بأن جعلوهم في الصفوف الأمامية لجيش المشركين.

والغرض من ذلك هو إيقاف الجيش الإسلامي حيث يتوقف المسلمون من قتل أسراهم وبهذه العملية يتقدم المشركون في زحفهم، وفي هذه الصورة يوجب الفقهاء استمرار الذين تترس بهم المشركون، ووضعوهم في الصفوف الأولية من جيشهم ـ وفي الوقت نفسه ـ يحكم الفقهاء كتعويض أولي.. دفع دية المقتولين إلى ورثتهم، ويتحمل الدية بيت مال المسلمين، وهو الموضوع لمصالحهم.

أما التعويض الأخروي: فلهم من الله الجنة لأنهم شهداء وقعوا صرعى في معركة الحق مع الباطل.

وبهذا الجواب، من بيان فكرة التعويض تخف حدة الإشكال المذكور. فإن المصلحة الخاصة تذوب في المصلحة العامة رعاية لحفظ وحدة المجتمع، وحفاظاً على الإطار العام الذي تحدده الشريعة في هذا الخصوص.

وعوداً لموضوعنا من بحث أنواع الابتلاءات الدنيوية، والتي لا يقوى الإنسان على تحملها. نعود لنذكر:

القسم الثالث: مما جاء في فقرات الدعاء وهو (المكاره) حيث ورد في قوله:

(وما يجري فيها من المكاره على أهلها).

والمكاره: جمع (الكره) بالفتح، وهو المشقة.

وتنشأ المكاره من عوامل: الفقر، والخوف، والضيق، وبقية ما يكون حصوله موجباً للمشقة للإنسان، وقد لا يخلو الإنسان من كثير من هذا النوع، وغيره من المضايقات مما يضيق به ذرعاً، وقد جاء في بعض الأدعية ما عدد به الدعاء نعم الله على الداعي حيث عافاه مما ابتلى به غيره، ومن ذلك: «إلهي وكم من عبدٍ أمسى، وأصبح، خائفاً، مرعوباً، مشفقاً، وجلاً هارباً، طريداً، منجحراً في مضيق، ومخبأة من المخابئ، وقد ضاقت عليه ضارباً برحبها لا يجد حيلة، ولا منجىً، ولا مأوىً، وانا في طمأنينةٍ، وعافية من ذلك كله».

إلهي، وسيدي، وكم من عبدٍ أمسى، وأصبح، مغلولاً، مكبلاً في الحديد بأيدي العداة لا يرحمونه فقيداً من أهله، وولده منقطعاً عن إخوانه، وبلده يتوقع كل ساعة بأي قتلة يقتل، وبأي مثلة يمثل به، وأنا في عافية من ذلك كله).

ويأخذ الدعاء في عرض صور من حالات هؤلاء المتحيرين الذين نزلت بهم المكاره فيقول:

إلهي، وسيدي، وكم من عبدٍ أمسى، وأصبح في ظلمات البحار، وعواصف الرياح، والأهوال، والأمواج.

إلهي، وسيدي كم من عبدٍ أمسى، وأصبح فقيراً عائلاً، عارياً مملقاً، مخفقاً، جايعاً ضمآناً.

هذا نموذج من نماذج، وصور المكاره، والمشاق التي تحيط بالإنسان ـ كبشر ـ في هذه الدنيا، وله الحق في أن يضج إلى ربه متوسلاً في دفع ما يترتب عليه من عذاب، وجزاء لأنه، وهو ضعيف غير متحملٍ لهذه الطوارئ، كيف يتحمل ما هو أعظم منها؟

على أن هذه العوارض لا تعد شيئاً في قبال عذاب الله الأخروي لما يذكره الداعي من قوله الداعي في الدعاء من قوله:

(على أن ذلك بلاء، ومكروه قليل مكثه، يسير بقاؤه، قصير مدته).

وطبيعي أن يكون بلاء الدنيا، ومكارهها موصوف بأنه:

قليل مكثه، يسير بقاؤه، قصير مدته، إذا قورن بعمل الإنسان الذي لا يتجاوز عدد الأصابع بالسنين بالنظر إلى سني الآخرة، والتي يعبر القرآن الكريم عن يوم القيامة بقوله عزّ وجل: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[1].

ولسنا في صدد بيان مقدار هذا اليوم بالتحقيق، وقياسه على أيامنا، وكيفية

---

(١) سورة المعارج: الآيات، ٤ ـ ٧.

تصور هذا لبقية الأيام، وكيفية استمراره من دورات فلكية تخص ذلك الزمان، بل المهم هو القول: بأن أيام الآخرة تختلف عن أيامنا بهذا الفارق من النسبة.

(فكيف احتمالي لبلاء الآخرة وجليل وقوع المكاره فيها وهو بلاء تطول مدته ويدوم مقامه).

لقد طفحت الآيات الكريمة تذكر بلاء الآخرة، وقد قيل: أن المراد بالآخرة هو الحالة بعد الموت، وبطبيعة الحال أن الدنيا بناءً على هذا هي الحالة ما قبل الموت، ولذلك يبدأ البلاء من حالات الاحتضار، وسكرات الموت، وما بعد الموت من دخول القبر، وأهواله، والبقاء إلى يوم القيامة، وأهوال القيامة، وما جاء في وصف ذلك اليوم، وشدائده، ثم بعد ذلك ما يلاقيه الإنسان من الحساب، والوقوف في ساحات المحشر، وإذا كان من أهل الجحيم فما يلاقيه المجرم من العذاب، والشدائد وطول المدة، ولا يسعنا أن ننقل كثيراً من الآيات، والأحاديث الواردة في هذه المشاهد إذ لا يسع هذا المختص، والاحتجاج إلى كثير من الوقت ولخرجنا عن صلب الموضوع.

ولكنا، وحيث كان اللازم متابعة الدعاء في الفقرة المذكورة من قوله: (فكيف احتمالي لبلاء الآخرة). المنزلة على الاستفهام الحقيقي أو المجازي الذي أخرج مخرج التعجب، فعلينا أن نذكر لكل مشهد من المشاهد المذكورة شيئاً على سبيل الاختصار لنشارك الداعي بعدها في تعجبه من كيفية احتماله لبلاء الآخرة الحتمي. ـ والقارئ الكريم، وكل من يدعو الله بأي دعاء يتضرع إليه ـ بكنف الله، ولطفه ليرعانا يوم لا ينفع مال، ولا بنون.

الاحتضار، وسكرات الموت:

ماذا ينقل الإنسان عن حالة المحتضر، وما يلاقيه من آلام تلازم خروج روحه من بدنه، ويكفينا أن نقدر الموقف، ونوليه الاهتمام الكثير عندما نرى النبي الأكرم(ﷺ) وماله من المنزلة عند الله، وأنه شفيع هذه الأمة ـ مع كل هذا ـ تتفق كتب الحديث أنه كان يكرر عند احتضاره قوله:

(اللهم هوِّن عليّ سكرات الموت).

أو قوله لجبرائيل: (حبيبي عند الشدائد لا تخذلني).

ولندع كثيراً من الأحاديث جانباً، والتي جاء فيها ما نقل عن النبي (ﷺ) قوله، وهو يدخل على مريض: (إني أعلم ما يلقى. ما منه عرق إلاّ ويألم للموت على حدته)[١].

وما روي عن موسى بن عمران (عليه السلام): (إن الله سأله كيف وجدت الموت. فقال: وجدت نفسي كشاة حية تسلخ بيد القصاب)[٢].

وغير هذا، وذاك من الأحاديث التي تحمل معها مدى الرعب من عملية الاحتضار، وخروج الروح، بل لنقف بين يدي قول النبي (ﷺ) المتقدم، والذي قاله عند احتضاره «اللهم هون عليّ سكرات الموت وغصصه»[٣].

أو قوله: (اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب، والقصب والأنامل، اللهم فاعني على الموت، وهونه عليّ)[٤].

أو تعبيره السابق: (عند الشدائد لا تخذلني).

ومما لا شك فيه أن منزلة نبينا على الخصوص عند الله عظيمة جداً ويكفي دلالة على عظم منزلته ما صرح به القرآن الكريم من قوله تعالى:

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾[٥]. وقوله بعد ذلك: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۞ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[٦].

ولسنا في صدد ما يقوله المفسرون من هاتين الآيتين، ومعنى الرؤية وكيفية الدنو

(١ ـ ٢) لاحظ لهذه الأحاديث، وما بعدها الغزالي: إحياء علوم الدين/ ٤، ٥٧٤ ـ ٥٧٥.

(٣) السيد ابن طاووس: إقبال الأعمال/ ٢، ٣٦٤.

(٤) حسن بن علي السقاف: صحيح شرح العقيدة الطحاوية/ ٤٦٥.

(٥) سورة النجم: الآية، ٩.

(٦) سورة النجم: الآية، ١٣ ـ ١٥.

فلذلك مجال آخر، بل المهم هو أن مما لا شك فيه هو حصول القرب بينه، وبين ربه تعالى على هذا النحو من التداني القريب، وإن دل هذا فإنه يدل على علو مكانته عند الله ـ وفي الوقت نفسه ـ لم يحظ بذلك من سبقه من الأنبياء.

ومع كل هذا وغيره فإنا نقف، والهول يأخذ منا مأخذه عندما نسمعه، ولو بعد أجيال طويلة يردد، وهو على فراش الموت.

(اللهم هون عليّ سكرات الموت).

وإذا كان مثل النبي (ﷺ) يطلب من ربه أن يهون عليه هذه الحالة، ويطلق عليه اسم الشدائد، فكيف بالداعي، وقد سودت وجهه الذنوب؟

القبر وأحواله:

يقول البراء بن عازب: خرجنا مع رسول الله (ﷺ) في جنازة رجلٍ من الأنصار فجلس رسول الله (ﷺ) على قبره منكِّساً رأسه ثم قال: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر». قالها ثلاثاً [(١)].

النبي العظيم يتعوذ من عذاب القبر فماذا سيلاقيه النبي (ﷺ) حتى يتعوذ من عذابه، وهو رسول الله، وحبيبه؟

وجاء عن حذيفة قوله: «كنا مع رسول الله (ﷺ) في جنازة فجلس على رأس القبر، ثم جعل ينظر فيه ثم قال: يضغط المؤمن في هذا ضغطة ترد منه حمائله» [(٢)].

وعن أنس أنه قال: (توفيت زينب بنت رسول الله (ﷺ) وكانت امرأة مسقامة فتبعها رسول الله (ﷺ) فساءنا حاله. فلما انتهينا إلى القبر، فدخله انتقع وجهه صفرة. فلما خرج أسفر وجهه فقلنا يا رسول الله (ﷺ): رأينا منك شأناً فمم ذلك؟

قال: ذكرت ضغطة ابنتي، وشدة عذاب القبر، فأتيت فأخبرت أن الله قد خفف

---

(١) الغزالي: احياء علوم الدين/ ٤، ٦١٩ ـ ٦٢٥.

(٢) المصدر المتقدم.

عنها، وقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين [١].

ولنقف عند قوله: (وقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين). بعد قوله: (فأخبرت أن الله قد خفف عنها).

فالميتة بنت رسول الله (ﷺ)، وهي كانت مسقامة، ومعنى ذلك: أنها كانت دائمة المرض، وفوق كل ذلك قد أخبر أبوها أن الله قد خفف عنها، وكان من نتائج ذلك كله أنها ضغطت وسمع صوتها ما بين الخافقين.

إذاً، فكيف بالداعي، وهو يرفل بذنوبه ليتوسد قبراً خفف عن ابنة رسول الله(ﷺ) فيه بعد الأخبار بتخفيف الله عنها، فضغطت ضغطة كما مر علينا ذكره. فله الحق أن يضج قائلاً: (فكيف احتمالي لبلاء الآخرة)، وهو في القبر بعد في أول المسيرة الأخروية.

القيامة وأهوالها:

يوم القيامة: هو يوم البعث، وخروج الناس بعد أن كانوا رمساً. وهو يوم الحساب على ما عمله الإنسان في دار الدنيا.

ومصدرنا عن الحديث عنه ليس إلاّ القرآن، والسنة النبوية، وعندما تتعرض الآيات القرآنية لصفة ذلك اليوم نجد له صوراً مرعبة في لسان الآيات الكريمة، ولنا أن نستعرض البعض منها: يقول عزّ وجل: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ * وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [٢]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [٣]. ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا

---

(١) المصدر السابق والموضوع نفسه: ٦٢٥.

(٢) سورة التكوير: الآيات، ١ ـ ٦.

(٣) سورة القارعة: الآية، ٤ و ٥.

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾[(١)].

وزلزلة الساعة، إما هي: البدء بيوم القيامة حيث ينفخ في الصور، أو أنه يوم القيامة نفسه عبر عنه بهذا اللفظ، وعلى كل حال، إنه يوم مهول، مرعبة مناظره، يتغير فيه الكون عن سيره الطبيعي، فيشمل الأجرام السماوية، والأرضية، وما فيها من مخلوقات، من: الشمس، والنجوم، والجبال، والبحار، والحيوان، بما فيه أليف، ووحش إنه يوم الانقلاب التام، وفيه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[(٢)].

وهو اليوم الذي تذهل فيه الأم الرؤوم عن قطعة كبدها، وهو الرضيع يلقم ثديها فتتركه غائبة الرشد تائهة لا تعي شيئاً مما حولها، وتضع كل حملٍ حملها من الرعب، والدهشة، إنه وضع غير طبيعي.

والناس تراهم سكارى، وما هم بسكارى، وإنما رهبة الموقف جعلتهم حيارى، وأخذت عليهم آفاق التفكير، فهم سكارى من هول المشهد الهائج بشمسه، ونجومه، وجباله، وبحاره، ووحوشه، وأنعامه، وهم حيارى من شدة الفزع.

لقد نسي الإنسان وسط هذا الجو نفسه فتراه يفر: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٖ شَأْنٞ يُغْنِيهِ﴾[(٣)].

هذا الإنسان الاجتماعي يفر من هذه المجموعة التي أفنى عليها زهرة عمره فكان يجمع لهم من الحلال والحرام ما يسد به جوعهم، ويؤذيه ما يؤذيهم، ويفرح لفرحهم، أصبح اليوم يفر منهم ليرى مصيره، فهو مشغول بنفسه، وليست القضية من طرف واحد فالكل هذه حالته.

رعب، وفزع، وذهول، ولكلٍ منهم في ذلك اليوم شأن يغنيه. لأنه هو الذي

---

(١) سورة الحج: الآية، ١ و ٢.

(٢) سورة إبراهيم: الآية، ٤٨.

(٣) سورة عبس: الآيات، ٣٤ ـ ٣٧.

سيحاسب، وهو الذي سيؤدي ضريبة ما جناه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾[1].

ويبدأ الحساب، وتمر مشاهد الدنيا أمام عينيه، وتتجسد الأعمال وتشهد الأيدي، والأرجل، وبقية الجوارح كل بحسب ما يوكل إليه.

وتصنف الجموع البشرية وإذا بهم يقسمون إلى قسمين:

جمعت وصفهم الآية في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾[2].

الوجوه الضاحكة هي المؤمنة بالله، والآخذة بتعاليمه، والممهدة طريقها لمثل هذا اليوم، وللوقوف في مثل هذا الموقف العصيب، لذلك فهي ضاحكة مستبشرة لأنها نفوس آمنة مطمئنة رجعت إلى ربها راضية مرضية.

وأما الوجوه التي عليها غبرة: فهي تلك الوجوه الكالحة التي تمر بآيات الله وبتعاليمه مروراً عابراً لم تتزود من ممرها لمثل هذا الموقف، بل كان همها أن تنال من دنياها النصيب الأوفر: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[3].

ولنقف بهذه المسيرة إلى هذا الحد فلنا في وصف جهنم لقاء آخر عند تعرض الدعاء في فقراته إلى جهنم، وما يلاقي الإنسان فيها من أهوال.

وعلى كل حال، هذا جزء من بلاء الآخرة، وكله مقدمة للعذاب الذي لا يطاق في جهنم، لذلك نرى الداعي يتعجب من تحمله لهذا البلاء الذي هو (بلاء تطول مدته، ويدوم مقامه).

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ٣٠.

(٢) سورة عبس: الآيات، ٣٨ ـ ٤١.

(٣) سورة الاعراف: الآية، ٥١.

وإذا كان يوم القيامة «مقداره خمسين ألف سنة» كما تنص عليه الآية فماذا سيكون مقدار المكوث في النار لمن يقدر له أن يكون جزاؤه العذاب الأليم.

وقد نقل عن النبي الأكرم (ﷺ) أنه تلا هذه الآية، ثم قال: (كيف بكم إذا جمعكم الله كما تجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم)[1].

(ولا يخفف عن أهله).

والذي يظهر من هذه الفقرة، وهكذا ما يماثلها من الفقرات في غير هذا الدعاء أن الإنسان إذا حوسب يوم القيامة على أعمالها، وحكم عليه بما يستحقه من جزاء فإنه لا يخفف عنه بعد ذلك بالعفو ما رتب عليه من جزاء حكم عليه به.

وقد دلت على ذلك عدة آيات من الكتاب المجيد قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾[2]. وقوله تعالى:

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾[3]. وقوله عزّ وجل:

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾[4]. وقوله تعالى:

﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ ﴾[5]. وأصرح من ذلك ما جاء في قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴾[6].

إنه منتهى الالتماس يطلبه المعذبون من خزنة جهنم، والموكلين بها يريدون أن يكونوا شفعاء لله في تخفيف يوم واحد من العذاب عنهم ليهدئوا من حرها، وسعيرها.

---

(١) نقل ذلك الغزالي: إحياء علوم الدين/ ٤، ٦٣٩ . عن الطبراني في التفسير الكبير .

(٢) سورة البقرة: الآية، ٨٦.

(٣) بهذا النص جاءت آيتان الأولى في سورة البقرة: الآية، ١٦٢ والثانية في سورة آل عمران: الآية، ٨٨.

(٤) سورة النحل: الآية، ٨٥.

(٥) سورة فاطر: الآية، ٣٦.

(٦) سورة المؤمن: الآية، ٤٩.

وهل وجدت الضراعة طريقاً لها تحقق آمال هؤلاء البؤساء.

ويأتي الجواب واضحاً بالسلب، فأنى لخزنة جهنم أن يشفعوا لهم لأنهم ليسوا بتلك المنزلة التي تخولهم الشفاعة بل كانت النتيجة هي الحوار التالي:

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ [١].

والمراد بالبينات في سؤال الخزنة هي: الأنبياء، والمرسلون الذين بلغوا الأحكام، وبينوا الحقائق عن الله عزّ وجل فلم يدعوا شيئاً من أحكام الشرائع إلاّ وقد أوصلوه إلى البشر فليس هؤلاء المعذبون بقاصرين بل مقصرين، لذلك كان جوابهم لخزنة جهنم: ﴿قَالُواْ بَلَىٰۚ﴾ [٢].

وماذا بعد (بلى)، والاعتراف ببلى، أو نعم، أو ما شاكل مما لا مجال معه لكل توقف.

إن جواب الخزنة لهم بعد الاعتراف كان يحمل بين طياته كل معاني التعجيز، والإزدراء، والمهانة لذلك: ﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ﴾ [٣].

ولكن لتعلموا أن دعاءكم لا جدوى فيه لماذا؟

﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [٤].

والملاحظ على هذه الآيات الكريمة أنها مطلقة تشمل كل مذنب صدر عليه الحكم في يوم القيامة، ومن هنا نصطدم بمشكلة «الشفاعة».

فإن القرآن الكريم كما صرحت آياته بعدم التخفيف عن كل مذنب بعد محاسبته كذلك نصت آياته على الإقرار بمبدأ الشفاعة، وقبول الوساطة ـ على النحو الإجمالي ـ في التخفيف عن بعض ما يحكم به على المذنبين.

---

(١) سورة المؤمن: الآية، ٥٠.

(٢) من تمام الآية، السابقة ٤٩ من سورة المؤمن.

(٣) من تمام الآية، السابقة ٤٩ من سورة المؤمن.

(٤) من تمام الآية، السابقة ٤٩ من سورة المؤمن.

قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [١].

وقال سبحانه: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [٢].

وهكذا تتوالى الآيات الكريمة فيقول تعالى:

﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [٥].

وأما الأخبار الواردة في الشفاعة، فهي كثيرة جداً، وقد زخرت بها كتب الحديث من كافة المذاهب جاء منها: (إن شفاعتي يوم القيامة لأهل الكبائر من أمتي) [٦]. وقوله: «شفاعتي لكل مسلم» [٧]. وقوله: (إني لأرجو أن أشفع يوم القيامة عدد ما على الأرض من شجرة ومدرة) [٨].

ولا يسعنا أن نتوسع في النقل لأحاديث الشفاعة، وهي ـ كما قلنا ـ من الكثرة بمكان، ولربما تجاوزت المائة، وكلها بهذا النحو من البيان الذي عرضنا البعض منها، ونتعرض إلى عرض البعض الآخر في ثنايا البحث.

إذاً، فكيف نجمع بين هذه الآيات الكثيرة، والأخبار العديدة من جهة؟ وبين الآية في قوله تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾[٩].

وكذلك ما جاء في الدعاء من قوله: (ولا يخفف عن أهله) من جهة أخرى.

---

(١) سورة البقرة: الآية، ٢٥٥.

(٢) سورة يونس: الآية، ٣.

(٣) سورة مريم: الآية، ٨٧.

(٤) سورة الأنبياء: الآية، ٢٨.

(٥) سورة سبأ: الآية، ٢٣.

(٦ـ٧ ـ٨) لاحظ أبو عبد الله القزويني: سنن ابن ماجة/ ٢، ١٤٤١ و ١٤٤٤، وأحمد بن حنبل: مسند أحمد/ ٥، ٣٤٧.

(٩) سورة البقرة: الآية، ١٦٢.

ذلك لأن الفريق الأول من الآيات، والروايات يثبت أن للشفيع المكانة في التخفيف عن العذاب والجزاء، بينما الفريق الثاني يغلق الباب فلا يدع مجالاً لكل تخفيف عما رتب من الجزاء.

ولابد لنا، ونحن في صدد الجمع بين هذه الآيات، والروايات، والخروج بالحلول لهذه المشكلة من استعراض الموضوع بشكل من التفصيل فنقول:

الشفاعة تعريفها:

الشفاعة: مصدر شفع. والشفع بالسكون خلاف الوتر، وشفع لي شفاعة، طلب لي، وسأل.

فالشفيع: من يطلب الشفاعة، والتي هي طلب العفو من الله عزّ وجل إلى المذنب، وحيث ينضم الشفيع إلى المذنب في الرجال فمعناه: تقوية جانب من طلبت الشفاعة له، وبذلك يحصل على ما لم يحصل عليه لو كان وحده (١).

الحاجة إلى الشفاعة:

والشفاعة بهذا المعنى لا مجال لإنكارها لوجودها بين الناس من القديم بل هي أمر ملازم للسلطة، والسلطان، فإن المحكوم عليه مهما كان نوع الحكومة ـ دنيوية، أو أخروية ـ يتذرع لرفع الحكم عنه، أو لتخفيفه بمن له المنزلة عند الحاكم من غير فرقٍ بين أن يكون الحاكم هو الله أو من البشر فيكون شفيعاً له في ذلك الأمر.

وجاء الإسلام ليقر هذا المبدأ، ولكن بشروط خاصة تظهر لنا من ثنايا البحث.

ولا حاجة لنا للاستدلال على موضوع الشفاعة، وإقرارها في الأمور الدنيوية، وفيما يكون بين البشر في كل مكان يحصل فيه حاكم، ومحكوم وظالم، ومظلوم، فإن تذرع المذنب، أو من كانت له الحاجة عند الغير إلى من له المكانة عند ذلك الغير صاحب النفوذ، والسلطة أمر لا يقبل الجدل، والنقاش لأن الضعيف حريص على تقوية جانبه والفرار عما يرتب عليه من جزاء، أو ما شاكل من الأمور الدنيوية.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب/ مادة (شفع).

نعم، علينا أن نبحث عن الدليل للإقرار بهذه العملية من جانب الشارع المقدس، والذي صرحت آيات كتابه المجيد ـ كما بينا ـ بأن المجرمين:

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾[١]، أو قوله ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[٢] وغير هذين مما جاء مصرحاً بأن المذنب لابد له من نيل الجزاء طبقاً لقاعدة العدل والإنصاف حيث لا يتساوى المذنب مع غيره.

الشفاعة بين الرفض والقبول:

نظراً إلى الآيات، والروايات المتكاثرة، والتي تنص على مبدأ الشفاعة، وصلاحية البعض للتشفع في أمر الآخرين، نرى الكثير من الفرق الإسلامية تقول بهذا المبدأ، وتؤمن بأن لبعض الذوات ممن لهم المكانة السامية عند الله مثل هذه الصلاحية.

ونستعرض في ضمن البحث لما يعتمد عليه هؤلاء في دعم ما يذهبون إليه في هذا الخصوص.

وفي قبال هؤلاء من ينكر هذه الصلاحيات، ويذهب إلى أن شفيع الإنسان عمله. أما التوسل بالصالحين، ومن لهم المنزلة الكريمة عند الله، فإن ذلك من باب الخروج عن الخط المستقيم الذي ينادي به القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٣].

وهكذا ما ورد في كثير من الأحاديث الواردة عن النبي (ﷺ) من أنه: «لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى»[٤].

وغير هذا مما يشعرنا بأن العمل هو المقياس في حصول الثواب والعقاب، على

---

(١) سورة البقرة: الآية، ١٦٢.

(٢) سورة الجن: الآية، ٢٣.

(٣) سورة الحجرات: الآية، ١٣.

(٤) أحمد بن حنبل: مسند احمد بن حنبل/ ٥، ٤١١.

أن هناك اشكالات عديدة يتذرع بها القائلون برفض الشفاعة يأتي في مقدمتها:

إن تخفيف العذاب، أو رفعه عن المذنب بعد الحساب، والاستحقاق لا يخلو الحال فيه:

فإما أن يكون عدلاً، أو يكون ظلماً.

فإن كان التخفيف عدلاً فلابد أن يكون الحكم عليه بالعقاب ظلماً، وهذا لا يجوز نسبته إلى الله سبحانه العادل في بريته.

وإن كان ظلماً: كان سؤال الشفيع بالتخفيف طلباً للظلم من الله، وهذا أيضاً لا تصح نسبته إلى مثل الأنبياء، والمعصومين، وهم الصفوة المنزهة من كل عيب، وذنب، وإلاّ لما كان لهم أن يقودوا الأمة ويرشدوا أبناءها إلى ما فيه الخير، والصلاح.

ومن الإشكالات، أن فسح المجال للتشفع في أمر المذنبين مما يفسح المجال لتكرار الجريمة، فإن المذنب يجد من وجود الشفيع وسيلة للعود إلى ما صدر منه، وهكذا يذنب، والشفيع يشفع له. ويلزم من هذا التكرار إضافة لشيوع الجرائم، وتعددها: الاستهانة بالأحكام الشرعية، وعدم الحرمة للقوانين، والأنظمة التي يتوخى من ورائها حفظ المجتمع بحفظ أفراده من النزول إلى الحضيض.

بهذا وأمثاله أشكل القائلون برفض مبدأ الشفاعة.

الرد على القائلين بالرفض:

وبالإمكان الرد على هؤلاء القائلين بالرفض بأن رفض الشفاعة على نحو رفض هذا المبدأ كلية، وغلق الباب في وجه كل شفيع أمر تكذبه الآيات، والروايات المتكاثرة، والتي لا مجال للاستهانة بها.

كما أن الأخذ بهذا المبدأ من إطار فتح الباب على مصراعيه، كما يقولون أمر لا مجال للقول به، بل لابد من الأخذ به، ولكن على شروط خاصة لابد من خضوع عملية الشفاعة لها.. فإن تكاملت تلك الشروط أخذت هذه العملية سيرها على مجاريها الطبيعية، وعند عدم التكامل فالنتيجة هي القول بالرفض، ولمعرفة الشروط

المطلوبة لابد من ملاحظة الأركان التي تتقوم بها هذه القضية من جميع أطرافها ليكون البحث في كل منها إلى الانفراد.

والأركان الأساسية لعملية الشفاعة أربعة، وهي:

١ـ المشفِع (بالكسر).

٢ـ الشفيع.

٣ـ المشفع له.

٤ـ المشفع فيه.

أولاً ـ المشفِع:

المشفِع: بالكسر، هو: كل من كان الآخرون محتاجين إليه سواءً في دفع عقاب، أو نيل ثواب، أو حاجة دنيوية، أو أخروية.

والمشفع: في موضوع بحثنا هو: الله عزّ وجل حيث يتوجه إليه المذنبون، ويرجو فضله المقصرون، ويطلب من فيض آلائه العابدون.

كل أولئك يتوجهون إليه ليستزيدوا من فضله، أو ليدفعوا عنهم ما كتب عليهم من جزاء.

ثانياً ـ الشفيع:

الشفيع: هو الواسطة بين الطرفين للشفاعة في شيء.

وفيما نحن فيه.. هو الواسطة بين العبد وربه، بشراً كان ذلك الشفيع، أم غيره عملاً بمنطوق الآية الكريمة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾[1].

والوسيلة: هي ما يتقرب به إلى الغير.

---

(١) سورة المائدة: الآية، ٣٥ .

والاقتصار على كون الوسيلة بشراً، أو عملاً، أو من الملائكة.. يتنافى، وإطلاق الآية. لأن ظاهرها الأمر بطلب الوسيلة، وهي ـ كما قلنا ـ كل سبب يتوصل به إلى الله تعالى.. بغض النظر عن نوعية السبب.

ومن هذا المنطلق نقول، بتنوع السبب الرابط بين العبد، وربه في الشفاعة للتخفيف من ذنوبه، أو لاستجابة مطالبه، ولو كانت دنيوية.

وإذا لاحظنا السبب الرابط، والذي هو ـ الشفيع ـ في مصطلحنا لأمكن تقسيمه إلى قسمين:

١ـ ما يكون من أعمال الإنسان، ونواياه.

٢ـ ما يكون من مخلوقات الله من البشر، أو الملائكة.

الشفيع من القسم الأول:

تتعرض الآيات والأخبار إلى عرض بعض الأعمال التي تكون سبباً في تخفيف الذنوب، أو محوها عن المذنبين ومن يطلق على ذات العمل عنوان (الشفيع).

تقول الآية الكريمة: ﴿ **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾[1].

المغفرة: على ما صدر من المذنب من مخالفات نتيجة عدم انصياعه لأوامره، ونواهيه.

وأما الأجر: فهو في مقابل ما قدمه ذلك الشخص في حياته من القيام بما كلف به من قبل الشارع المقدس من الأحكام الشرعية.

والمغفرة، والأجر... كان السبب في حصولهما الإيمان، والعمل الصالح.

إذاً، فهذان العاملان يكونان عنوان (الشفيع) في هذا الوعد التي تصرح به الآية بمنطوقها.

---

(١) سورة المائدة: الآية، ٩.

إيمان العبد، وعمله الصالح شفعاً له في محو ما كتب له من عقاب نتيجة قيامه بالمخالفات، فعنصر الشفاعة برز لنا من خلال هذه الفقرة:

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(١).

وفي آية أخرى نرى الوسيلة للشفاعة تأتي على شكل آخر ففي قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

تقوى الله، والإيمان برسوله فتحاً لمن آمن بالله هذه الآفاق.

١ـ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾.

أي يؤتكم نصيبين من رحمته، وهو ترغيب للعبد في اطمئنانه بحصوله على الرحمة المضاعفة.

٢ـ ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾.

وهو نور الهداية لتسيروا على ضوئه إلى ما يحفظكم من الإنزلاق في الطريق غير الموصلة إلى الله، وإلى الجنة.

نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده فلا يحجزه عن الوصول إلى الحقيقة شيء.

وبعد كل هذا تأتي منحة الله المفضلة:

٣ـ ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

حصول المغفرة هو غاية العبد، وهو مسبب عن تقوى الله والإيمان برسوله، والذي هو من مكملات تقوى الله، وهذان يكوّنان عنوان (الشفيع) في حصول هذه المنحة منه سبحانه لعباده الذين آمنوا.

وقد يقال: إن الآية الكريمة بعد أن منحت العبد المؤمن ذلك النور الموعود

---

(١) سورة المائدة: الآية، ٩.

(٢) سورة الحديد: الآية، ٢٨.

ليمشي به في طرق الحق، ويشخص على ضوئه الهدى من الضلال فما معنى:

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، وهل بعد الكفلين من الرحمة والنور الذي ينير القلب؟

والجواب: إن الإنسان مهما علت مكانته، وهذبت نفسه، وآمن بالله فهو ليس بمعصوم كالأنبياء، والمرسلين، والأئمة المكرمين بل هو إنسان، وعرضة للزلل، والخطأ، والتقصير، ولذلك فهو دائماً فقير إلى رحمته، وهو محتاج إلى عطفه، ولطفه نتيجة ما يصدر منه من ذنب لعدم عصمته، ومنعته مهما كان متديناً، ومحافظاً، وقد جاء عن أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) قوله في إحدى خطبه (لا شفيع أنجح من التوبة) [١].

وفي خطبة أخرى قال (صلوات الله عليه): (فاجعلوا طاعة الله.. شفيعاً لدرك طلبتكم) [٢].

طاعة الله، والانقياد الكامل: هو الشفيع لما يريده العبد من مولاه من طلباته أعم من كونها طلبات دنيوية، أو أخروية.

والتوبة، والعود إلى ساحة الله من أضمن الشفعاء بشهادة أمير المؤمنين (عليه السلام).

وتقول الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [٣].

وتتعرض بعض الأخبار إلى الاستغفار فتفرده في اعتباره الوسيلة لحصول التوبة.

وفي الحقيقة عندما نستعرض هذه الآيات، والروايات والتي اعتبرت عمل الإنسان، أو طاعته، أو تقواه، أو توبته أو استغفاره، أو إيمانه هو الشفيع لما صدر منه من مخالفات... نراها استغفاره، أو إيمانه هو الشفيع لما صدر منه من مخالفات... نراها تتضمن معنى آخر غير الشفاعة، ذلك هو أنها تدفع بالإنسان أن يتكل على

---

(١) نهج البلاغة: ٣، ٢٤٢.

(٢) نهج البلاغة: ٢، ١٩٩.

(٣) سورة النساء: الآية، ٦٤.

نفسه في مواجهة ربه، والارتباط به لحل جميع مشاكله، وإجابة طلباته الدنيوية، والأخروية، ومن أقرب إلى العبد من ربه إذا جاءه، وهو تائب، ومتقٍ، ومطيع؟

إن الله وهو الرحيم، بما تشتمل عليه هذه الكلمة من حنو لا يحتاج إلى شفيع يكون وسيلة ورابطاً بينه وبين عبده المذنب لو وجد صدقاً في توبته وإخلاصاً في إطاعته، فهو يعلم أن عبده ليس بمعصوم من الزلل والتقصير، لذلك نرى الإمام(عليه السلام) في كلمته السابقة يقول: (لا شفيع أنجح من التوبة).

الشفيع من القسم الثاني:

بإجماع الأمة الإسلامية بكافة مذاهبها أن النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله) له صلاحية الشفاعة. يقول تعالى: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا** ﴾[١].

فاستغفار الرسول (صلى الله عليه وآله) له حسابه في نظر الله تعالى حتى جعله مقارناً لاستغفاره، ولا يعني من يقول بالشفاعة بأكثر من ذلك.

أما الأخبار: فإنها من الكثرة بمكان، وقد صرحت بأنه شافع لأمته.

يقول (صلى الله عليه وآله): (إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين، وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم غير فخر)[٢]. وقال (صلى الله عليه وآله): (إن الله أعطاني مسألة فإدخرت مسألتي لشفاعة المؤمنين من أمتي يوم القيامة)[٣].

وهناك طوائف أخرى من الأخبار توسع دائرة الشفاعة إلى غير النبي (صلى الله عليه وآله) من بقية الأنبياء، والمرسلين، والملائكة، والصالحين.

قال (صلى الله عليه وآله): (يشفع النبيون، والملائكة، والمؤمنون فيقول الجبار: بقيت

---

(١) سورة النساء: الآية، ٦٤.

(٢) أبو عيسى الترمذي: سنن الترمذي/ ٥، ٢٤٧.

(٣) الشيخ الطوسي: أمالي الشيخ الطوسي/ ٣٦.

شفاعتي)[١]. ويقول (ﷺ): (يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء)[٢].

كما وأن أهل النبي (ﷺ) يشفعون أيضاً، فقد قال (ﷺ): (الشفعاء خمسة: القرآن، والرحم، والأمانة، ونبيكم، وأهل بيت نبيكم)[٣]. ويقول الامام علي بن أبي طالب: (لنا شفاعة ولأهل مودتنا شفاعة)[٤].

الشروط المطلوبة في الشفيع:

فهل كل نبي، أو مؤمن، أو ملك له صلاحية الشفاعة للآخرين، أم لابد من شروط في البين لابد أن يخضع الشفيع لها ليكون شافعاً؟

تقول الآية الكريمة: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾[٥].

من هذا الأطار تتحدد شخصية الشفيع فليس كل أحدٍ بإمكانه أن يمثل هذا الدور الخطير، بل من أذن له الرحمن، ورضي قوله... له أن يقوم بهذه المهمة، من غير فرق بين أن يكون ذلك الشفيع نبياً، أو غير نبي من الصالحين كان أو من الصديقين، أو الشهداء، وغيرهم ممن كانت له مكانة عظيمة عند الله عزّ وجل.

وقد تكرر هذا المعنى في آيات أخرى ففي آية الكرسي جاء قوله تعالى:

﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[٦].

وهكذا الحال في سورة يونس جاءت الآية تقول:

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾[٧].

---

(١) البخاري: صحيح البخاري/ ٩، ١٦٠.

(٢) أبو عبد الله القزويني: سنن ابن ماجة/ ٢، ١٤٤٣، ومثله الصدوق: الخصال/ ١٥٦.

(٣) ابن شهراشوب: المناقب/ ٢، ١٤.

(٤) الصدوق: الخصال/ ٦٢٤.

(٥) سورة طه: الآية، ١٠٩.

(٦) سورة البقرة: الآية، ٢٥٥.

(٧) سورة يونس: الآية، ٣.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[(١)].

وقال عزّ وجل: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾[(٢)].

فالشفاعة: مشروطة أن تكون باذن الله لا أنها ترجع إلى كل شفيع فيما يريد أن يشفع فيه.

وحينئذٍ فلا يوجد أي تنافٍ بين هذه الآيات حيث تثبت الشفاعة لغير الله باذنه، ورضاه، وبين الآية الكريمة، والتي تقول: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾[(٣)].

أو قوله عزّ وجل: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[(٤)].

فإن الشفيع إذا كان يشفع باذن الله، ورضاه مقيداً بما يمليه الله في قبول شفاعة من يمكن أن يقبله الله، فإن مثل هذه الشفاعة ستكون لله، وليست خارجة عن حيازته.

وإذاً، فعلى الشفيع أن يتقيد فيمن يشفع له، وفيما يشفع فيه، وإلاّ ففي صورة العكس، فإنه لا ينال رضى الله، وعندها تكون شفاعة مثل هذا الشخص في مثل أولئك نصيبها الفشل.

ثالثاً: المشفع له:

ويراد بهذا العنوان من تكون الشفاعة لصالحه.

وهل تكون الشفاعة لكل أحد، ومهما كان نوع ذنبه، والجرم الذي صدر منه أم لابد من تحديد ذلك؟

من خلال الآية الكريمة يتضح لنا من هو المشفع له؟ يقول تعالى:

---

(١) سورة سبأ: الآية، ٢٣.

(٢) سورة النجم: الآية، ٢٦.

(٣) سورة الزمر: الآية، ٤٤.

(٤) سورة الأنعام: الآية، ٥١.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[1].

ومن هذا الإطار القرآني تبلورت لنا شخصية من يصح أن يشفع له، ذلك لأن الآية قسمت المذنب إلى قسمين: مشرك، وغير مشرك.

أما المشرك: فإن الله أخذ على نفسه عهداً أن لا يغفر له، وإطلاق الآية يقتضي عدم المغفرة له في الدارين: الدنيا، والآخرة ما لم تحصل منه التوبة في الدنيا.

أما غير المشرك: فهل كل من كان غير مشرك تشمله المغفرة، أم هناك تفصيل بين هؤلاء من هذا القسم؟

ويظهر لنا الجواب من الخبر التالي:

عن محمد بن أبي عمير قال: (سمعت موسى بن جعفر (عليه السلام) يقول: لا يخلد الله في النار إلاّ أهل الكبر، والجحود، وأهل الضلال والشرك، ومن اجتنب الكبائر من المؤمنين لم يسأل عن الصغائر قال تبارك وتعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾[2]. قال: فقلت له: يا ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله) فالشفاعة لمن تجب من المذنبين؟

قال: حدّثني أبي عن آبائه عن علي (عليه السلام) قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: إنما شفاعتي لأهل الكبائر من امتي، فأما المحسنون منهم فما عليهم من سبيل. قال ابن أبي عمير: فقلت له: يا ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله) فكيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر؟

والله تعالى ذكره يقول: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾[3].

ومن يرتكب الكبائر لا يكون مرتضى فقال: يا أبا أحمد، ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلاّ ساءه ذلك، وندم عليه، وقد قال النبي (صلى الله عليه وآله) كفى بالندم توبة، وقال (عليه السلام): من سرته حسنته، وساءته سيئته فهو مؤمن، فمن لم يندم على ذنب يرتكبه، فليس

---

(١) سورة النساء: الآية، ١١٦ .

(٢) سورة النساء: الآية، ٣١.

(٣) سورة الأنبياء: الآية، ٢٨ .

بمؤمن، ولم تجب له الشفاعة وكان ظالماً، والله تعالى ذكره يقول:

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (١).

فقلت له: يا ابن رسول الله (ﷺ) وكيف لا يكون مؤمناً من لم يندم على ذنب يرتكبه؟ فقال: يا أبا أحمد، ما من أحد يرتكب كبيرة من المعاصي، وهو يعلم أنه سيعاقب عليها إلاّ ندم على ما ارتكب، ومتى ندم كان تائباً مستحقاً للشفاعة، ومن لم يندم عليها كان مصراً، والمصرّ لا يغفر له لأنه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب، ولو كان مؤمناً بالعقوبة لندم، وقد قال النبي (ﷺ) لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار، وأما قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾(٢). فإنهم لا يشفعون إلاّ لمن ارتضى الله دينه، والدين الإقرار بالجزاء على الحسنات، والسيئات. فمن ارتضى الله دينه ندم على ما ارتكبه من الذنوب لمعرفته بعاقبته في القيامة) (٣).

وقد نقلنا الحديث بطوله لاشتماله على تحديد أبعاد من تكون الشفاعة لصالحه من المذنبين بشكل واضح حيث تبين لنا أن من يسمح في الشفاعة لهم هم: أهل الكبائر من أمة محمد (ﷺ).

وفي مقام تعريف الكبائر يقال: إن الذنوب التي يطلق عليها اسم الكبيرة هي: ما أوعد عليها النار من: شرب الخمر، والزنا والربا، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، وغير ذلك كما جاء في الخبر عن الإمام الصادق (عليه السلام)، وقيل غير ذلك حيث يشمل ما نهى الله عنه (٤).

رابعاً: المشفع فيه:

من الواضح أن حدود الشفاعة لا تتعدى ما يعود إلى العباد في مخالفاتهم لله عزّ وجل، وتخفيف الذنوب عنهم بالنسبة لما يترتب عليها من جزاء، وهكذا فيما يعود

---

(١) سورة غافر: الآية، ١٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآية، ٢٨.

(٣) الشيخ الصدوق: التوحيد/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

(٤) الحر العاملي: وسائل الشيعة/ ١٨، ٢٨٦، الطبعة الحديثة.

لأمور المعاش، والأرزاق، وما شاكل.

أما في غير ذلك من الأمور التي تتعدى حدود البشر كالتدخل في الأمور الكونية، فإن ذلك لا معنى لإعطاء المجال الشفاعة فيه فإن أمر ذلك يعود إلى الله تعالى، وهو الذي يتصرف فيه كيف يشاء.

على أن التدخل في تلك الأمور خارج عن الحدود المرسومة للبشر وللأنبياء، والمرسلين لخضوع كل ذلك إلى أسباب جعلها الله وفق نظم دقيقة تأخذ مجراها الطبيعي لإدارة هذا الكون بسماواته وأرضيته.

نعم، قد يكون من باب إظهار المعجزة لأحد الأنبياء أو المرسلين أن يطلب ذلك النبي شيئاً خارق العادة لاثبات نبوته، وصحة دعواه، ولكن ذلك لا يتعلق بموضوع الشفاعة، والوساطة بمفهومها الذي هو موضوع بحثنا، وفيما نحن فيه.

الخلاصة:

إذاً، وبعد هذه الجولة عرفنا أن أصل الشفاعة، والأخذ بها كمبدأ معترفٍ به من قبل الشريعة الإسلامية أمر مفروغ من البحث فيه، ولكن الخلاف في الأطار الذي تؤطر به الشفاعة من حيث الشفيع، والموضوع الذي يشفع فيه، مضافاً إلى انفراد الشفيع بما يقدم عليه، أو معرفته برضا الله على ذلك الإقدام.

ولكن الرأي في هذه المواضيع ينبع من النصوص التي يُستند عليها عندما يقول بشيء من الرأي في جانب من الجوانب المذكورة ـ فمثلاً ـ نرى المعتزلة والخوارج يخالفون بقية الفرق الإسلامية في قبول الشفاعة بمعناها الواسع الذي يقول به الباقون.

فهم يقصرون الشفاعة بحَثِ المطيعين، أما غيرهم فلا يستحقون الشفاعة.

وينشأ هذا القول من رأيهم في من يرتكب الكبيرة، فإن مرتكبي الكبائر لا يرونهم مرحومين، ويعفى عنهم بل هم مخلدون في النار، لذلك لا تنفع الشفاعة لمن كان مرتكب الكبيرة عند هؤلاء.

والآن: وبعد كل هذا تبين لنا أنه لا منافاة بين ما بيّنه الدعاء في الفقرة موضوعة البحث (ولا يخفف عن أهله)، وبين الاعتراف بوجود الشفاعة من قبل من كانت له المنزلة السامية عند الله فلا يخفف عن أهله إذا كانوا ممن لا يرضى الله بالتدخل في التشفع لهم، ويشفع لهم إذا كانت ذنوبهم ليست بتلك الدرجة من الشدة التي تغلق باب الشفاعة في وجوههم.

فالداعي عندما يتخوف من ذنوبه يخشى أن يرد الله شفعاءه لو تشفعوا له لتهوله من ذلك الموقف الرهيب، وله الحق فيما يتصوره من عدم التخفيف بعد صدور الحكم عليه، فكيف يتحمل كل ذلك، وهو محروم من الشفاعة لعظم جرمه، أو لتخيله بعظم ما أقدم عليه من المخالفة، وهو يعلم أن عدم التخفيف عن المذنبين مسبب عما يلي:

(لأنه لا يكون إلاّ عن غضبك وانتقامك وسخطك).

الغضب: ضد الرضا: قال ابن عرفة: الغضب: من المخلوقين شيء يداخل قلوبهم، وأما غضب الله، فهو إنكاره على من عصاه فيعاقبه.

والانتقام: هو العقاب.

والسخط: هو ضد الرضا، وقيل: هو لا يكون إلاّ من الكبراء، والعظماء دون الأكفاء، والنظراء [1].

وبالإمكان القول، هو تقارب هذه الألفاظ من حيث المعنى، والمقصود هو أن عدم التخفيف لا يكون إلاّ من عدم رضا الله عزّ وجل على عبده لمخالفته لما أمر به، وإقدامه على ما نهاه عنه.

(وهذا ما لا تقوم له السماوات، والأرض فكيف بي، وأنا عبدك الضعيف الذليل، الحقير، المسكين، المستكين).

أي رب: وإن ما كان منشأه غضبك، وانتقامك، وسخطك لا تقوى على حمله،

---

(١) لاحظ ابن منظور: لسان العرب/ مادة (غضب، ونقم، وسخط).

ومواجهة السماوات بطبقاتها، والأرض ومن فيها، وما فيها، فكيف يقوى.

إذاً، على مواجهته هذا الجسم البالي المكون من هذه الأجزاء الضعيفة لحم، ودم، وعصب، وعظم؟

يا رب: وأنا عبدك الضعيف، والضعيف بكل ما تحمله هذه العبارة من معنى: ضعيف في الجسم، والبنية، والإرادة يستحوذ عليّ الشيطان، فينسيني ذكر الله العظيم.

أي رب: وأنا عبدك الموسوم بكل صفات الذلة، والعبودية لك الذليل، الحقير، المسكين المستكين.

أما الذليل: فهو ضد العزيز، والمهان بالنسبة إليه تعالى.

والحقير: هو من هان قدره فلا يعبأ به.

أما المسكين: فهو من لا شيء له من المال، واختلف بينه وبين الفقير، أيهما أسوأ حالاً، فقيل المسكين أسوأ حالاً، وقيل: الفقير، ولهم في ذلك وجوه.

ولكن المراد به في هذه الفقرة ليس هو المسكين المالي، بل المسكين، وكما جاء في اللغة بمعنى آخر حيث أطلق على الذليل المقهور، وهو المراد به هنا.

وأما المستكين: فهو الخاضع الذليل.

وإذا كانت نية الداعي صادقة، وهو يخاطب الله، ويسم نفسه بهذه السمات التي إن دلت فإنها تدل على منتهى الخضوع والخشوع والعودة إلى ظلال رأفة الله، وانقياد لسلطانه، وعظمته، وحاشا لله أن يرد مثل هذا الداعي بذله، ومسكنته، ويخيّب رجاءه، وهو على هذه الحالة من الذل، والانكسار.

لا: بل هو كما بشر الله عباده في كتابه الكريم بقوله:

﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [1].

---

(١) سورة الحجر: الآية، ٤٩.

(نبئ): وهو أمر منه تعالى لنبيه في الإخبار بهذا الفيض الإلهي الكريم.

(عبادي): وفي إضافة العباد إليه نوع من القرب إليه، والاختصاص به، وفيه بعث الطاقة في الإنسان عندما يشعر بها المذنب، وهو يتلمس اليد الحانية تربت على كتفه لتحمل إليه الأمل الأخضر يشرق من خلال قوله: ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

(غفور): بما تحمله هذه الكلمة من شدة التأكيد في المغفرة، والتجاوز.

و(رحيم): بما ينطوي عليه هذا التعبير من رنة هادئة تمثل الدعة، والقبول، والعطف، والحنو.

١٥ـ (يا إلهي، وَرَبِّي، وَسَيِّدي، وَمَوْلاي لأيِّ الأمُورِ إليكَ أشكُو، وَلِما مِنْها أَضِجُّ وأبْكي، لأليمِ العَذابِ وَشِدَّتِهِ، أم لطولِ البَلاءِ وَمُدَّتِهِ، فَلئِن صَيَّرتَني للعُقوباتِ مَعَ أعدائِك، وَجَمَعْتَ بَيْني وَبَيْنَ أهْلِ بَلائِك، وفَرَّقت بَيْني وَبيْنَ أحبّائك وأوليائِك، فَهَبْني يا إلهي، وَسيِّدي ومولايَ، وَرَبِّي صَبَرْتُ على عذابِك، فَكَيْفَ أصبرُ على فِراقِك، وَهَبني يا إلهي صَبرتُ على حَرِّ نارِك، فَكَيْفَ أصبِرُ عَنِ النَّظَر إلى كَرامَتِك، أمْ كَيْفَ أسْكُنُ في النَّارِ وَرَجائِي عَفْوُكَ).

الآلام الروحية لها تأثيرها السيء على الإنسان، فهي لا تقل تعذيباً للنفس من الآلام الجسدية الناشئة من الخدوش والحروق، وغير هذا، وذاك مما يطرأ على الجسم من ألم نتيجة إصابته بعارض من العوارض الخارجية ـ وعلى سبيل المثال ـ فكثيراً ما نجد شخصاً يعيش في دوامة من آلامه النفسية لأنه يرى قرينه، أو من هو دونه ينال حظوة لدى أبناء المجتمع الذي يعيش فيه بينما يكون محروماً من هذا النوع من المكانة، فيبقى يكابد آلاماً نفسية سرعان ما تجعله فريسة للأمراض، والأفكار.

ولهذا الموضوع أمثلة كثيرة، وهذا من الوضوح بمكان لمعرفة ذلك من قبل الجميع إذ قلما نجد من لا يبتلي بقضية تكون نتائجها مما يترك في النفس ألماً ما دامت هذه الحياة قائمة، وما دام هذا الإنسان عرضة لما يطرأ عليه من حوادث، ومشاكل.

ومن هذا المنطلق، نجد الدعاء يضيف إلى حساب الداعي عاملاً آخر من عوامل الابتلاء، والتخوف ذلك هو ما يكابده الداعي من آلام نفسية، وهو يقاسي أنواع العذاب في النار، ومنها أنه يكون محروماً من الاجتماع بأولياء الله، وأحبائه، وحشره مع أعداء الله، ومن حقت عليهم كلمة العذاب، فهو لا يجد نفسه بالمكانة التي تليق به في ذلك الجو الكاسف، لهذا يطالب ربه بالعفو عنه لأنه بشر، وهو محدود الطاقات فكيف يمكنه تحمل هذا النوع من التعذيب النفسي بالإضافة إلى ما كتب له من العذاب الجسدي الذي يسببه الحرق في نار جهنم؟

وأخيراً، يختم الداعي هذا الفصل بما يراه حلاً يتمكن به من الخلاص من هذه الآلام الطارئة والتخفيف منها حيث سيضج إليه، ويبكي ويصرخ كما تفعل من فقدت عزيزها، ويناديه بأسماء حبيبة إليه لثقته بأن الله هو الرحمن، وهو الرحيم:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [١].

(يا إلهي وربي وسيدي ومولاي لأيّ الأمور إليك أشكو ولما منها أضج وأبكي).

يا إلهي، وربي، وسيدي. عبارات كلها ترمز إلى الله عزّ وجل، والدعاء يكررها في أغلب الفصول، وفي مبدأ كلٍ منها زيادة في التعلق به والاستغاثة له، وفي تكرارها من الخضوع، والخشوع ما يدركه الداعي ويجد له حلاوة توحي إليه بالاستكانة إلى أمنه، وأمانه.

أشكو: وشكا فلان فلاناً إلى فلان تظلم إليه، وأخبره عنه بسوء فعله به فالمخبِر (شاك) والمخبَر عنه (مشكو) والخبر (الشكوى) والمخبر (مشكو إليه) [٢].

فالشكوى بحسب نظر اللغويين تتضمن أربعة أركان:

شكوىً، وشاكٍ، ومشكو، ومشكو إليه.

---

(١) سورة الشورى: الآية، ٢٥.

(٢) الشرتوني: اقرب الموارد/ مادة (شكي).

وفيما نحن فيه لابد من ملاحظة هذه الأركان، وحصولها في شكوى العبد.

أما الداعي: فهو (شاكٍ) لأنه مخبر عن نواياه.

والله عزّ وجل: هو (المشكو إليه) لأنه الحاكم المطلق، والعادل الذي لا يجور.

والشكوى: هي الأمور التي تتضمنها الفقرات الآتية من قوله: (لأليم العذاب، وشدته، أم لطول البلاء ومدته)، وهي ما يتألم منه الداعي ويستغيث منه.

ونبقى لنبحث عن (المشكو) وبالإصطلاح القانوني من رفعت الشكوى ضده. فمن يا ترى هذا الذي يشكو الداعي منه، ويوجه الداعي الدعوى ضده؟

والجواب: إن ذلك هو مصدر اللطف، والرحمة، وهو مصدر الرقة، والرأفة.

وكما سبق للدعاء أن وجه الداعي إلى أن يستشفع به إلى نفسه حيث قال فيما سبق: (واستشفع بك إلى نفسك) فهو هنا أيضاً يوجهه إلى ذلك، وقد ناجى الإمام زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام) ربه فقال: «وأنا يا سيدي عائذ بفضلك هارب منك إليك».

والتعبير فميا نحن فيه من هذا القبيل، فالداعي يهرع إلى ربه لأنه يهرب منه إليه فهو الخصم، وهو الحكم، وهو المستغاث به.

ـ وفي الوقت نفسه ـ المستغاث منه. فأركان الشكوى فيما نحن فيه تكون **ثلاثة بدلاً من أربعة**:

وفي تعبير الداعي بقوله: (**ولما منها أضج، وأبكي**) نوع من تحريك عواطف من لجأ إليه، فالضج، هو الصيحة، والجلبة يقال: ضج ضجيجاً فزع من شيء، وخافه، فصاح، وجلب.

وأضج القوم: صاحوا، وجلبوا.

فالتعبير: بـ (أضج)، يصور لنا الداعي، وهو يصيح باكياً بحيث يحدث له جلبة، وصياحاً، وهي حالات من يفقد شيئاً، فيذهل عن وضعه ويخرج عن اتزانه، وكل ذلك مما يضفي على منظره ما يقتضي الترحم عليه، وهو على هذه الحالة من الارتباك والذهول.

(لأليم العذاب وشدته أم لطول البلاء ومدته).

قدم الداعي في عرض العذاب الجسدي والروحي.

العذاب الجسدي حيث تبدأ النار بأخذ مفعولها، وردد أنه لا يدري أيضج إلى الله، ويصرخ باكياً لأليم العذاب ولشدته، أم لطول المدة التي سيمكث فيها مخلداً في النار تبعاً لذنبه وحجمه.

وقد بينا فيما سبق، إن أيام الآخرة لا يتمكن بالتحديد من ضبطها بعد أن صرح القرآن الكريم بأن الملائكة، والروح تعرج إليه: (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة).

وعلى كل حال، فهي على نحو الإجمال ليست كأيامنا في الدنيا من حيث القصر، واشتمالها على أربع وعشرين ساعة، والشهر ثلاثون يوماً، والسنة من ثلاثمائة وستين يوماً، بل لها حساب خاص نعلم على نحو الإجمال أيضاً أن حسابه طويل، وعسير، ولذلك يأخذ الداعي بعين الاعتبار ذلك التعذيب الجسدي، وشدته وطول مدته، فيكون ذلك سبباً لضجيجه وعجيجه.

(فلئن صيرتني للعقوبات مع أعدائك، وجمعت بيني وبين أهل بلائك، وفرقت بيني وبين أحبائك، وأوليائك).

هذه هي العوامل التي تسبب للداعي العذاب النفسي، حيث يسرح به التصور فيجد نفسه وسط الجموع المكدسة في نار جهنم بعيداً عن روح الله ورحمته، وبعيداً عن أولياء الله وأحباءه، وهم أولئك الصفوة الخيرة الطيبة، وإذا به مع المجرمين، والملحدين وأولئك الذين قضوا أعمارهم، وهم لا يتحلون بالفضيلة.

وهذا ما يجعل نفس الداعي تحترق ألماً، وهي ترى هذا المصير الضحل بانتظارها غداً، يوم لا ينفع مال ولا بنون.

(فهبني يا إلهي، وسيدي، ومولاي، وربّي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك؟).

فهبني: هذه الكلمة مؤلفة: من فاء التفريع على ما سبق من قوله في الدعاء (فلئن

صيرتني للعقوبات) ومن كلمة (هب) وهي: من أفعال القلوب تلازم الأمر دائماً، وهي بمعنى (ظمني) أو (اعتبرني) والمعنى الذي يريده الداعي في هذا التفريع هو: الخطاب مع ربه، والقول: بأنك يا ربي، وإلهي لئن فعلت بي ما كنت مستحقاً له من الجزاء حيث صيرتني للعقوبات مع أعدائك، وفرقت بيني وبين أحبابك، ومن كانوا الصفوة لك، فهبني يا إلهي تحملت وصبرت على هذا العذاب، ولكن من الذي يصبّرني على فراقك، والبعد عنك، وهذا ما سأبقى أكابد آلامه النفسية، والذي هو أشد وأعظم مرارة، ولوعة من العقوبات الجسدية.

وقضية فراق الله، والذي يتضجر منه الداعي ما هو إلاّ البعد عنه والحرمان من محبة الله لعبده، ومحبة العبد لربه.

هذا الحب المتبادل بين العبد وربه، هو الذي يغذي الروح، ويعلو بالنفس إلى الآفاق السامية لتجد حلاوة الإيمان تتجسد لها في كل ما تراه في الوجود.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[1].

يحبهم، ويحبونه. هذا الحب المتبادل بين الله، وعباده الذين آمنوا يصور لنا التعلق، والانشداد بين عبيد اطلع الله على ما في ضمائرهم من حب لذاته، ومعرفة بحقيقته فعرفوا من هو الله، وعرفوا هباته، وعطاياه، وسماحته، وكرمه، وعفوه، وغفرانه.

وعرفوا إحاطته بهذا الكون، وقدرته عليه كل ذلك وجدوه في أنفسهم، فأحبوه، وهاموا في حبه، فكانوا مثال الاخلاص، والفناء في ذاته المقدسة.

وهذا الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) يناجي ربه قائلاً: (إلهي كيف أدعوك، وقد عصيتك، وكيف لا أدعوك، وقد عرفت حبك في قلبي)[2].

---

(١) سورة المائدة: الآية، ٥٤.

(٢) الشيخ الصدوق: الأمالي/ ٣٠٩، المجلس السابع والخمسون، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف.

الخوف، والرجاء يصطرعان في النفس حيث تبدو آثار هذا الصراع واضحة من خلال هذه المناجاة الرقيقة التي تنساب من فم الإمام (عليه السلام) هادئة.

الخوف من المعصية يقف حائلاً بين الإنسان، وربه فكيف يدعوه بلسان خالفه فيه؟

والرجاء بعفوه، ورحمته لأن القلب منطوٍ على حبه، وهو خير شافع إليه.

ولابد أن يتغلب بعد هذا الصراع النفسي: عامل الرجاء، فتبدو إشراقة الأمل تحمل البشرى للداعي والراجين، وإذا بالعبد يندفع يدعو، ويلح ويريد، ولا ينفك عن التعلق بربه، فقد عرف أنه يريد من ربٍ كريم، وكيف لا أدعوك، وقد عرفت حبك في قلبي؟.

هؤلاء هم الذين يعبدون رباً أحبهم، وأحبوه لا خوفاً من نارٍ، ولا طمعاً في جنة، وفي هؤلاء يقول تعالى فيما أوحى إلى بعض الصديقين: (إن لي عباداً من عبادي يحبونني، وأحبهم، ويشتاقون إلي، وأشتاق إليهم، ويذكرونني وأذكرهم، وينظرون الي وأنظر إليهم... قال الصديق: يارب ما علامتهم؟ قال عزّ وجل: يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي الشفيق غنمه ويحنون إلى غروب الشمس، كما تحن الطيور إلى أوكارها عند الغروب، فإذا جنّهم الليل، واختلط الظلام، وفرشت الفرش، ونصبت الأسرة، وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلي أقدامهم، وافترشوا لي وجوههم، وناجوني بكلامي، وتملقوني بأنعامي، فبين صارخ، وباكٍ، ومتأوهٍ، وشاكٍ، وبين قائم، وقاعد وبين راكع وساجد [1].

بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشتكون من حبي.

أول ما أعطيهم ثلاثاً: أقذف من نوري في قلوبهم، فيخبرون عني كما أخبر عنهم.

والثانية: لو كانت السماوات والأرض، وما فيهما في موازينهم لاستقللتها لهم.

---

(١) المولى الكاشاني: المحجة البيضاء/ ٨، ٥٨ ـ ٥٩، منشورات مكتبة الصدوق.

والثالثة: أقبل بوجهي عليهم. أفترى من أقبلت بوجهي عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟

هذا الحب المتبادل بين العبد وربه، وبين الحبيب وحبيبه، لا يعرف طعمه إلاّ أولئك الذين قال فيهم: (أقبل بوجهي عليهم). ولا يدركه إلاّ من وصل إلى المدارج التي تؤهله لأن يقول الله في حقه (وأشتاق إليهم) وأحبهم، وأذكرهم، وأنظر إليهم.

وطبيعي أن لا يتوصل إلى معرفة هذا العطاء إلاّ من عرف حقيقة، ومصدر العطاء، وهو الله تعالى.

وعجيب أن نسمع من يقول، عن هذا الارتباط المقدس بين العبد وربه: إنه نوع من التصوف والرهبنة، والإنشغال بما وراء الغيب مما يوحي إلى النفس ذلك الخمول، والانعزال عن المجتمع مع أن طبيعة الحياة الضاحكة المشرقة، والرقراقة تأبى كل هذه الخلجات والغلسات.

ولهؤلاء نقول، إن الإسلام بشريعته السمحاء، وبتعاليمه القيّمة جمع بين الدنيا، والآخرة وأعطى كلاً منهما حقه، فأمر بأن يستقبل الإنسان الحياة بوجه ضاحك باسم، وبساعدين قويين يشمرهما إلى العمل، وبآمال طويلة عريضة تشمل الأيام، والأيام الطويلة حتى كأنه يعيش أبداً، ودفع بالإنسان أن يلقي عن كتفيه أردية المسوح لئلا تتأخر عجلة الحياة، وتتلكأ المسيرة الاجتماعية، ويحصل التصدع في بناء المجتمع الواحد، ولكنه ـ في نفس الوقت ـ نظر إلى الآخرة نظرة من لم يسمح بتأخير ما عليه من حقوق الله، وحقوق الآخرين لحظة واحدة.

إن الحديث السابق يتدرج في بيان صفات المحبين، فيقول: (فإذا جنهم الليل، واختلط الظلام، وفرشت الأسرة، وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلي أقدامهم، وافترشوا لي وجوههم، وناجوني بكلامي... الخ).

إذا جنّهم الليل: وهو الوقت الذي تشتد ظلمة الليل فيه، ولنفرضه بعد مرور الثلث الأول من الليل، هذا الوقت بحسب العادة يكون من حق الإنسان الشخصي لأنه قد أدى ما عليه في النهار إلى المجتمع، وإلى العيال، فعاد إلى بيته، وأسرته، وفي

هذه العودة بالذات نرى رب الأسرة قد أدى ما عليه من العبادة من أداء فريضتي المغرب والعشاء، وقد فرغ أيضاً من حقوق الأسرة، وما تفرضه عليه من مراعاة، كل ذلك قد أداه، وعاد إلى مخدعه ليعطي لبدنه قسطاً من الراحة والهدوء. في هذا الوقت إذا نهض إلى عبادة ربه، ومناجاته والخلوة إليه بقلب منكسر، وشوق إلى لقائه كان حقاً على الله أن يلتفت إلى هذا العبد الذي قدّم مناجاة ربه على راحته الشخصية فيقذف من نوره في قلبه، ويستقل حسناته فيزيدها لهم، ويقبل بوجهه عليه.

لهذا الحب بين العبد، وربه، وهذا التعاطف بينهما يخشى الداعي من عدم حصوله من قبل الله، وحرمانه من هذه اللذة عندما يكون طريداً من بابه، ومحكوماً عليه بالنار مع أعدائه فكيف يصبر على هذا الفراق، والبعد عن الله؟

والذي نلمحه من فقرات الدعاء في هذا الفصل هو التدرج من إظهار الجزع من فراق أحباء الله، وأوليائه إلى فراق الله نفسه حيث يقول الداعي: (وفرقت بيني وبين أحبائك، وأوليائك) إلى أن يقول: (فكيف أصبر على فراقك)؟

ولربما كان هذا منشأ اعتراض، على السياق الدعائي حيث سلك هذا التدرج لأن المناسب كان أن يذكر فراق الله أولاً لأنه الأهم من فراق غيره، ثم يتضجر بعد ذلك من بعده عن أحباء الله، وأوليائه والذي يتمثل بفراقهم فيبدأ بالأهم لينتهي بالمهم لا العكس.

ولكن يجاب عن ذلك، إن الترتيب المتدرج به الذي سلكه الدعاء في سياقه أجمل مما يوجهه المعترض من التدرج العكسي، ذلك لأن الداعي بدأ ببيان حالته النفسية، وهي ما عليه من الضجر، والتألم من بعده عن أحباء الله، وأوليائه، وهو في نار جهنم مقر أعداء الله، وأهل بلائه، وبعدها التفت إلى ما هو الأهم من ذلك، وهو بُعدُه بهذه الحالة عن الله، وابتلائه بفراقه، من قبل ما يقال دارجاً، وعلى لسان أهل العرف بعد أن يعدد الإنسان مصائبه، فيقول: والأعظم من كل ذلك هو كذا.

فيبدأ بالمهم، ثم ينتقل إلى الأهم من باب المفاجأة.

وأما التدرج العكسي حيث يبدأ الداعي ببيان تضجره من فراق الله لينتهي ببيان

ما يتحمله من فراق أولياء الله فيفقد الروعة الواقعية إذ من يبتلى بفراق الله ويكون موضعاً لغضبه، وعدم رضاه لا يبقى في حسابه لفراق غيره ـ ولو كان ذلك الغير ولياً ـ زيادة تأثير.

فما هو تأثير فراق هؤلاء إذا أعرض الله بوجهه الكريم عنه، وهل أن تقدير العبد لهم إلاّ لأنهم منتسبون إليه تعالى، وهم أحباؤه وأولياؤه.

إن التدرج الدعائي كما هو مثبت أجمل، ويحمل معنى أسمى من التدرج من المهم إلى الأهم كما يريده المعترض.

(وهبني ياإلهي صبرت على حرّ نارك فكيف أصبر على النظر إلى كرامتك).

ومرة أخرى هبني يا إلهي صبرت على حرِّ نارك، والتي هي: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ [١].

بل تحرق كلما يقع فيها، وقد ذكرت أخبار كثيرة عن نار جهنم الشيء الكثير إذ تصل حرارتها إلى مسافات بعيدة جداً وقد جاء عن رسول الله (ﷺ) قوله: (تعوذوا بالله من جب الحزن، أو وادي الحزن قيل: يا رسول الله (ﷺ) وما وادي الحزن؟ قال: وادٍ في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرةٍ) [٢].

وفي حديث آخر عنه (ﷺ): (في جهنم سبعون ألف وادٍ، وفي كل وادٍ سبعون شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان، وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر، والمنافق حتى يواقع ذلك كله) [٣].

وغير هذا من الأخبار، ولا نعجب من هذا الحديث عندما يقول (ﷺ) (في جهنم سبعون ألف وادٍ) فإن جهنم لابد أن تكون بهذه السعة ليتناسب المكان مع المكين. فهذا الحشد من البشر على مرّ القرون لابد له من مكان واسع كهذا الوصف، وأكثر.

---

(١) سورة المدثر: الآية، ٢٨.

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين/ ٤، ٦٥٩.

(٣) ابن رجب الحنبلي: التخويف من النار/ ١٢٥، دار الرشيد ـ دمشق.

وكل ذلك لو تحمله الداعي كما يقوله، فكيف يصبر عن النظر إلى كرامة الله؟ وهي العزة، فهو كما نعت نفسه: عزيز، وذو منعة ولكل عزيز منزلة عظيمة تميزه عن غيره، فكيف يقبل أن يرد مثل هذا اللاجيء الذليل؟ جاء مستعطفاً، وركع بين يديه سائلاً، وهو يردد:

(أم كيف أسكن في النار ورجائي عفوك)؟

وتأتي هذه الجملة معطوفة على الجملة السابقة من قول الداعي: وهو يناجي ربه قائلاً: (وهبني يا إلهي صبرت على حر نارك فكيف أصبر على النظر إلى كرامتك).

وقد يبدو التساؤل واضحاً، عن عدم التناسق في هذا التدرج بين هاتين الجملتين فبعد أن يفرض الداعي أنه وطّن نفسه وصبر على تحمل حر نار جهنم فما معنى استفهامه الإنكاري عن انه كيف يسكن في النار، فلماذا، وكيف حصل هذا التحول؟

وفي عرضنا للجواب عن ذلك نقول:

الظاهر أن المراد من تحمل الداعي، وصبره على حر نار جهنم في الجملة الأولى هو تحمله للمدد المحدودة المؤقتة لو كان عقابه يقضي ببقائه فيها مدة معينة، ويفهم ذلك من قوله في الجملة الثانية «أم كيف أسكن» حيث يظهر من ذلك السكنى الدائمية، ولذلك فهو لا يطيق البقاء الدائمي في النار لو فرض نفسه متحملاً، وصابراً على البقاء لمدد معينة، وبهذا يتم التناسب الداعي بين هاتين الجملتين من الصبر على حر ناره، وعدم طاقته على السكنى فيها.

وإذا ما عدنا إلى هذه الفقرة من الدعاء: «أم كيف أسكن في نار ورجائي عفوك» لرأينا الداعي محقاً في استفهامه الإنكاري في سكناه في النار مع أنه يقف بين يدي ربٍ رحيم يرجو عفوه، ولا يتخلف عن إجابة من دعاه، بل ولا يخيب من رجاه، والداعي لا يذهب بالشوط بعيداً لو تعجب عن أنه كيف يسكن في النار، ورجاؤه متعلق بربه أليس هو القائل ـ كما جاء عن الإمام أبو عبد الله الصادق (عليه السلام) في حديث له: (إن الله تبارك وتعالى يقول: وعزتي، وجلالي، ومجدي، وارتفاعي على عرشي، لأقطعن أمل كل مؤملٍ من الناس غيري، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس،

ولأنحينه من قربي، ولأبعدنه من فضلي.

أيؤمل غيري في الشدائد، والشدائد بيدي، ويرجو غيري؟ ويقرع بالفكر باب غيري، وبيدي مفاتيح الأبواب، وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني؟ فمن ذا الذي دعاني لنوائبه فقطعته دونها؟ ومن ذا الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني؟ جعلت آمال عبادي عندي محفوظة فلم يرضوا بحفظي، وملأت سماواتي ممن لا يمل من تسبيحي، وأمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني، وبين عبادي فلم يثقوا بقولي. ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبي أنه لا يملك كشفها أحد غيري إلاّ من بعد إذني؟ فما لي أراه لاهياً عني؟ أعطيته بجودي ما لم يسألني ثم انتزعته عنه فلم يسألني رده وسأل غيري. أفيراني أبدأ بالعطاء قبل المسألة، ثم أسأل فلا أجيب سائلي؟ أبخيل أنا فيبخلني عبدي؟ أوليس الجود والكرم لي؟ أوليس العفو والرحمة لجيدي؟ أوليس أنا محل الآمال فمن يقطعها دوني؟ أفلا يخشى المؤملون أن يؤملوا غيري؟ فلو أن أهل سماواتي، وأهل أرضي أملوا جميعاً، ثم أعطيت كل واحدٍ منهم مثل أمل الجميع ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرة، وكيف ينقص ملك أنا قيّمه؟ فيا بؤساً لقانطين من رحمتي، ويا بؤساً لمن عصاني، ولم يراقبني [1].

إن هذا العتاب الهادئ بما فيه من رقة الحديث بين الرب وعبده، هو الذي يدفع بالداعي أن يعجب من شدة العقوبة إذا كانت جرائمه تقتضي الحكم عليه بسكن النار.

(فمن ذا الذي دعاني لنوائبه فقطعت دونها)؟

(ومن ذا الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني)؟

وها هو يرجوه أن يتجاوز عنه بعد أن جاءه إنساناً تائباً نادماً على ما صدر منه.

ولماذا يخشى الرد من ربٍ يقول:

أبخيل أنا فيبخلني عبدي؟

---

(١) العلامة المجلسي: مرآة العقول/ ٨، ٢٥ ـ ٢٧، منشورات دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

أوليس الجود والكرم لي؟

أوليس العفو والرحمة بيدي؟

وهكذا ينساب العتاب رقيقاً فيقف الداعي منكسراً أمام مصدر القوة، والعظمة.

أمام مصدر القهر والغلبة.

فبماذا يجيب إن طرق باب غيره أو ذهل فلم يقصد رحابه راجياً؟

ولذلك نرى الدعاء يوجه الداعي إلى أن يقتحم هذا البحر الفياض من العفو، وينعم بهذه الرحمة الإلهية، فلا يبالي بنوعية الذنب ما لم يكن تجاوزاً على حقوق الآخرين بعد أن كان هو محل الآمال، وهو الجواد الكريم.

إن هذا النوع من الرجاء ليجعل من الداعي إنساناً حذراً من الوقوع في المخالفات مرة أخرى، ذلك لأن الله لم يغلق الباب في وجهه ليحصل له اليأس من روح الله، وإذا به ينقلب إنساناً منتقماً شريراً، وعضواً فاسداً في المجتمع، بل هو إنسان ملأ الرجاء قلبه فكان وديعاً راجياً يأمن منه كل أحد، فلا يرى للرذيلة بعد ذلك ملجأً، ولا لما نهى الله عنه مسلكاً.

١٦ـ (فَبِعزَّتِكَ يا سَيِّدي، وَمَولاي أُقْسِمُ صادِقاً لَئِنْ تَرَكْتَني ناطِقاً لأضِجَّنَّ إلَيْكَ بَين أهْلِها ضَجيجَ الآمِلين، ولأصْرُخَنّ إلَيْكَ صُراخَ المُسْتَصْرِخينَ، وَلأبْكِينَّ عَلَيْكَ بُكاءَ الفاقِدين، وَلأُنادِيَنَّكَ أيْنَ كُنْتَ يا وَلِيَّ المؤمِنين. يا غايَةَ آمالِ العارفِينَ يا غِياثَ المسْتَغيثِينَ، يا حَبيبَ قُلوبِ الصَّادِقين، ويا إلَهَ العالَمِين.

أفَتُراكَ سُبْحانَك يا إلهي، وَبِحمْدِكَ تَسْمَعُ فيها صَوْتَ عَبْدٍ مُسْلِمٍ سُجِنَ فيها بِمُخالفَتِهِ، وَذَاقَ طَعْمَ عذابِها بِمَعْصيتِه، وَحُبِس بَيْنَ أطباقِها بِجُرْمِهِ وَجَريرَتِه، وَهُوَ يَضِجُّ إلَيْكَ ضَجيجَ مُؤمِّلٍ لِرَحْمَتِكَ، وَيُنادِيكَ بِلسانِ أهلِ توحيدِكَ، وَيَتوسّلُ إلَيْكَ برُبوبيَّتِكَ، يا مَولاي فكَيْفَ يَبْقى في

العَذَابِ وَهُو يَرْجُو ما سَلَف مَنْ حِلْمِك، أمْ كَيْفَ تُؤلِمُهُ النَّارُ، وَهو يَأمُلُ فَضْلَكَ وَرَحْمتَك، أمْ كَيْف يُحرقُهُ لَهيبُها، وأنْتَ تَسْمَعُ صَوْتَهُ وتَرى مكانَهُ، أمْ كَيْفَ يَشْتَمِلُ عليهِ زَفيرُها، وأنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفَهُ، أمْ كَيْفَ يتقلقَلُ بين أطباقِها، وأنْتَ تَعْلَمُ صِدْقَهُ، أمْ كَيْفَ تَزْجُرُهُ زَبانيتُها، وَهُوَ يُناديكَ يا رَبَّهُ، أَمْ كَيفَ يَرْجُو فَضْلَك في عِتْقِهِ مِنْها فَتَتْرُكُه فِيها، هَيْهاتَ مَا ذَلِك الظَّنُ بِكَ، ولا المَعْروفُ مِنْ فَضْلِكَ، وَلا مُشْبِهٌ لِما عَامَلْتَ بِهِ المَوَحِّدينَ مِن بِرِّكَ، وإحْسانِكَ، فَباليَقينِ أقطَعُ لَوْلا مَا حكَمْتَ به مِن تَعْذيبِ جاحِديكَ، وَقَضيتَ بهِ مِن إخْلادِ مُعانِديكَ لجَعلْتَ النّارَ كُلَّها بَرْداً وَسَلاماً، وَما كَان لأحَدٍ فيها مَقَراً وَلا مُقاماً، لكِنَّكَ تقدَّسَتْ أسْماؤُكَ أقْسَمْتَ أنْ تَمْلأها مِنْ الكافرينَ مَن الجِنَّةِ، والنَّاسِ أجْمَعينَ، وأنْ تُخَلِّدَ فِيها المُعانِدينَ، وأنتَ جَلَّ ثَناؤُكَ قُلْتَ مُبْتَدِئاً وَتَطَوَّلْتَ بِالإنْعامِ مُتكَرِّماً، أفَمَنْ كَان مُؤمِناً كَمَنْ كَان فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ).

ويشتمل هذا الفصل على ثلاثة مقاطع من الدعاء:

أما المقطع الأول: فيبدأ من قوله: (فبعزتك يا سيدي، ومولاي أقسم صادقاً) وينتهي بقوله: (يا حبيب قلوب الصادقين ويا إله العالمين).

وفي هذا المقطع نرى الداعي يخرج فيه عن هدوئه، واتزانه ليعلن لربه بأنه سينزع عن كتفيه لباس المسكنة، ويخرج عن طوره. فيجعل من جهنم منبراً لإظهار جزعه مستعملاً، لذلك كل عوامل الضجيج، والفزع صارخاً باكياً مستغيثاً ليجلب بهذه الطريقة عطف الله عليه، وليؤكد له تعالى بأن آماله في التجاوز عنه لم تنقطع حتى ولو أدخل في جهنم، وحكم عليه فيها بالبقاء مقدار المدة المحكوم بها عليه.

أما المقطع الثاني: فيبدأ من قوله: (أفتراك سبحانك يا إلهي وبحمدك تسمع فيها صوت عبدٍ مسلم) وينتهي بقوله: (هيهات ما ذلك الظن بك، ولا المعروف من فضلك).

وفي هذا المقطع نرى الدعاء يركز على أن الداعي مخالف لا منكر ومشرك. ولذلك يطالبه بالعفو، والإحسان، ويترفع عن أن يحشر مع الملحدين، والمشركين، فهو عبد مسلم يتوسل إليه بلسان الموحدين ويقسم عليه بربوبيته، وهذه مزايا تميزه عن أولئك الذين حقت عليهم كلمة العذاب الدائم، وهم الذين أخذ الله على نفسه عهداً أن لا يغفر لهم لأنهم أشركوا به، ولم يوحدوه.

وأما المقطع الثالث: فيبدأ من قوله «فباليقين أقطع لولا ما حكمت به من تعذيب جاحديك»، ويختم بقوله: «أفمن كان مؤمناً كمن كان كافراً لا يستوون».

وبإمكاننا أن نستفيد من **استعراض هذا المقطع مطلبين** أشار لهما الدعاء في عرضه السريع.

المطلب الأول: موضوع خلود المعاندين، والجاحدين لله عزّ وجل في النار، وعدم تحديد مدة بقائهم فيها.

المطلب الثاني: شمول العذاب لفصائل الجن كما هو الحال بالنسبة إلى الإنس نتيجة مخالفاتهم في دار الدنيا.

ولكن ما هي الحقيقة لفصائل الجن، وما هي نوعية التكاليف الموجهة لهم، وكيف تحصل المخالفة منهم؟

كل ذلك لم تتعرض له فقرات الدعاء في هذا الفصل.

وللوقوف على حقيقة ذلك كله لابد من اللجوء إلى مصادر أخرى غير الدعاء.

والآن من الاجمال إلى التفصيل في هذه المقاطع الثلاثة:

(فبعزتك يا سيدي ومولاي أقسم صادقاً لئن تركتني ناطقاً لاضجن إليك بين أهلها ضجيج الآملين، ولأصرخن إليك صراخ المستصرخين، ولأبكين عليك بكاء الفاقدين).

وعندما يناجي الداعي ربه، ويقول له (أقسم صادقاً) يعلم أنه يناجي رباً مطلعاً على ما في ضميره من صدق نيته، وإقدامه على ما يقول لو تركه الله ناطقاً بعد دخوله

النار، فيقيم جهنم، ويقعدها من جزعه، وضجيجه، وصراخه، ويطلب العفو منه، ويتضرع إليه، ومن هذه الفقرة في قوله: (لئن تركتني ناطقاً) يظهر لنا أن المعذبين ليس لهم القدرة على النطق لقوله: (لئن تركتني). أي أن نطقي هناك معلق على إذن ربي، والتعليق المذكور يأتي نتيجة لاحد أمرين:

الأول: إن عدم النطق لأن النار كما يصرح القرآن الكريم: ﴿**وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا**﴾ [(١)].

وإذا كان الماء الذي طريق دخوله إلى الجوف من الفم يشوي الوجوه من شدة حرارته، ولهبه فكيف بالحلق، واللسان؟ وأين للمذنب حينئذٍ من لسان ينطق به؟ لو كان ممن حكم عليه أن يكون في جهنم، ولذلك يناجي ربه بأنه: (لو تركه ناطقاً) لضج إليه، ولصرخ، وبكى، وأعول.

الأمر الثاني: أن نقول، إن عدم النطق في النار إنما هو لأجل ما يصاب به الداعي من الحيرة، والذهول مما يرى حوله، وبه، فهو معقود اللسان قد أخذت الآلام الجسدية، والنفسية، وعليه مسالك التفكير والتكلم، لهذا يقول لربه «لئن تركتني ناطقاً»، ومننت عليَّ بهذه النعمة لتكون الوسيلة لبيان شكواي، وتضرعي، وألمي.

أما (بكاء الفاقدين) فإنه بمقتضى الطبع يكون آلم لأن أماً فقدت وحيدها يكون نوحها أشجى، وهي الثكول. وللشعراء على ذلك مقاطع شعرية حزينة تعبر عن مدى تأثر الفاقد عندما يبكي على فقيده.

(ولأنادينك أين كنت يا ولي المؤمنين؟).

الولي: يطلق على عدة معاني منها:

المحب، والصديق، والنصير، والمعتق، والامام باعتباره ولي من لا ولي له [(٢)].

والمراد من الولي في هذه الفقرة هو الناصر كما يتضح ذلك من الشرح.

---

(١) سورة الكهف: الآية، ٢٩ .

(٢) الشرتوني: أقرب الموارد/ وغيره من كتب اللغة/ مادة (ولي).

أما المؤمن: فهو من اتصف بالإيمان، وللعلماء أقوال في حقيقة الإيمان نذكر منها سبعة:

الأول: ما ذهب إليه المتكلمون من الإمامية، وغيرهم، وإليه ذهب المحقق الطوسي، وهو التصديق بالقلب فقط، وإن اختلفوا في معنى التصديق على تفصيل لا مجال للتعرض إليه.

الثاني: ما ذهب إليه المحقق الطوسي أيضاً في التجريد من أنه: التصديق بالقلب، والإقرار باللسان.

الثالث: ما ذهب إليه الشيخ المفيد، وجماعة من محدثي بقية المذاهب، ومن الإمامية أيضاً من أنه: التصديق بالقلب، والإقرار باللسان والعمل بالأركان أي الأعمال المفروضة.

الرابع: قول قدماء المعتزلة، وجماعة أخرى من العلماء أنه: عبارة عن جميع أفعال الجوارح من الطاعات بأسرها، الواجبة والمستحبة.

الخامس: قول أكثر المعتزلة من أنه: فعل الطاعات المفروضة، وترك المحذورات.

السادس: ما ذهب إليه الكرامية من أن الإيمان كلمة الشهادة من دون اعتبار التصديق، وسائر الأعمال الجوارحية.

السابع: قول طائفة من العلماء، ومنهم أبو حنيفة أنه: عبارة عن التصديق مع كلمتي الشهادة[1].

ومن بين هذه الأقوال لا مجال للأخذ **بالقول السادس منها**، وهو الذي تقول به الكرامية من الاكتفاء بكلمتي الشهادة من دون اعتبار للتصديق، وسائر الأعمال الجوارحية.

إن هذا الرأي يرده صريح الآية الكريمة، في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ

---

(١) لاحظ السيد جعفر بحر العلوم: أسرار العارفين/ حيث تناول الموضوع بشكل مفصل، ١٠٠.

﴿تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[(١)].

إن الاكتفاء بكلمتي الشهادة ليس هو الإيمان، بل هو علامة من علامات الإسلام، وإن من قال هاتين الكلمتين ترتب عليه آثار الإسلام من إحترام ماله، ودمه، وعرضه.

أما اعتباره مؤمناً فإن الآية فرقت بين هذين المفهومين: الإيمان، والإسلام.

وأما الأقوال الستة الباقية، فبالإمكان القول بأنه لا تنافي فيما بينها، وإن كان لابد من **اختيار القول الأول منها**. وهو أن حقيقة الإيمان هو التصديق بالقلب فقط، وأما الإقرار باللسان، أو أعمال الجوارح، وما شاكل من هذه الأمور فإنها عوامل تنبئ عن حصول الإيمان بالقلب، فمن قال كلمتي الشهادة، وكانت أعماله الجوارحية مظهرها العمل بالطاعات، والقيام بما تفرضه الشريعة المقدسة فإن من ذلك يعلم أن التصديق حاصل لمثل هذا الشخص، وإلاّ فإن الإيمان الحقيقي لا يتعدى التصديق بالقلب بالله، وبرسوله ذلك التصديق الذي لا يرد عليه شك، ولا ارتياب، التصديق المطمئن الثابت المستقر الذي لا يتزعزع، ولا يضطرب ولا تهجس فيه الهواجس، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور.

(يا غاية آمال العارفين).

أطنب بعض الشراح للدعاء في بيان صفات العارفين، والفرق بينه، وبين الزاهدين، والعابد فعرف:

الزاهد: بأنه من أعرض عن متاع الدنيا، وطيباتها.

وأما العابد: فهو المواظب على فعل العبادات من الصلاة، والصيام، وغيرهما.

وأما العارف: فهو المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديماً لشروق نور الحق في سره[(٢)].

---

(١) سورة الحجرات: الآية، ١٤.

(٢) السيد جعفر بحر العلوم: أسرار العارفين/ ١١٣.

وقد نقل عن صدر المتألهين: بأن العارف هو: من أشهده الله تعالى ذاته، وصفاته، وأفعاله [١].

وقال الشيخ الرئيس: والعارفون المتنزهون إذا وضع عنهم درن مقارنة البدن، وانفكوا عن الشواغل خلصوا إلى عالم القدس، والسعادة، وانتعشوا بالكمال الأعلى، وحصلت لهم اللذة العليا، وقد عرفتها [٢].

وقد تصدى الخاجة نصير الدين الطوسي، والفخر الرازي في شرحيهما إلى شرح ما جاء عن الشيخ الرئيس بما لا مجال إلى نقله [٣].

ومهما قيل في تعريف العارف، فالدعاء في هذه الفقرة يقصد أولئك الذين عرفوا الله حق معرفته وعرفوا فيه العظمة الإلهية، والقدرة اللامتناهية، ومن عرف الله حق معرفته خصه الله بعنايته، ولطفه، ولهذا ينادي الداعي ربه حيث وصفه بأنه:

(غاية آمال العارفين). أولئك الذين هم عالمون بحقيقته.

(يا غياث المستغيثين):

والغياث: هو الناصر، وإغاثة إغاثة، أعانه ونصره، وأغاثهم الله كشف شدتهم [٤].

هذا ما تفسر به كتب اللغة مادة (أغاث)، ولكنها من حيث التركيب، وفي لسان الداعي تحمل معنىً آخر أرق من التعبير بالناصر.

ذلك، لأن هذا التعبير يستعمله العرف عند وقوع الإنسان في الشدة بحيث تغلق عليه، وبوجهه كافة الأبواب، فيستغيث تماماً كما هو الحال في السفن الغريقة عندما تصدر إشارة الغوث بطلب النجدة لإنقاذها إذا حل فيها العطب، وبدأت في الغرق.

ويصور الداعي نفسه، وقد انسدت عليه المسالك فلا ملجأ له إلاّ الله، ولا مغيث له في محنته إلاّ رحمته.

---

(١) القاضي السبزواري: شرح دعاء كميل/ ١٦٩.

(٢-٣) الخاجة نصير الدين الطوسي، والفخر الرازي: شرح الإشارات/ ٢، ٩٦.

(٤) ابن منظور: لسان العرب/ مادة (غوث).

(يا حبيب قلوب الصادقين):

قيل في تفسير الحبيب: إنه يكون بمعنى الفاعل، وبمعنى المفعول.

فمرة يقال: إنه عزّ وجل حبيب لقلوب الصادقين، وهم الذين صدقوا به، ودخلوا في دينه فالحبيب يقصد به المحبوب أي من أحبه الناس.

ومرة يقال: إنه تعالى هو الذي يحب تلك القلوب التي صدقت به وآمنت به وبرسوله، وبدينه.

وعلى كلا التقديرين: يفرض الداعي نفسه من الذين صدقوا بالله وأخلصوا النية على ذلك، وإن ما صدر منه لن يعود إليه، وهو صادق في دعواه تلك.

(ويا إله العالمين):

وهكذا تتوالى نداءات الاستغاثة، وطلب العون منه تعالى، فهو غياث المستغيثين به، وهو حبيب قلوب المصدقين به، وهو بعد كل ذلك «إله العالمين».

والعالم بالفتح هو: الخلق كله.

(أفتراك سبحانك يا إلهي وبحمدك تسمع فيها صوت عبدٍ مسلم سجن فيها بمخالفته).

ومن هنا يبدأ الدعاء بالمقطع الثاني، حيث يشرع الداعي بتثبيت أن جرمه لم يكن من النوع الذي يقبل المغفرة، وهو الشرك، والإلحاد بربوبيته تعالى، بل هو من النوع الذي يقبل التخفيف، والعفو، وقد ألمح الدعاء إلى هذه الجهة بقول الداعي مخاطباً ربه «تسمع فيها صوت عبدٍ مسلم سجن فيها بمخالفته» فهو وحتى تلك اللحظة التي يكون فيها في النار يعبر عن نفسه بأنه (مسلم) وليس بمشرك لا يغفر له.

ومن العرض السريع في فقرات الدعاء للمقطعين الأول والثاني من هذا الفصل، تظهر لنا صورة التدرج من الأعلى إلى ما هو دون تلك المرتبة في إطلاق الداعي على نفسه صفة الإيمان أولاً:

ومن ثم سمة الإسلام، فهو فيما سبق هذه الفقرة يخاطب ربه بالتعبير قائلاً: (أين

كنت يا ولي المؤمنين)؟

وطبيعي أن الداعي هو فرد من أفراد أولئك الذين آمنوا بالله وبعظمته، ولذلك ناداه بهذا النداء.

أما هنا فقد عبر عن نفسه بأنه مسلم سجن فيها بمخالفته، وقد بيّنا أن صفة الإيمان أعلى من صفة الإسلام لأن كل مؤمن مسلم دون العكس، فالإيمان أضيق دائرة من ناحية القيدية من الإسلام، وبالمصطلح الأصولي بالإمكان القول بأن النسبة بين هذين المفهومين الإيمان والإسلام هي العموم المطلق، وقد استعمل الداعي هذا التدرج ليقول لربه:

بأنني لو لم أعد من المؤمنين، فلا أقل أنني مسلم لإظهاري الشهادتين.

وأنك يا رب ليس لك شريك، وأن محمداً عبدك، ورسولك.

وللمسلم حرمته، وهي تنبع من حرمة الإسلام، فليس للداعي أن يترك التشبث بهذه الوسيلة، ولسانه يردد كلمة «لا إله إلاّ الله».

أما تركيب جملة «أفتراك سبحانك» فقد تقدم نظيرها في قوله: (يا إلهي وسيدي وربي أتراك معذبي بنارك بعد توحيدك) وذكرنا الوجوه في مثل هذا الاستعمال.

(وذاق طعم عذابها بمعصيته، وحبس بين أطباقها بجرمه، وجريرته).

ومن الواضح أن الضمائر المتعاقبة في قوله (عذابها، وأطباقها) تعود إلى جهنم، وقد تناولت الآيات الكريمة، والأخبار الشريفة نار جهنم، وصفاتها، ونوعية العذاب الذي يجري فيها، فمن عذابها ما جاء في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ

(١) سورة النساء: الآية، ٥٦.

أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [1].

وقوله تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [2].

والآيات في هذا الباب كثيرة، وقد صورت لنا جهنم بما يشيب لسماعه الطفل، ويخاطب الداعي ربه متعجباً بأنه كيف يسمع ويرى عبده المسلم، يتحمل هذه الآلام ويتجرع هذا التعذيب.

(وهو يضج إليك ضجيج مؤملٍ لرحمتك ويناديك بلسان أهل توحيدك ويتوسل إليك بربوبيتك).

ويضج الداعي، وهو مؤمل لرحمة ربه، ولو كان في جهنم (فلا تقنطوا من رحمة الله) مطلق، ولم يقيد بدار الدنيا، أو الآخرة، بل النداء عام لجميع العباد:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [3].

شامل للدارين، فعلى العبد أن لا يقطع رجاءه من الله عزّ وجل.

إلهي، وكيف يقطع رجاءه، وهو يناديه بلسان أهل توحيده من التسبيح بحمده، والتهليل له، وتكبيره، وتعظيمه، وكلها صفات لا ينطق بها لسان مشرك، ولا يعترف بها من لا يقول: (لا إله إلاّ الله).

ويتوسل، ويجعل الوسيلة له: تصديقه بربوبيته، واعترافه بأنه (إله العالمين)، ورب الأرباب، وهو خالق كل شيء، وهو القدير، وهو الفعال لما يشاء.

(يا مولاي فكيف يبقى في العذاب، وهو يرجو ما سلف من حلمك، أم كيف تؤلمه النار، وهو يأمل فضلك ورحمتك، أم كيف يحرقه لهيبها وأنت تسمع صوته وترى مكانه).

---

(١) سورة الحج: الآيات، ١٩ ـ ٢٢.

(٢) سورة غافر: الآيتان، ٧١ و ٧٢.

(٣) سورة الزمر: الآية، ٥٣.

وفي مناجاة الداعي مع ربه بهذه الفقرات يوجه الدعاء مسيرة التعطف إلى استعمال القاعدة العرفية، والممضاة من قبل الشارع المقدس نفسه، والتي يطلق عليها بعملية الاستصحاب حيث يبقى الإنسان ما كان على ما كان ما لم يتغير الموضوع في الزمانين. ويأتي استفهام الداعي، بقوله: (فكيف يبقى في العذاب)، تطبيقاً لهذه القاعدة، فإن العبد قد تعود من حلم الله ما جرأه على الإقدام على الذنب.

وإذاً فهو يطالب بذلك الحلم، والإغضاء السابق من رب جليل على عبد مذنب، والموضوع هو نفسه لم يتغير.

عبد تجرأ على ربه، وقد ساقه على ذلك ستر ربه المرخى عليه، ذلك الستر الذي نوه عنه أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وهو يناجي ربه بقوله: (فوعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتي اياك مخالفتك، ولا عصيتك إذ عصيتك، وانا بمكانك جاهل، ولا لعقوبتك متعرض، ولا بنظرك مستخف، ولكن سولت لي نفسي، وأعانني على ذلك شقوتي، وغرني سترك المرخى عليَّ فعصيتك وخالفتك بجهدي)[1].

وهذا الستر هو فضل الله على عبده بالإغضاء عن سيئاته.

وإذاً فأين حلمك يا رب، ولماذا أعرضت بوجهك الكريم عني؟

وهل لمن كان فضلك، ورحمتك أمله الوحيد، ومورده الذي يرتوي منه أن تؤلمه النار، أو يحترق بلهيبها، وهو بمسمع، ومرأىً منك تراه يتألم، ويتضور، ويجزع، وأنت ربه، وهو عبدك، وأنت مقصده، وهو ضيفك.

(أم كيف يشتمل عليه زفيرها، وأنت تعلم ضعفه).

زفر الرجل زفيراً: أخرج نفسه بعد مدِ اياه، والنار سمع صوت لتوقدها[2].

---

(١) فقرات من مناجاة أمير المؤمنين في صلاة الليل .

(٢) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (فرض).

ويأتي لزفير جهنم ذكر في القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [(١)].

ونقف أمام هذا التصوير: منظر النار، وهي تستقبل ضيوفها بتغيظ، وزفير فعن عبيد بن عمير قال: **(إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب، ولا نبي مرسل إلاّ ترعد فرائصه)** [(٢)].

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن كعب قال: (إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين، والآخرين في صعيدٍ واحد، ونزلت الملائكة صفوفاً، فيقول الله لجبرائيل: إئت بجهنم، فيأتي بها تقاد بسبعين ألف زمام، حتى إذا كانت من الخلائق على قدر مائة عام زفرت زفرة طارت لها أفئدة الخلائق، ثم تزفر زفرة ثانية، فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلاّ جثى لركبتيه.

ثم تزفر الزفرة الثالثة فتبلغ القلوب الحناجر، وتذهل العقول، فيفزع كل امرئٍ إلى عمله حتى أن إبراهيم الخليل (عليه السلام) يقول: بخلتي لا أسألك إلاّ نفسي.

ويقول موسى (عليه السلام): بمناجاتي لا أسألك إلاّ نفسي، ويقول عيسى (عليه السلام) بما أكرمتني لا أسألك إلاّ نفسي، ولا أسألك مريم التي ولدتني، ومحمد (صلى الله عليه وآله) يقول: أمتي أمتي، لا أسألك اليوم نفسي.

فيجيبه الجليل جلاله: إلاّ أن أوليائي من أمتك لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون. فوعزتي، وجلالي لأقرن عينك في أمتك ثم تقف الملائكة بين يدي الله ينتظرون ما يؤمرون) [(٣)].

إلهي فكيف بهذا البدن الضعيف أن يقف أمام هذه الأهوال إذا كان مثل إبراهيم خليل الله ينادي لا أسألك إلاّ نفسي؟

---

(١) سورة الفرقان: الآية، ١٢.

(٢) جلال الدين السيوطي: الدر المنثور/ ٥، ٦٤.

(٣) جلال الدين السيوطي: الدر المنثور/ ٥، ٦٤.

(أم كيف يتقلقل بين أطباقها وأنت تعلم صِدقَهُ).

قرئت: (**يتقلقل**) بالقاف، كما، وقد قرئت ـ **يتغلغل** ـ بالغين وقلقل بالقاف: الشيء حركه، فكان له صوت.

وغلغل بالغين: الرجل أسرع في مشيه (١).

والمعنى على القراءة الأولى: هو أنه كيف ينتقل العبد بين أطباق جهنم بأهوالها، وحرها وزفيرها، وسعيرها، وأنت تعلم صدقه في دعائه، والتجائه إليك؟

وأما على القراءة الثانية: فالمراد أنه كيف يُسر به إلى نار جهنم بين أطباقها.

وربما كان المراد من التغلغل هو كيف يتقلب بين أطباقها، وهو مغلغل بالسلاسل كما تصوره الآية الكريمة، في قوله تعالى: ﴿ **إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ** ﴾ (٢).

أما الأغلال فهي: أطواق الحديد تجعل في الأعناق، وهكذا السلاسل تشد بها أيديهم إلى أعناقهم، وهم يسحبون في جهنم.

وعن ابن عباس قوله: (يسحبون في الحميم، فيسلخ كل شيء عليهم من جلد، ولحم، وعرق حتى يصير في عقبه) (٣).

(أم كيف تزجره زبانيتها، وهو يناديك يا ربه).

الزجر: هو المنع، والنهي، والانتهار.

أما الزبانية: فهم الذين يزبنون الناس أي يدفعونهم.

وقال قتادة: الزبانية، عند العرب الشرطة، وكله من الدفع وسمي بذلك بعض الملائكة لدفعهم أهل النار إليها.

وقال الزجاج: الزبانية: الغلاظ الشداد، وهم هؤلاء الملائكة الذين، قال تعالى

---

(١) الشرتوني: اقرب الموارد/ مادة (قلقل، وغلغل).

(٢) سورة غافر: الآيتان، ٧١ و ٧٢.

(٣) جلال الدين السيوطي: الدر المنثور/ ٥، ٣٥٧، الناشر: محمد أمين.

عنهم: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [١].

وقد جاء في الأخبار ذكر صور مرعبة للزبانية، وفي التعبير عنهم في الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ ما يكفي لبث الرعب في النفس، وهي تتغلغل بين أطباق جهنم تنهره مثل هذه الملائكة فهل لمن ينادي: يا رب، ويلجأ إليه أن يكون مصيره الانتهار، والطرد من هؤلاء الملائكة الغلاظ الشداد؟

(أم كيف يرجو فضلك في عتقه منها فتتركه فيها).

وليس الرجاء من الداعي مجرد طلب، والتماس، بل هو مطالبة بما وسم به تعالى نفسه من أنه لا يخيب رجاء من رجاه، ولا يترك من قصده يأمل فضله لذلك نرى الداعي يعود ليقول:

(هيهات ما ذلك الظن بك، ولا المعروف من فضلك).

والتعبير بقوله: (ما ذلك الظن بك) كلمة يستعملها الإنسان في مقام معاتبة من يريد توجيه العتاب إليه، وهكذا ما عطف على هذه الجملة من قوله: «ولا المعروف من فضلك».

وإلاّ فإن الداعي يقطع بأن ذلك الحكم التأديبي عليه من قبل الله ليس فيه حيف، أو ميل عليه، بل هو مقتضى ما عمله من المخالفات، ولكنه يغالط نفسه، فيركن إلى حلم الله، وعفوه ولطفه، وفضله ليتملق إليه، والرجاء رائده إلى ما يبتغيه من المغفرة.

(ولا مشبه لما عاملت به الموحدين من برك وإحسانك).

وقد فرض الداعي نفسه في هذه الفقرة أحد مصاديق هذه الكبرى فهو موحد وليس بمشرك، وكل موحد ينال من لطف الله، وإحسانه ما ينجيه من نار جهنم، فإذاً لابد من أن يكون مشمولاً لهذا الفيض، أما أنه يبقى في العذاب، فهذا لا يشبه ما تفضل به الله، وعامل موحديه.

---

(١) سورة التحريم: الآية، ٦ . لسان العرب: مادة (زجر، وزبخه) .

(فباليقين أقطع لولا ما حكمت به من تعذيب جاحديك، وقضيت به من اخلاد معانديك لجعلت النار كلها برداً وسلاماً، وما كان لأحدٍ فيها مقراً، ولا مقاماً).

وبهذه الفقرات من الدعاء يبدأ الداعي **المقطع الثالث من هذا الفصل.**

وقد بيّنا أنه يحتوي على التعرض إلى مطلبين كان المطلب الأول منهما في بيان: من يخلد في النار، ومن التعبير بلفظ «جاحديك ومعانديك» يظهر لنا أن من كان على علمٍ بمخالفته لله في أمر الربوبية، أو ما يعود إلى أمر الربوبية، فهو خالد في النار، ذلكَ لأن الجحود: في اللغة هو: الإنكار مع العلم بذلك الشيء كما أن:

العناد: هو المعارضة بالخلاف، وأن المعاند أن يعرف الرجل الشيء فيأباه، ويميل عنه [1].

بهذا المقدار من الوصف يتعرض الدعاء إلى من يخلد في النار.

أما أصل الخلود: ولمن يكون من المخلوقين فإنا نهرع إلى القرآن الكريم لننهل من فيضه.

لقد تعرضت آيات عديدة إلى موضوع الخلود في النار، ولربما جاوزت الثلاثين آية [2].

---

(١) ابن منظور: لسان العرب/ مادة (جحد، وعند).

(٢) وهي في سورة البقرة الآيات التالية: ٣٩، ٨١، ١٦٣، ٢١٧، ٢٥٧، ٢٧٥.
وفي آل عمران الآيات، ٨٨، ١٦٦.
وفي النساء الآيات، ١٤، ٩٣، ١٦٩.
وفي المائدة الآية، ٨٠، وفي الانعام الآية، ١٢٨، وفي الأعراف الآية، ١٣٦، وفي التوبة الآيات، ١٧، ٦٣، ٦٨، وفي يونس الآيات، ٢٧، ٥٢، وفي الرعد الآية، ٥، وفي طه الآية، ١٠١، وفي الأنبياء الآية، ٩٩، وفي المؤمنون الآية، ١٠٣، وفي الفرقان الآية، ٦٨، وفي النمل الآية، ٢٩، وفي السجدة الآية، ١٤، وفي الأحزاب الآية، ٦٥، وفي الزخرف الآية، ٧٣ و ٧٤، وفي المؤمن الآية، ٧٠، وفي المجادلة الآية، ١٧، وفي الحشر الآية، ١٧، وفي التغابن الآية، ١٠، وفي الجن الآية، ٢٣، وفي البينة الآية، ٦.

وعند استعراضنا لمجموع الآيات نرى الكثير منها يصرح بأن الخلود في النار هـو جزاء من كفر بالله، ومن هذا القسم ما جاء في قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ (١).

وبهذا النحو من التصريح جاءت عدة روايات:

أما القسم الآخر، فقد حكمت بالخلود، ولكنها على غير الكفار بحسب ظاهر هذه الآية، **وهذه على أقسام:**

فمنها: ما صرح بالخلود على من قتل نفساً محرمة، وذلك في قوله عزّ وجل:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ (٢).

ومنها: قوله تعالى:

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ (٣).

فإن الآية الكريمة، قد حكمت على من عصى الله، ورسوله بهذا . وهناك آية أخرى حكمت على المرابين بالخلود في نار جهنم، وذلك في قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ (٤).

وهكذا تتوالى الآيات، ونراها تخبر عن أن الخلود في النار هو جزاء أشخاص لم يكونوا من الكفار بحسب تصريح القرآن (٥)، وبين يدي هذا النوع من الآيات

---

(١) سورة البينة: الآية، ٦.

(٢) سورة النساء: الآية، ٩٣.

(٣) سورة النساء: الآية، ١٤.

(٤) سورة البقرة: الآية، ٢٧٥.

(٥) لاحظ ما تقدم من تعرضنا لمجموع الآيات الواردة في مادة (خلد).

الكريمة نقف لنرى ما يوجهه البعض من الإشكال على حدة الجزاء المفروض فيها، والذي لم يفرق بين الكافر، فجاؤه نار جهنم، وبين آكل الربا، وهو مؤمن بالله، فجزاؤه في نار جهنم خالداً فيها، وهكذا من قتل النفس المحترمة، وكذا من عصى الله، والعصيان مطلق في الآية يشمل كل مخالفة.

ويجتمع مع الإيمان بالله، وكذا من حاد الله، ورسوله، في كل هذه الصور يفرض الشخص مؤمناً، ويقوم بهذه الأعمال، فإن جزاءه نفس الجزاء الذي يتلقاه الكافر، وأن في هذا الفرض من الشدة، والغلظة ما لا يلتقي، ورحمة الله، وعدله.

فأين إذاً حرمة الإيمان به، وأين إذاً مزية التوحيد، وعدم الشرك؟

شبهة لابد من الإجابة عنها.

وبالفعل فقد أجيب عنها بعدة أجوبة:

الجواب الأول: إن الآيات الواردة في الخلود، وإن كان البعض منها قد حكم بهذه الصفة على غير الكافر كالزاني، وقاتل النفس، وآكل الربا إلاّ أن من يتتبع موارد تلك الآيات يجد المبحوث عنه فيها، هو: الكافر إضافة إلى هذه الصفة الثانية، فتكون صفة الخلود لدى النتيجة قد خص بها الكفار، وعلى سبيل المثال، فلنقف بين يدي الآية التالية، وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾[1].

وقد قيل فيها: أن الآية أخبرت عن خلود الزاني، والقاتل للنفس المحترمة من النار، كما يعطي ذلك قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾.

ولكن الصحيح هو عدم ورود الاشكال المذكورة، وذلك لأن الآية بظاهرها تحدثت عن فئتين، أو فئة واحدة بجانبيها السلبي والإيجابي، فبدأت بالذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يتعرضون لقتل النفس المحترمة، ولا يتعاطون عملية الزنا

---

(١) سورة الفرقان: الآيتان، ٦٨ و ٦٩.

فعطفتهم على ما سبق من الآيات حيث كانت تتحدث عن الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا، ولم يفتروا، وعلى الذين يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [1]، وهؤلاء هم: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [2]. وسياق الآيات هو مدحهم، والتحدث عن محاسنهم.

وبعد ذلك بدأت في الأخبار عن أن من يفعل ذلك، والإشارة في قوله ـ ذلك ـ إلى ما سبق قريباً، والمشار إليه من يتحلى بهذه الأوصاف، وهي: من يدعو مع الله إلهاً آخر، وما سبق قريباً، وما لحق من الصفات فإن لمثل هذا نار جهنم لأنه يدعو مع الله إلهاً آخر، ولأجل هذه الصفات المجتمعة فيه مع الشرك يضاعف له العذاب فالخلود للشرك، والمضاعفة لهذه الصفات، فلم تكن الآية قد أطلقت صفة الخلود على غير الكافر.

وبتعبير أوضح، يحمل قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾، على فعل جميع الثلاثة: الشرك، والقتل، والزنا، لأن الآيات في الحقيقة تنزه المؤمنين عما كان الكفار مبتلين به، وهو الجميع دون البعض.

وهكذا الحال في بقية الآيات حيث فسر فيها العصيان، أو اكتساب السيئة، أو بقية الصفات بالكفر، أو كان موردها الكافر، وتكون النتيجة هي، أن الآيات كلها أطلق الخلود فيها على الكفار تصريحاً، أو بقرينة المورد، والسياق.

الجواب الثاني: أن يفسر الخلود فلا يراد به البقاء إلى ما لا نهاية كما يظهر من لفظ ـ خلد ـ أنه: دام، وبقي، بل يراد به المكث الطويل أعم من المنقطع، والمؤبد.

وحينئذٍ فيفرق بين الإثنين بحسب القرائن ليعرف المؤبد من المنقطع.

والجواب الثالث: أن يقال: إن هذه الآيات الكريمة حيث تطلق الخلود على من يعص الله، ورسوله، أو على من يتعد حدوده، أو من كسب السيئات، وهكذا فإن

---

(١) سورة الفرقان: الآية، ٦٥.

(٢) سورة الفرقان: الآية، ٦٣.

ذلك بيان لطبع المعصية، وأنها بحسب النظرة الأولى تقتضي ذلك، ولكن تخصص كل هذه الآيات، بقوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ (١).

فيحمل الخلود لمن أشرك على ما لا نهاية لأنه لا يغفر أن يشرك به، وأما الخلود عند قتل النفس، وما شاكل من الصفات المذكورة فإنه محمول على الاقتضاء، ويلحقه الغفران لأنه وعد بأنه عزّ وجل يغفر غير الشرك لمن يشاء، وكل هذه الصفات من غير الشرك، فتكون الآية المذكورة مفصلة بين المقامين الشرك، وغيره.

(لجعلت النار كلها برداً وسلاماً، وما كان لأحدٍ فيها مقراً ولا مقاماً).

وقوله: «لجعلت النار» جواب لقوله: (لولا ما قضيت به من تعذيب جاحديك، واخلاد معانديك).

أي لولا ما سبق من علمك، وقضائك من خلق النار، وجعلها جزاءً لمن أشرك بك، وجحدك لجعلت النار برداً، وسلاماً، وما كان لأحدٍ فيها مكان استقرار.

وقد سبق هذا الاستعمال أن جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ (٢).

والبرد: خلاف الحر، والسلام: كناية عن الراحة، وعدم الأذى، ومنه سميت الجنة «دار السلام» أي: دار الراحة، لعدم وجود أي أذىً، ومزعج فيها بل فيها كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، ولذا كانت دار دعة، واطمئنان.

أما كيف تكون النار برداً، وسلاماً على الناس فهل ذلك بإبدال حقيقتها، وجعلها كالجنة، مثلاً، أو أنها نار، ولكنها فاقدة الحرارة، والتأثير؟

كل ذلك لم يظهر من الفقرة المذكورة كما جرى مثل هذا البحث في تفسير الآية المتقدمة في إبراهيم (عليه السلام).

---

(١) سورة النساء: الآية، ٤٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآية، ٦٩.

فقيل فيها: «أن الله سبحانه أحدث فيها برداً بدلاً من شدة الحرارة التي فيها فلم تؤذه».

وقيل فيها: إن الله حال بينه، وبينها فلم تصل إليه.

وقيل فيها: غير هذين الوجهين، والمهم أن الله سبحانه قطع على نفسه أن يخلق ناراً، وأن يعذب فيها جاحديه، ومنكريه، ويؤدب فيها من البشر من يتعدى على حقوق الآخرين، فينصف المظلوم بتأديب ظالمه، ولولا ذلك لكان الكل يتنعمون بروح الله وريحانه، وهم خليط من ظالم ومظلوم، وحينئذٍ فمتى ينال الظالم جزاءه، وهذا خلاف العدل، وبعيد عن الانصاف، لذلك كانت جهنم حداً لكل ذلك.

(لكنك تقدست أسماؤك أقسمت أن تملأها من الكافرين من الجنة والناس أجمعين).

قدس: طهر، وتبارك، وتقدس: تطهر، والمراد وصف أسمائه بأنها، المطهرة، والمباركة، وهذا نوع من التعظيم يمجد الداعي به ربه ويكمن القسم منه تعالى في أن يملأ جهنم من الكافرين في الآية الكريمة:

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[١].

يملأها من إبليس، وشياطينه، وكل من تبعه من الجن، والإنس.

ومن هذه الفقرة يأخذ الدعاء بتعرضه إلى المطلب الثاني، وهو اشتراك الجن، والإنس في الجزاء على ما يصدر من كلٍ منهم من الجرائم.

ومن هذا المنطلق، لابد لنا من التطرق إلى حقيقة الجن، وكيفية صدور الجرائم منهم، وخلودهم في النار بعد ذلك كالإنس فنقول:

الجن [٢]: من الجان [٣] والجان في اللغة هو: الساتر من قولك: إذا جن

---

(١) سورة ص: الآيتان، ٨٤ و ٨٥.

(٢) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (جنن).

(٣) السيد جعفر بحر العلوم: أسرار العارفين/ ١٤١.

الشيء أي: ستره.

والجن: مخلوق من مخلوقات الله مستور عن حواسنا كبشر، وسمي بهذا الاسم لتواريه عن الأعين كما سمي الجنين جنيناً لهذا السبب لأنه متوارٍ عن الأنظار في بطن أمه.

وقد اختلفوا في حقيقته فقيل: كما عن الشيخ ابن سينا أنه:

حيوان هوائي يتشكل بأشكال مختلفة [١].

وقيل: أن الجن ليسوا أجساماً، ولا جسمانية لهم، بل هي موجودات مجردة مخالفة بالماهية للنفوس البشرية متعلقة بأجساد نارية وهوائية قادرة على التصرف في هذا العالم [٢].

والبحث عن الجن شأن بقية البحوث التي وقع النزاع فيها حيث ينتصر البعض لنفي وجود حقيقة الجن بينما يدلل الآخرون على وجودهم.

وعلى الأخص إذا كان موضوع النزاع كمثل موضوعنا، والذي يكون البحث فيه عن وجودات ليست مرئية، ومشاهدة للعين المجردة، وحتى بكل وسائل التكبير لأن القضية تعود لما وراء ما نعيش فيه من محيط.

والمهم: أن انكار حقيقة الجن لا مجال له بعد تصريح القرآن الكريم بوجودهم، وبيان الكثير عن أحوالهم، وإن لم تتعرض الآيات إلى اعطاء صورةٍ عن حقيقتهم بأكثر من أنهم مخلوقون من النار، وأن خلقهم كان قبل خلق الإنسان، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [٣].

(ونار السموم أي النار الحارة، وقال عبد الله: هذه السموم جزء من سبعين جزء من السموم التي خرج منها الجان، وهو مأخوذ من دخولها بلطف في مسام البدن،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سورة الحجر: الآية، ٢٧.

ومنه السم القاتل، يقال: سم يومنا، يسم سموماً إذا هبت له ريح السموم)(١).

أما أن خلقهم كان قبل خلق الإنسان فلأنه تعالى أخبر في الآية السابقة قائلاً:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾(٢).

والمراد بالإنسان المخلوق هو آدم (عليه السلام) وبعدها أخبر أن الجان خلقناه من قبل، أي قبل خلق آدم.

وقد تعرض القرآن إلى صور عديدة تتعلق بالجن غير ما سبق من بيان حقيقتهم ـ فمثلاً ـ بالنسبة إلى أنهم قادرون على الإتيان بأعمال تستدعي كونهم يشعرون، ويريدون، ويعملون فقد قالت الآيات الكريمة تحكي قضاياً وقعت للجن مع النبي سليمان (عليه السلام) ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾(٤).

وقال عزّ وجل: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾(٦).

وقد قال العفريت قولته هذه بعد أن طلب سليمان من أعوانه أن يؤتى له بعرش

---

(١) الشيخ الطوسي: التبيان في تفسير القرآن/ ٦، في تفسيره لهذه الآية، مطبعة دار الأندلس ـ بيروت.

(٢) سورة الحجر: الآية، ٢٦.

(٣) سورة الأنبياء: الآية، ٨٢.

(٤) سورة سبأ: الآيتان، ١٢ و ١٣.

(٥) سورة سبأ: الآية، ١٤.

(٦) سورة النمل: الآية، ٣٩.

الملكة بلقيس، ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [١].

وكل هذه الأعمال تستدعي وجود طاقة عند الجن يتمكن بها من أعمالها للقيام بهذه الأمور المسبوقة بتفكير، وإرادة، واقدام، وما شاكل.

ويظهر من قوله تعالى، في سورة الأحقاف: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ [٢].

وهكذا قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ [٣].

أي للجن تشكيلات تخصهم من حيث التنظيم الاجتماعي فهم أمم كأمم الإنس، وإن لهم قبائل كما يظهر من قوله عزّ وجل:

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [٤].

ويظهر لنا من الآية الكريمة: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [٥].

إن قانون الرجولة، والأنوثة يشملهم ففيهم الذكور، وفي قبالهم الاناث لأن لهم ذرية كما تصرح الآية بذلك عندما تقول: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى ﴾ [٦].

أما أنهم يشتركون مع الإنس في كونهم يكلفون بالأحكام فيستفيد ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [٧].

وأما من ناحية إيمانهم، وفسقهم فإن الآيات ذكرت أن منهم المؤمنين كما، وأن فيهم غير المؤمنين، ومنهم المسلمون، وغير المسلمين، قال تعالى:

---

(١) سورة النمل: الآية، ٣٨.

(٢) سورة الأحقاف: الآية، ١٨.

(٣) سورة الأعراف: الآية، ٣٨.

(٤) سورة الأعراف: الآية، ٢٧.

(٥) سورة الجن: الآية، ٦.

(٦) سورة الكهف: الآية، ٥٠.

(٧) سورة الذاريات: الآية، ٥٦.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾(٤).

ويوصفون بالفسق كما جاء في قوله تعالى:

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾(٥).

(وأن تخلد فيها المعاندين).

عاند الشيء: جانبه، وفارقه، وعارضه بالخلاف، والعصيان.

وطبيعي: إن مثل هذا الشخص يخلد في النار لأن معارضة الإنسان بالخلاف، والعصيان معناه: عدم توبته، وتراجعه عن المخالفات التي أقدم عليها، وحينئذٍ فلو كان قد أدركه الموت، وهو على هذه الحالة، فلا تنفعه حينئذٍ شفاعة الشافعين.

وجزاؤه أن يبقى مخلداً في النار لو كان جرمه الشرك، وإلاّ فبحسب المدة التي كان يستحقها نتيجة أعماله التي صدرت منه.

(وأنت جل ثناؤك قلت مبتدئاً وتطولت بالإنعام متكرماً أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون).

ولا حاجة للتدليل على هذا الأمر فكيف يتساوى المؤمن والفاسق وعند أي نقطة يلتقيان، والخطان متعاكسان؟ فخط المؤمن يتجه نحو الطريق المستقيم حيث

---

(١) سورة الجن: الآية، ١١.

(٢) سورة الجن: الآية، ١٣.

(٣) سورة الجن: الآية، ١٤.

(٤) سورة الجن: الآيتان، ١ و ٢.

(٥) سورة الكهف: الآية، ٥٠.

يوصله إلى رحاب الله، وأمانه، وأما الفاسق فإن الخط الذي يسير عليه هو الخط المعوج المخالف لدين الله، وتعاليمه المقدسة، وإذاً فكيف يلتقي الخطان؟

ومن هذا التنافي في المبدأ، والاتجاه لا معنى لفرض جعل الجزاء لكلا هذين واحداً، بل لابد من التفريق بين الجزائين لينال المؤمن من روح الله ما يميزه عن المصير الذي يلقاه الفاسق من الخلود في نار جهنم لأنه معاند، وعاصٍ.

وقد عرضت الآية الكريمة هذا المصير لكلٍ من المؤمن، والفاسق فصنفت الجزاء المترتب على ما قدمه المؤمن في حياته، وما قام به الفاسق من أعمال، فقال تعالى في ذيل الآية الكريمة: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾[1].

جنات المأوى نزلاً: لمن؟ وبنص الآية هي لمن آمن، وعمل الصالحات، وقد حصلوا عليها جزاءً على عملهم الصالح.

والنار مأوىً: ولمن؟ إنها لمن فسق، ولم يعمل الصالحات نتيجة الفسق، وعدم الأخذ بما أملته الشريعة المقدسة، واراده الله للبشر من التقيد بتعاليم الله، والخروج من هذه الدنيا، والقلب مفعم بالايمان لا الفسق، والمخالفات.

١٧ـ (إلهي، وَسَيِّدي فأسْأَلُك بِالقُدْرَةِ الّتي قَدَّرْتَها، وبالقَضيَّةِ الّتي حَتَمْتَها، وَحكَمْتَها، وَغَلَبْتَ مَنْ عَلَيْهِ أجريتَها، أن تَهَبَ لي في هَذِه اللَّيْلَةِ، وَفي هَذِهِ السَّاعَةِ كُلَّ جُرْمٍ أجْرَمْتُهُ، وَكُلَّ ذَنْبٍ أذْنَبْتُهُ، وَكلَّ قَبيحٍ أسرَرْتُهُ، وَكُلَّ جَهْلٍ عَمِلْتُهُ، كَتَمْتُهُ أوَ أعْلَنْتُهُ، أخْفَيْتُهُ، أَو أظْهَرْتُهُ، وَكُلَّ سَيئةٍ أمَرْتَ بإثْباتِها الكِرامَ الكاتبينَ الّذينَ وَكَّلْتَهُمْ بِحِفْظِ ما يكُونُ مِنّي وجَعَلْتَهُمْ شُهُوداً عَلَيَّ مَعَ جَوارِحي، وَكُنْتَ أنْتَ الرَّقيبَ عَلَيَّ مِنْ وَرائِهِم، وَالشَّاهِدَ لِما خَفِيَ عَنْهُمْ، وَبِرَحْمَتِكَ أخْفَيْتَهُ، وَبِفَضْلِكَ سَتَرْتَهُ، وأنْ تُوَفِّرَ حَظّي مِنْ كُلِّ خَيْرٍ

---

(١) سورة السجدة: الآيتان، ١٩ و ٢٠.

تُنْزِلُهُ، أو إحْسانٍ تُفْضِلُهُ، أوْ بِرٍ تَنْشُرُهُ، أوْ رِزْقٍ تَبْسُطُهُ، أو ذَنْبٍ تَغفِرُهُ، أوْ خَطأٍ تَسْتُرُهُ.

يَا رَبِّ. يَا رَبِّ. يَا رَبِّ. يا إلهي وَسَيِّدي وَمَولايَ وَمالِكَ رِقِّي يا مَنْ بِيَدِهِ ناصِيَتي يا عَليماً بِضُرِّي وَمَسْكَنَتي يا خَبيراً بِفَقْري وَفَاقَتي يَا رَبِّ. يَا رَبِّ. يَا رَبِّ، أسأَلُكَ بِحَقِّكَ، وَقُدْسِكَ، وَأَعْظَمِ صِفاتِكَ، وأَسْمائِكَ، أنْ تَجْعَلَ أَوْقاتي في اللَّيلِ، والنَّهارِ بِذِكْرِكَ مَعْمورَةً، وَبِخِدْمَتِكَ مَوْصُولةً، وَأعْمالي عِنْدَكَ مَقْبولَةً حَتّى تكُونَ أعْمالي، وَأورادِي كُلُّها وِرْداً واحِداً، وَحَالي فِي خِدْمَتِكَ سَرْمَداً. يا سَيِّدي: يَا مَنْ عَلَيْهِ مُعَوَّلي، يَا مَنْ إليْه شَكَوْتُ أحْوالي، يَا رَبِّ. يَا رَبِّ. يَا رَبِّ، قَوِّ عَلى خِدْمَتِكَ جَوارِحي، وَاشْدُدْ على العَزيمَةِ جَوانحي، وَهَبْ لِي الجِدَّ فِي خَشْيَتِكَ، وَالدَّوَامَ فِي الأتِّصالِ بِخِدْمَتِكَ حتّى أسْرَحَ إلَيْكَ في مَيادينِ السَّابِقينَ، وَأُسْرِعَ إليكَ في البارِزين (المبادِرين) وَاشتاقَ إلى قُرْبِكَ في المُشْتاقِينَ، وَأدْنوَ مِنكَ دُنُوَّ المخْلِصينَ وَأخافَك مَخافَةَ المُوقِنين، وأجْتَمِعَ في جِوارِكَ مَع المؤْمِنينَ، اللَّهُمَّ وَمَن أرادَني بِسوءٍ فَأرِدْهُ، وَمَنْ كادَني فَكِدْهُ، وأجْعَلْني مِنْ أحْسَنِ عِبيدِكَ نَصيباً عِنْدَكَ، وأقْرَبِهِم مَنْزِلَةً مِنْكَ، وأخَصِّهِمْ زُلْفَةً لَدَيْكَ، فَإنّهُ لا يُنالُ ذَلِك إلاّ بِفَضْلِكَ، وَجُدْ لِي بِجُودِك، واعْطِفْ عَلَيّ بِمَجْدِكَ، وأحْفَظْني بِرَحْمَتِكَ، وَأجْعَلْ لِساني بِذِكْرِكَ لَهِجاً، وَقلْبي بِحُبِّكَ مُتَيَّماً، وَمُنَّ عَلَيَّ بِحُسْنِ إجابَتِك، وَأقِلْني عَثْرَتي، وأغْفِرْ زَلَّتي، فَإنَّكَ قَضَيْتَ على عِبادِكَ بِعبادَتِك، وأمَرْتَهُمْ بِدعائِكَ، وَضَمِنْتَ لَهُمْ الإجابَةَ، فإليكَ يا رَبِّ نَصَبْتُ وَجْهي، وإلَيْكَ يا رَبِّ مَدَدْتُ يَدي، فَبِعِزَّتِكَ أسْتَجِبْ لي دُعائي، وَبَلِّغْني مُناي وَلا تَقْطَعْ مِنْ فَضْلِكَ رَجائِي، وأكْفِني شَرَّ الجِنِّ والإنْس مِن أعْدائي، يا سَريعَ الرِّضا إغْفِرْ لِمَنْ لا يَمْلِكُ إلاّ الدُّعاء فإنّك فَعّالٌ لِما تَشاءَ.

يا مَنْ اسْمُهُ دَواءٌ، وِذِكْرُهُ شِفاءٌ، وَطاعَتُهُ، غِنىً، إرْحَمْ مَنْ رأسُ مالِه الرَّجاء، وسِلاحُهُ البُكاءُ.

يا سابِغَ النِّعَمِ، يا دافِعَ النِّقَمِ، يا نُـورَ الْمُسْتَوحِـشينَ في الظُّلَـمِ، يـا عالِماً لا يُعَلَّمْ، صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدْ، وأفْعَل بِي مَا أنـتَ أهْلُـهُ، وَصَـلّى الله عـلى رَسولِهِ، والأئِمَّةِ الْمَيامِين مِنْ آلِهِ، وَسَلَّمَ تسليماً كَثيراً).

ويختم الدعاء بهذا الفصل المسيرة الدعائية، لذلك نلمح فقرات هذا الفصل توجه الداعي إلى خلوص التوبة، والبدء بصفحة جديدة في الحياة بعد فرض أن يكون الداعي قد حصل على أمنيته من الغفران، والصفح عما مضى من أعماله.

صفحة يعتبر الداعي نفسه فيها مغفور الذنب كأنه في اللحظات الأولى من السن الذي بلغ فيه فكان محطاً للتكاليف الشرعية، لذلك يتجه إلى خالقه يطلب منه أن يساعده على السير قدماً في مرحلته الجديدة من أداء الواجبات، وترك المحرمات، والتوفيق إلى الجد في القيام بذلك من دون عودةٍ إلى ذنب، أو رجوع إلى مخالفة.

وحيث يستدعي القيام بهذا الدور أن يكون محفوظاً من أبناء السوء، ومن يتربصون بالبشر السوء لينزلوا بهم إلى الحضيض، لذلك فالدعاء يوجه الداعي أن يضرع إلى الله أن يحفظه من هؤلاء الأعداء سواءً من الإنس، أو الجن.

وفي ذلك لمحة إلى أن البشر لا يسلم من عداوة الجن إضافة إلى ما يكن له أبناء نوعه من الإنس من الخبث، والعداء.

وفي ضمن هذا الفصل نرى الدعاء يذكر الداعي إلى أن يحيط التفاتاً بنفسه لأنه محاط برقابة من الله عزّ وجل تحصي عليه أنفاسه، وكل ما يصدر منه من خير، أو شر، فكل ذلك مكتوب له في كتاب يقدّم إليه يوم القيامة ليريه أعماله، ونواياه في الدنيا، وعلى ضوء ذلك يحاسب حساباً عسيراً.

وفي الختام: نرى الدعاء يوجهنا إلى كيفية ختام الأعمال، وإنهاء المحاورة، والمناجاة مع الرب ـ كي يكون ختام الأعمال مسكاً ـ كما يقولون، فيعلمه الأدب الرفيع من طلب الرحمة لنبينا (ﷺ) الذي ما انفك عن تحمل المشاق في سبيل إعلاء كلمة الدين، وإسعاد البشرية جمعاء ورداً للجميل. ومن ثم، وبعد ذلك يوجهه أيضاً

لطلب الرحمة لمن كانوا خلفاءه، وأمناء على وحيه، ومكملي شوط الرسالة آل بيته الميامين الأئمة الاثني عشر (عليهم السلام).

(إلهي، وسيدي فأسألك بالقدرة التي قدرتها، وبالقضية التي حتمتها، وحكمتها، وغلبت من عليه أجريتها. أن تهب لي في هذه الليلة، وفي هذه الساعة كل جرمٍ أجرمته).

ويقسم الداعي على الله بقدرته العظيمة، والتي لا يقف في قبالها أي شيء بل كل ما في الوجود خاضع لها.

تلك القدرة التي طالما عبّر عنها القرآن الكريم: من أن الله إذا أراد شيئاً، فلن يتخلف عنه مراد فهو مالك كل شيء في هذا الكون بسماواته، وأراضيه، فبقدرته أوجد كل شيء وبها يدبر الموجودات، وبها أيضاً يُهلِك، ويفني كل شيء.

ومعنى ـ قدرتها ـ أي أوجدتها، أي تلك القدرة التي أظهرتها وأنبتها للعيان، فالله عزّ وجل قادر على الخلق، وقد خلق، وقادر على الموت، والفناء، وقد أمات، وأفنى فكما كان قادراً فقد أظهر للكل قدرته.

أما القضية التي حتمها، وحكمتها حيث يقسم الداعي بها على ربه فقد قالوا: إنها قضية الموت، والذي به قهر العباد حيث جعله نهاية لعمر الإنسان، والانتقال به إلى الدار الآخرة، فسبحان من قهر عباده بالموت، وجعل منه حداً لغرور الإنسان، واستعلائه وجبروته.

ومن هنا، يبدأ الداعي بفتح صفحة جديدة لحياته، فهو يقسم على ربه بعد أن تضرع إليه، وبعد أن شرح بلسان ملؤه التوسل بعدم قدرته على بلاء الآخرة، ويريد أن يتجاوز عن كل ما مضى، ويغفر له كل شيء ليعود من جديد إنساناً في هذه الحياة يبدأ من نقطة الصفر بعيداً عن كل مخالفة، وذنب، ذلك الإنسان الذي يريده الله مثالاً للفرد المسلم يأمن منه كل أحد، ويألف إليه كل من يعيش في هذه الدنيا.

والمراد بهذه الدنيا، قيل: أنها ليلة الجمعة حيث ورد في أوقات قراءة دعائنا ـ المبحوث عنه ـ **دعاء كميل** ـ أنه يقرأ في كل ليلة جمعة، وفي ليلة النصف من شعبان.

إن الداعي يعاهد ربه بالصفقة الجديدة من ليلته تلك، بل يترقى ليقول:

وفي هذه الساعة، فهي توبة خالصة تبدأ من حين قراءته الدعاء، وتوطين نفسه على تهذيب النفس وعدم ارتكاب ما لا يرضي الرب، وخير ما يقدم عليه من هذه الساعة ولقد بيّن الداعي، وأظهر لربه ما تنطوي عليه سريرته، وأراد منه ما ينتظره منه من لطفه، وعطفه في أن يهب له كل جرم أجرمه، وجاء به.

(وكل ذنبٍ أذنبته، وكل قبيحٍ أسررته، وكل جهلٍ عملته. كتمته أو أعلنته. أخفيته، أو أظهرته).

الجرم، والذنب، والقبيح المستعمل في هذه الفقرة كلها تعطي معنىً واحداً، وهو المعصية، والمخالفة، ويريد الدعاء أن يجمع كل هذه الألفاظ التي ترمز إلى المخالفة، فيجريها على لسان الداعي طلباً لعفوه تعالى، ومغفرته.

ولكن الذي نلمحه في هذه الفقرات الثلاث، هو أن الدعاء فرق بينها فألحق ـ بكل قبيح ـ صدر منه قوله: ـ أسررته ـ بينما لم يلحق هذه الكلمة بالجرم، والذنب.

والظاهر أن القبيح المقصود في هذه الفقرة هو الذنب نفسه، ولكن المذنب قد لا يبالي بصدور بعض الذنوب منه لعدم كونها بشعة في نظره فنراه يكذب، وأمام أعين الناس من غير مبالاة، ولكنه ـ في الوقت نفسه ـ يلتفت إلى قبح شرب الخمر فلا يشربه أمام الغير علناً، بل يتكتم بذلك، ويتخفى عن الغير لأنه مع إقدامه عليه يشعر بقبحه، لذلك يريد الداعي من ربه العفو عن كل ما ظهر منه أمام الناس، وما جاء به متخفياً ومتكتماً.

إلاّ أن الذي يظهر لي، من سياق الدعاء أن المقصود بالقبيح المذكور، هو ما يصدر من الإنسان من قبيل الحسد، والبغض، والحرص على إيذاء المؤمنين، والعجب، وفساد العقيدة، وما شاكل من الأمور القبيحة، والتي يضمرها الإنسان في نفسه متخفياً بها عن أعين الناس.

فالداعي في مقام طلب العفو من ربه عن الأعمال الجوارحية، والجوانحية، لأنه

في صدد تصفيته الحساب مع ربه والخروج معافىً من كل سوء.

وأما قوله: (وكل جهلٍ عملتهُ. كتمته، أو أعلنته، أخفيته، أو أظهرته) فالمقصود بالجهل لغة هو: (نقيض العلم).

ويريد الداعي أن يغفر له تلك الذنوب التي صدرت منه، وهو غير عالمٍ بكونها من الذنوب التي يستحق عليها العقاب الشديد، أو كان يعلم أنها من الذنوب، ولكن كان له فيها رأي خاص ـ فمثلاً ـ كان يحسد الناس على ما منحهم الله من فضله، أو كان يراعي في عمله، أو كان العُجب يأخذ من نفسه مأخذاً، وكان يعتبر ذلك لا مؤاخذة فيه باعتبار أن الذنوب هي التي تصدر من الجوارح. أما الأمور القلبية فلا شيء عليها سواءً كان في قيامه بهذه الأمور النفسية قد كتم، أو أعلن، أو أخفاه، أو أظهر، وربما فرق بين الكتمان والإخفاء، أو الإعلان والإظهار، بفروق بسيطة، ولكن المهم هو المقابلة بين الذنوب التي يجهر بالإتيان بها أمام أعين الناس، أو يأتي بها بعيداً عنهم.

(وكل سيئة أمرت باثباتها الكرام الكاتبين الذين وكلتهم بحفظ ما يكون مني وجعلتهم شهوداً عليَّ مع جوارحي، وكنت أنت الرقيب عليَّ من ورائهم، والشاهد لما خفي عنهم).

وكما تضرع الداعي إلى ربه، في ما سبق من الدعاء أن يهب له كل جرمٍ وكل ذنب، وكل قبيح صدر منه، كذلك هنا طلب منه ربه أن يهب له كل سيئة عملها وصدرت منه، والمطلوب منه في الجميع واحد، وإنما الاختلاف في التعبير ـ كما قلنا ـ أن الداعي يريد أن يجمع كل عبارة ترمز إلى الذنب، والمخالفة.

ولكن الذي يظهر لنا، من هذه الفقرات المذكورة في هذا المقطع على الخصوص هو تنبيه الدعاء الداعي إلى ما يحيط بالإنسان من رقابة دقيقة، تضبط عليه كل ما يصدر منه من أعمال خارجية، أو نوايا تخطر له وإن لم تأخذ مجراها إلى حيز الوجود، حيث يجمع الكل (أعمال الإنسان، ونواياه الجوارحية، والجوانحية).

ويتألف جهاز الرقابة هذا حسب التسلسل الظاهر من سياق الدعاء من:

١ـ الكرام الكاتبون.

٢ـ جوارح الإنسان، وأعضائه.

٣ـ عين الله الساهرة.

الكرام الكاتبون:

الكرام الكاتبون، هم من أعضاء الجنة الرقابة على الإنسان، **ويكون البحث عن الكرام الكاتبين في مرحلتين:**

الأولى: من هم الكرام الكاتبون؟

الثانية: ما هي مهمتهم؟

وللإجابة على السؤال الأول نقول:

يطلق هذا الاسم على طائفتين من الملائكة خصصت الطائفة الأولى لضبط ما يصدر من الإنسان من حسنات بينما كانت وظيفة الطائفة الثانية هي حفظ ما يصدر من الإنسان من مخالفات.

ولابد لإكمال البحث من معرفة حقيقة الكرام الكاتبين أن نعرف من هم الملائكة، وما هي حقيقة الملك ليتضح لنا من هم أولئك الرقباء على الإنسان؟ بعد أن عرف الكرام الكاتبون بأنهم: من الملائكة.

الملائكة من هم؟

ولسد الفراغ من هذه الجهة لم نر القرآن الكريم يتعرض إلى إعطاء صورة واضحة عن حقيقة الملك، وبيان ماهيته بل جل ما تعرض له هو بيان الوظائف الموكولة إلى هذا الصنف من مخلوقات الله، وبيان أعمالهم من حيث التسبيح له والتقديس لعظمته تعالى.

لذلك وقع الخلاف في معرفة حقيقة الملك بين العلماء، فقال صدر المتألهين الشيرازي في مفاتيح الغيب:

(أعلم ان الناس اختلفوا في ماهية الملائكة، وحقيقتها، وطريق الضبط أن يقال: أن الملائكة لابد، وأن يكون لها ذوات قائمة بأنفسها في الجملة، ثم إن تلك الذوات أم أن تكون متحيزة أو لا تكون.

أما الأول ففيه أقوال:

أحدها: أنها أجسام لطيفة هوائية تقدر على التشكل بأشكال مختلفة مسكنها السماوات، وهو قول الظاهرين.

وثانيها: قول طوائف من عبدة الأصنام إن الملائكة في الحقيقة هذه الكواكب الموصوفة بالإنحاس، والإسعاد، فإنها عندهم أحياء ناطقة، وأن السعادات منها ملائكة الرحمة، والنحسات منها ملائكة العذاب.

وثالثها: قول معظم المجوس، والثنوية، وهو أن هذا العالم مركب من أصلين أولين: وهما النور، والظلمة، وهما في الحقيقة جوهران شفافان قادران مختاران متضادان النفس، والصورة، مختلفا الفعل، والتدبير. فجوهر النور: فاضل خير نقي طيب الريح، كريم الأصل، والنفس، يسر لا يضر، وينفع، ولا يمنع، ويحيي، ولا يبلي.

وجوهر الظلمة: لم يزل يولد الأولياء، وهم الملائكة لا على سبيل التناكح، بل على سبيل تولد الحكمة من الحكيم، والضوء من المضيء، وجوهر الظلمة لم يزل يولد الأعداء، وهم الشياطين على سبيل تولد السفه من السفيه لا على سبيل التناكح. فهذه أقوال من جعل الملائكة أشياء متحيزة.

وأما الثاني: وهو أن الملائكة ذوات قائمة بأنفسها، وليست بمتحيزة ولا بأجسام **فهنا قولان:**

أحدهما: قول النصارى، وهو أن الملائكة في الحقيقة هي الأنفس الناطقة بذاتها المفارقة لأبدانها على نعت الصفاء، والخبرة، وذلك لأن هذه النفوس المفارقة إن كانت صافية خالصة، فهي الملائكة، وإن كانت خبيثة كدرة، فهي الشياطين.

وثانيها: قول الفلاسفة، وهو أنها جواهر قائمة بأنفسها ليس بمتحيزة، وأنها بالمهية مخالفة لأنواع النفوس الناطقة البشرية، وأنها أكمل قوة منها، وأكثر علماً، وأنها للنفوس الشرية جارية مجرى الشمس بالنسبة إلى الأضواء.

ثم أن هذه الجواهر على قسمين:

منها: ما هي بالنسبة إلى أجرام الأفلاك، والكواكب كالنفوس الناطقة بالنسبة إلى أبداننا.

ومنها: ما هي أعلى شأناً من تدبير أجرام الأفلاك، بل هي مستغرقة في معرفة الله، ومحبته، ومستقلة بطاعته، وهذا القسم هم الملائكة المقربون، ونسبتهم إلى الملائكة الذين يدبرون السماوات كنسبة أولئك المدبرين إلى نفوسنا الناطقة، فهذان القسمان قد اتفق الفلاسفة على إثباتهما.

ومنهم: من أثبت نوعاً آخر من الملائكة، وهي الملائكة الأرضية المدبر لأحوال هذا العالم السفلي. ثم أن مدبرات هذا العالم إن كانت خيّرة فهم الملائكة، وإن كانت شريرة فهم الشياطين. فهذا تفصيل المذاهب في الملائكة. انتهى [(١)].

وهناك تعاريف أخرى ذكر منها ما جاء عن صدر المتألهين السبزواري وغيره، ولكنا نكتفي بهذا المقدار من النقل لأنا أردنا اعطاء صورة عن اختلاف وجه نظر العلماء في حقيقة الملائكة.

على أنا لا نجد بداً من الرجوع إلى القرآن الكريم، والسنة لنصل من خلالهما إلى ما يوضح لنا حقيقة هذه المخلوقات العلوية، ومعرفة ما، وكل إليهم من أعمال في هذا العالم، وهل أنهم كالجن أمم، ويكلفون بالأحكام، ويجازون على تصرفاتهم أم لا؟

والذي يظهر لنا من مجموع الآيات، والأخبار الشريفة هو القول:

بأن الملائكة: موجودات لا تظهر لنا بذواتها فلا تراها الأعين، بل هي مخلوقاته

---

(١) نقلاً عن القاضي السبزواري/ شرح لدعاء كميل/ ١٨٣ و ١٨٤.

تعالى، ولها قابلية التشكل بأشكال بعض الآدميين لإنزال العذاب، أو لغير ذلك من الأمور.

ولم يذكر من أسمائهم في القرآن إلاّ جبرائيل، وميكائيل.

أما وصفهم: فقد تعرضت الآية الكريمة لـذلك فقالـت: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾[1].

وطبيعي أن العين لم تألف حيواناً يطير بأكثر من جناحين، فإذا صدقنا أن الملك مخلوق قسم منه له جناحان، وقسم ذو ثلاثة أجنحة، والقسم الرابع له أربعة أجنحة فلا يأخذنا العجب إذا سمعنا الإمام الصادق (عليه السلام) يقول: (خلق الله الملائكة مختلفة وقد رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله) جبرائيل، وله ستمائة جناح على ساقه...)[2].

وعن ابن جريح أن لجبريل ستة أجنحة جناح بالمشرق، وجناح بالمغرب، وجناحان على عينيه، وجناحان منهم من يقول على ظهره، ومنهم من يقول: متسرولاً بهما[3].

ونحن لا نعجب من هذه الأجنحة العديدة بعد أن نقرأ ذيل الآية السابقة:

﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾[4].

والخلق صنعه، وهو على كل شيء قدير، وهم محجوبون عنا، ونحن في مأمن من النظر إليهم ليأخذنا الهول من مخلوق له ستمائة جناح، ولا ندري ما مقدار حجم الجناح، وكيفية تركيبها، ولماذا هذا العدد الهائل؟ وكان بالإمكان أن يزود الله جبرائيل بجناحين فقط ويزوده بطاقة يتمكن بواسطتها من أداء مهمة الأجنحة الستمائة، أو نقول: لا حاجة إلى الجناح، بل كان بالإمكان أن يكون جبرائيل يصعد

---

(١) سورة فاطر: الآية، ١ .

(٢) العلامة المجلسي: بحار الأنوار/ ٥٦، ١٧٤.

(٣) جلال الدين السيوطي: الدر المنثور/ ٥، ٢٤٤.

(٤) سورة فاطر: الآية، ١.

إلى السماء، ويهبط إلى الأرض بغير جناح، وإنما بقدرته كما حدث ذلك للنبي سليمان ابن داود (عليهما السلام) عندما أراد حضور ملكة سبأ بلقيس عنده فخاطب أعوانه قائلاً:

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ * قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [(١)].

ولنأخذ في حسابنا مدى السرعة التي زود بها هذا الذي أطلق عليه القرآن اسم «**من عنده علم الكتاب**» وهو عبد من عباد الله ليأتي بعرش الملكة بلقيس قبل أن يطبق سليمان جفناً على جفن من عينيه، وهل يعقل أن يكون ذلك بطرق عادية لولا الطاقة الربانية التي زود بها هذا العبد؟

ولماذا لم يكن جبرائيل مثله؟ وهكذا بقية الملائكة الذين قالت عنهم الأحاديث المروية من قبل الفريقين بأنهم مزودون بأجنحة تزيد على ما زود به جبرائيل من الستمائة جناح، وربما كان لهم من الحجم ما لا تصدق عقولنا، ونحن نسمع الحديث يقول: (بأن ما بين شحمتي أذني بعض الملائكة مئات الأميال والفراسخ) كل ذلك موكول على علمه تعالى، وليس لأحدٍ أن يعترض، أو يشكك في شيء من ذلك ما دام هذا، وأمثاله من خلق الله، وخاضع لقدرته أليس هو القائل جلت عظمته:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [(٢)].

ولا ندري لماذا الفرق بين السماوات، والأرض، فالسماء نصبها الله بغير عمدٍ كما نشاهدها، وتشاهدها آلات التقريب الدقيقة، ولا نحتمل فيها السقوط على الأرض، ولا أي اختلال في حركة الإجرام الموجودة فيها، والتي يكبر الكثير منها حجم أرضنا هذه، ولكنه بالنسبة إلى الأرض، وهي كوكب صغير بالنسبة لبعض ما في السماوات فضلاً عن السماء نراه عزّ وجل يخبر: بأنه قد ثبتها برواسي؟

---

(١) سورة النمل: الآيات، ٣٨ ـ ٤٠.

(٢) سورة لقمان: الآية، ١٠ .

والمقصود بالرواسي كما يقول المفسرون: الجبال الموجودة في الأرض جعلها الله حافظة للأرض لئلا تتحرك، وتضطرب باستمرار كالمثبتات التي تحفظ السفن من الاضطراب في البحار، وقد أيد العلم الحديث ذلك.

والآن فللتساؤل مجال، فالسماء تقف تضرب بجناحيها من غير عمد، ولا تتحرك قيد شعرة، والأرض بحجمها الصغير تحتاج إلى الجبال، والتي قد يصل طول بعضها آلاف الأميال، أو أكثر لئلا تضطرب، وتميد بمن عليها، وأن من خلق السماء، وجعلها بغير عمدٍ لقادر أن يخلق الأرض أيضاً بغير عمد، ولكنها حكمة الله جلت عظمته، وهي قدرته التي لا تحد بحدٍ خلقت الاثنين على هذا النحو من الاستناد، وغير الاستناد.

ونحن إذا ما أردنا أن نفتح باب السؤال، ونلزم هذه الأمور إلى الخضوع إلى المقاييس العلمية في كل شيء لا نفتح علينا أكثر من سؤال، وسؤال.

وأخيراً: نجد أنفسنا عاجزين عن الإجابة الدقيقة عن أمورٍ لم تشأ القدرة الإلهية كشف حقائقها إلى الجميع.

الملائكة ما هي مهمتهم؟

في الوقت الذي نرى القرآن الكريم لا يعطي صورة واضحة عن بيان حقيقة الملائكة إلاّ أنه قد عرض بعض الأعمال التي يقومون بها، ومن **تلك الأعمال:**

١ـ العبادة :

وبهذا المقدار تصرح الآيات الكريمة، فيقول تعالى عنهم:

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ [(١)].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [(٢)].

وقال تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

---

(١) سورة الصافات: الآيات، ١٦٤ و ١٦٦.

(٢) سورة الزمر: الآية، ٧٥.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ (١).

أما كيف يسبحون وصفة ذلك فهو ما لم يذكره القرآن بل على العكس نراه تعالى يقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (٢).

(وممن لا نفقه تسبيحه هم الملائكة).

٢ـ الرسالة:

وقد قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ (٣).

وتتوالى الآيات، وهي تصرح بأن هناك طوائف من الملائكة مضافاً إلى التزامهم بالعبادة، والتسبيح فهم رسل الله إلى الخلق في أعمال عديدة.

منها: الملائكة الموكلون بإنزال العذاب الدنيوي على الذي تقتضي أعمالهم مجازاتهم في الدنيا قبل الآخرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٥).

ومنها: الملائكة المعاونون لملك الموت في قبض الأرواح، فقد قال تعالى:

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (٦).

---

(١) سورة الشورى: الآية، ٥.

(٢) سورة الإسراء: الآية، ٤٤.

(٣) سورة فاطر: الآية، ١.

(٤) سورة العنكبوت: الآية، ٣١.

(٥) سورة العنكبوت: الآيتان، ٣٣ و ٣٤.

(٦) سورة الأنعام: الآية، ٦١.

وهؤلاء هم أعوان ملك الموت [١]، وقيل: أن الملائكة تقبض الأرواح ثم يذهب بها ملك الموت، وقيل: ثم يقبضها منهم ملك الموت.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر عن مجاهد قال: جعلت الأرض لملك الموت مثل الطست يتناول من حيث شاء، وجعلت له أعوان يتوفون الأنفس، ثم يقبضها منهم [٢].

وقد دلت روايات عديدة على وجود ملائكة للعذاب، وملائكة للرحمة، وغير هؤلاء، وهؤلاء.

ومنها: ملائكة الحفظ، وقد نوه القرآن عنهم كما في الآية السابقة من قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [٣].

وقال المفسرون عن هؤلاء الحفظة بأنهم الملائكة الذين يحفظون الأعمال ويكتبونها.

هؤلاء هم الملائكة، وهذه صور من أعمالهم وتجنباً عن الإطالة عرضنا هذا المقدار وإلاّ فالمصادر لتفسير القرآن تحمل صوراً كثيرة في هذا المجال.

ويكفينا هذا المقدار من النقل إذ ليس لنا كثير فائدة من وراء التحقيق في معرفة مخلوقات حجبهم الله عن عباده، وعلى الأخص أنهم سكان كوكب غير كوكبنا، وخارجون عن محيط كرتنا الأرضية.

وعوداً على موضوعنا ـ المبحوث عنه ـ من معرفة الكرام الكاتبين الذين جاء ذكرهم في الدعاء لنقول: أنهم من الملائكة، ومهمتهم حسبما حددها القرآن الكريم هي: ضبط ما يصدر من الإنسان من خير وشر كما يظهر ذلك من الآيات التالية:

---

(١) الشيخ الطوسي: مجمع البيان/ في تفسيره لهذه الآية.

(٢) جلال الدين السيوطي: الدر المنثور/ ٥، ١٦.

(٣) سورة الأنعام: الآية، ٦١.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [1]. وقال تعالى:

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [3].

وقال تعالى: ﴿بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [4]. وقال تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [5].

هؤلاء هم الملائكة الكاتبون. ومن الآية الثانية نلاحظ أن لكل إنسان ملكان أحدهما يكون عن يمينه، والآخر عن شماله يكتبون أعماله.

وقيل: أن صاحب اليمين مخصص لضبط ما يصدر من الشخص من حسنات بينما خصص صاحب الشمال لضبط ما يصدر منه من سيئات.

وفي تسميتهم بالكرام في القرآن، وفي الدعاء ذكرت وجوهاً عديدة:

منها: إن القرآن الكريم دأب على وصفهم بالكرام في كثير من الآيات، وذلك لأنهم منزهون عن كل ذنب، وهم عباد الله المطيعون المسبحون له، ويقدسونه، وبأمره يعملون.

وقيل: بأن كاتب الحسنات يكتب الحسنات لمن فعلها عشراً، وكاتب السيئات

---

(١) سورة الانفطار: الآيات، ١٠ و ١٢.
(٢) سورة ق: الآيتان، ١٧ و ١٨.
(٣) سورة يونس: الآية، ٢١.
(٤) سورة الزخرف: الآية، ٨٠.
(٥) سورة الأنبياء: الآية، ٩٤.

يمهل من صدرت منه سبع ساعات لعله يرتدع ويتوب: ويستغفر، وسواءً كان هذا سبب التسمية، أو ذاك، وهكذا موضوع الخوض في معرفة كيف يكتب الملكان الحسنات والسيئات، المهم هو الوقوف من وراء معرفة وجود الملكين الكاتبين، وهكذا ما نراه من تصريح الدعاء برقابة الله عزّ وجل من وراء الملكين لإحصاء ما يخفى عليهما من مخالفات العبد.

على أن نتفهم من كل ذلك: بأن الإنسان لم يترك سدىً، بل لابد أن يضع في حسابه أن كل ما يصدر منه من لفظ، أو عمل وحتى النوايا التي ينويها مسجل عليها، ومضبوطة في حسابه، وليشعر بأن التواري عن أعين هذا النوع من الرقباء أمر مستحيل، لأنهم مع الإنسان أينما يكونون، وفي كل وقت.

وأخيراً: فيواجه بالمشهد الرهيب يوم القيامة كما يحدث عنه القرآن الكريم.

يقول عزّ وجل: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [(١)].

وحسب الإنسان أن يواجه بمثل هذا الكتاب الذي ينطق بالحق فقد ثبت فيه كل شيء، ولا مجال للإنكار، أو المراوغة.

هذه الرقابة هي التي تجعل من الفرد إنساناً كاملاً يحترم الآخرين ولا يتطاول، أو يتجاوز، ويؤدي ما عليه بالنسبة إلى الحقين: الإلهي، والآدمي (وجعلتهم شهوداً عليَّ مع جوارحي).

أما كيف تشهد جوارح الإنسان عليه منضمة إلى الكرام الكاتبين فإن الآيات الكريمة صرحت بذلك: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [(٣)].

---

(١) سورة الجاثية: الآيتان، ٢٨ و ٢٩.

(٢) سورة النور: الآية، ٢٤ .

(٣) سورة النمل: الآية، ٨٣.

وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[(٢)].

أما كيفية الشهادة فإن الظاهر من الآيات المذكورة هي: أن كل عضو يشهد بما يختص به فما يناسب اللسان من اللسان وما يناسب اليد من اليد، وهكذا.

ولكن كيف تشهد، وهي جوارح؟ ذلك ما قالت عنه الآية الكريمة.

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[(٣)].

فالشهادة تكون بواسطة النطق الصادر من الأعضاء.

ولكن هل هو نطق كنطق الإنسان لتبقى لفظة أنطقنا على حالها من دون تصرف؟ فيمنح الله الأعضاء قدرة النطق فتتكلم، وتشهد بأن الذنب الفلاني كالكذب ـ مثلاً ـ صدر من هذا العضو، وهو اللسان، والمشي إلى الحرام صدر من الرجلين.

أو يقال: بأن النطق في الأعضاء غير النطق الذي نألفه من الإنسان، وقد أطلق عليه النطق من باب التشبيه لأن النطق لا يطلب حقيقة على غير كلام الإنسان، وحينئذٍ فيكون نطق كل عضوٍ بشكل خاص، وكل ذلك ممكن لأن الموضوع يرجع إلى قدرة الله، وهو على كل شيء قدير.

والمهم هو أن الأعضاء تراقب الإنسان في أعماله فتشهد بالنطق، أما أن النطق كيف هو؟ فقد عرفت أن الآية مطلقة من هذه الجهة ولم تتعرض إلى التفصيل، ولا يؤثر ذلك على كون الأعضاء من جملة ما يتألف من جهاز الرقابة على الإنسان،

---

(١) سورة يس: الآية، ٦٥.

(٢) سورة الاسراء: الآية، ٣٦.

(٣) سورة فصلت: الآية، ٢١.

(وكنت أنت الرقيب عليّ من ورائهم، والشاهد لما خفي عنهم).

وإذا خفي على الملكين شيء، أو على الأعضاء ما كان ينويه العبد ويروم الإتيان به من دون تحقق لذلك في الخارج.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ ﴾ [(١)].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ ﴾ [(٢)].

وقال تعالى: ﴿ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ ﴾ [(٣)].

وليتصور الإنسان نفسه، وكيف أن الرقابة تحوطه من كل مكان الملكان، وجوارحه، ومن وراء ذلك عين الله الساهرة، ولكن مع كل ذلك:

(وبرحمتك أخفيته، وبفضلك سترته).

وما أعظمها رحمة أن الله الذي أحصى على العبد كل شيء، وكل شاردة، وواردة كان بإمكانه أن يعجل له العقوبة بأن يطلع الناس على ما قام به، أو ما همّ به من القيام به ليسقط من أعين الكل، وينال جزاءه في الدنيا قبل الآخرة، ولكنه، وبرحمته أخفى ذلك، وبفضله ستره تحنناً منه، فلك الحمد يا رب على نعمك ما ظهر منها، وما بطن.

(وان توفر حظي من كل خير تنزله، أو إحسان تفضله، أو برٍ تنشره، أو رزقٍ تبسطه، أو ذنبٍ تغفره، أو خطأ تستره).

حيث كان الداعي في صدد فتح صفحة جديدة من حياته المتزنة مع ربه، لذلك فقد طلب فيما سبق ـ من قوله ـ (إلهي وسيدي فأسألك بالقدرة التي قدرتها) ـ إلى قوله ـ (أن تهب كل جرمٍ أجرمته، وكل ذنب أذنبته) ... الخ، وكان بهذه الفقرات يريد تصفية ما عليه من مخالفات، وجعل صفحة ذمته بيضاء ليخط فيها بعد ذلك

---

(١) سورة الأنعام: الآية، ٣.

(٢) سورة التوبة: الآية، ٧٨.

(٣) سورة الزخرف: الآية، ٨٠.

كل خير، وكل عمل يرضي الرب.

ولكن الحياة الجديدة والتي ينوي السير على مخططها المعتدل يحتاج إلى الاستعانة بالله، وطلب المعونة منه ليستمد من فيضه ما يمكنه من قطع ما بقي من العمر، لذلك عطف على ما سبق من قوله ـ أن تهب ـ قوله: «وأن توفر حظي من كل خير تنزله».

والتوفير: هو: التكثير من الوفرة، والوفور.

أما الحظ فهو النصيب، والقسمة التي قسمها الله لكل مخلوق فهو لا يريد الخير، والإحسان، والبر فقط، بل يطلب الوفير من كل شيء ينتفع به.

وهكذا نجد الإنسان لا يترك آماله الواسعة فهو يريد، ويريد، ويطلب المزيد لأنه مبني بحسب طبعه على الكسب، والاستزادة، وحبذا لو كانت كل نواياه من هذا القبيل يطلب الوفير من الخير، والموفور من الإحسان، ونقف أمام الفقرتين:

(أو ذنب تغفره، أو خطأ تستره).

فما معنى طلب الوفرة من الغفران للذنب، أو الوفرة في ستر الخطأ مع أن الذنب: إما أن يغفر، أو لا، والخطأ: إما أن يستر، أو لا، ولا معنى للتكثير في أمثال ذلك؟

ونجيب على ذلك، بأن معنى الوفرة في غفران الذنب قد يكون طلب المزيد من الغفران من جهة تحمل ما صدر من الإنسان ازاء حقوق الآخرين من ظلمهم، والتعدي عليهم بطريقة التعويض لهم تفضلاً من الله على الداعي ليخلص بذلك من كل الشوائب بعد أن كان قد أقدم على فتح صفحة جديدة في حياته.

أو يقال، أن الوفرة في غفران الذنب هو الفرق بين طلب المغفرة فقط، وبين المغفرة والتفضل من الله على العبد بأن يوفقه في المستقبل لعدم صدور أي مخالفة منه.

وربما قيل غير هذا، وذاك.

أما طلب الوفرة في ستر الخطأ **فيقال فيه:**

إن العمل الخطأي الذي صدر من العبد فإنه، وإن كان معذوراً فيه من جهة

العقاب، ولكن إخفاء ذلك، وشمول ذلك لكل خطأ سواءً كان في العمل، أو الأمور العقيدية فهو من تفضلات الله على عبده لو أخلص العبد في نيته مع ربه، وصدق في توبته.

(يا رب، يا رب، يا رب، يا إلهي، وسيدي، ومولاي ومالك رقي، يا من بيده ناصيتي).

نداءات، واستغاثات متلاحقة، وتكرار لاسم الرب، والإله، والسيد والمولى، وكلها كما يقول الشاعر:

عباداتنا شتى وحسنك واحد وكل إلى ذاك الجمال يشير

كلها ترمز إلى الذات المقدسة، وإلى من يستغيث به العبد، وهو الله ومن التضرع بأسمائه عزّ وجل. إلى اللجوء بالاستغاثة بصفاته فمالك الرق، معناه: أن الداعي عبد، وهو المالك، ولذلك أتبع هذه الفقرة بقوله: «يا من بيده ناصيتي».

والناصية: الجبهة، وهي أعلى مكان يرفعه الإنسان لأنه يكون في مقدم الرأس، والرأس هو ما يشمخ به الإنسان، فيرفعه عالياً.

وتعبر هاتان الجملتان: (مالك رقِّي، ومن بيده ناصيتي).

عن الخطاب لمن يملك قيادة العبد، وبيده طوق عبوديته أي يا من بيده مقاليد أموري، وتمام أمري.

(يا عليماً بضري، ومسكنتي. يا خبيراً بفقري، وفاقتي).

الضر: والمسكنة، والفقر، والفاقة، ألفاظ مرت معانيها وكلها تدل على حاجة العبد، واحتياجه لخالقه، وفيها منتهى الضراعة، والذلة، وفيها كشف لحقيقة الداعي أمام ربه.

وبهذه الفقرات يدلل الداعي على صدق دعواه في طلب توفير الرزق له، وكذا البر، والإحسان، فيما سبق من الفقرات المتقدمة، فهو بطلبه ذلك صادق لأن ربه عالم

بحاجته، وفقره، ومسكنته، ولا يخفى عليه شيء.

(يا رب يا رب يا رب أسألك بحقك وقدسك وأعظم صفاتك وأسمائك).

ومن طلب الرزق، والبر، والإحسان ينتقل الدعاء إلى مطلق آخر يريده الداعي من ربه ليركز بذلك قاعدة صفحة جديدة مع الله، إنه يدخل في عالم العبادة، والشكر، والقيام بما يلزمه أزاء ربه.

وكل هذا يحتاج إلى توفيق منه عزّ وجل لعبده ليأخذ بيده، ويساعده على أداء المهمة، ولهذا الطلب يقدم الداعي مقدمة تمهيدية فيقسم عليه بحقه وقدسه، وأعظم صفاته، وأسمائه، والأمر موكول إليه تعالى فهو وحده يعلم أن أعظم صفاته، وأسمائه ما هي.

وعلى الإجمال يقسم عليه بها.

وقد قيل في أعظم الصفات والأسماء أقوال:

فقيل: أعظم الصفات هي: الرحمانية، والرزاقية.

وقيل: القيومية، لرجوع جميع صفاته الإضافية إليها كالعالم والقادر ، والخالق، والرازق، وهكذا.

وقيل أعظم صفاته: واجب الوجود لأن جميع الصفات الحقيقة ترجع إليها وقيل: غير هذا، وذاك.

ولكن الدعاء أوكل الموضوع إليه لأنه سبحانه هو العالم بأعظم صفاته واسمائه دون تعيين اسم، أو صفة خاصة.

(أن تجعل أوقاتي في الليل والنهار بذكرك معمورة).

وهذا هو المطلوب من الله، والذي لأجله أقسم عليه بأعظم صفاته وأسمائه، وبحقه، وبقدسه.

إنه يريد من ربه أن يكون ذاكراً لله على كل حال سواءً في الليل، أو النهار، وفي كل وقت هو منتبه فيه كما جاء في قولهم: (رطب فمك بذكر الله العظيم).

كما، وقد جاء ذكر الله في آيتين كريمتين:

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ (٢).

وذكر هذه الحالات يعطي إرادة الذكر المستمر على كل حال في القيام، والقعود، والاضطجاع.

وجاء في الأخبار عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (لا بأس بذكر الله وأنت تبول فإن ذكر الله عزّ وجل حسن على كل حال فلا تسأم من ذكر الله) (٣).

وفي حديث آخر عنه (عليه السلام)، قال الله عزّ وجل لموسى: «أكثر ذكري بالليل والنهار، وكن عند ذكري خاشعاً وعند بلائي صابراً، واطمئن عند ذكري، واعبدني، ولا تشرك بي شيئاً إلي المصير، يا موسى اجعلني ذخرك، وضع عندي كنزك من الباقيات الصالحات» (٤).

وفي حديث آخر إن الله عزّ وجل أوحى إلى موسى (عليه السلام): «يا موسى، أنا جليس من ذكرني، فقال موسى: فمن في سترك يوم لا ستر إلاّ سترك؟

فقال: الذين يذكرونني، فأذكرهم، ويتحابون في فأحبهم، فأولئك الذي إذا أردت أن أصيب أهل الأرض بسوء ذكرتهم فدفعت عنهم بهم» (٥).

آيات، وأحاديث كريمة تصور لنا كيف يريد الله لعبده أن ينشد إليه، ويجعل من الذكر الخيط الموصل للمثول في رحابه المقدس ليكون سبحانه جليس من ذكره، وأنيس من اشتاق إليه، وعندها ينال الدرجة السامية، فيدفع به بلاء من استحقوا

---

(١) سورة آل عمران: الآية، ١٩١.

(٢) سورة النساء: الآية، ١٠٣.

(٣) الشيخ الكليني: الكافي/ كتاب الدعاء، باب ما يجب من ذكر الله عزّ وجلّ في كل مجلس، حديث٦و٩و٤.

(٤) المصدر المتقدم، كتاب اصول الكافي، الدعاء.

(٥) المصدر السابق، كتاب اصول الكافي، الدعاء.

غضبه، وإكراماً لهؤلاء الصفوة تنكشف الشدة عن المذنبين.

ومن هذه النافذة يتطلع الداعي ليطلب من ربه أن يمنحه هذه الخصلة فيوفقه بجعل أوقاته من الليل، والنهار معمورة بذكره ليذكره الله في قبال ذكره له، وبعد كل هذا يريد أن يكون في ستر الله، وحمايته.

(وبخدمتك موصولةً).

والخدمة لله عزّ وجل ليست من طراز الخدمة للآخرين من تقديم ما يحتاجونه من عمل، ومال، وما شاكل، بل خدمته هي عبادته، وتسبيحه، والخضوع، وإلاّ فإنه تعالى غني عن كل شيء، ولا حاجة به إلى أحد، بل الخلق محتاجون إليه، وهم عياله.

ولذلك فإن الطلب في هذه الفقرة يكون في طلب المنة من الله سبحانه على الداعي في أن يوفقه لعبادته، والقيام بكل ما تستلزمه العبادة من فروض قياماً متتابعاً بلا انقطاع، وهو المقصود بقوله: ـ موصولة ـ.

(وأعمالي عندك مقبولة).

والأعمال التي لا يقبلها الله لا خير فيها، لأن أعمال العبد وعباداته إنما هي قرابين يتقرب بها إلى الله عزّ وجل، ولذلك فلابد من أن توشح بالقبول عندما تقدم إليه.

(حتى تكون أعمالي وأورادي كلها ورداً واحداً وحالي في خدمتك سرمداً).

والمراد بهذه الفقرات هو نفس ما أراده الداعي بفقرات الدعاء السابقة من قوله: (أن تجعل أوقاتي في الليل، والنهار بذكرك معمورة) والمقصود هو استمرارية العبادة لتكون الأعمال والأذكار التي يذكر بها الإنسان ربه كلها ذكراً واحداً، وأخيراً ليكون حاله في عبادة ربه سرمداً أي غير منقطع، بل دائم.

(والورد هو الجزء من القرآن يقوم به الإنسان كل ليلة والوظيفة من القراءة، ونحو ذلك جمع أوراد)[1].

---

(١) الشرتوني: أقرب الموارد/ مادة (ورد).

وحيث كان هذا الاستمرار، وهذه الوظيفة تستدعي وجود الطاقة في البدن تساعده على هذه المواظبة، والذكر الدائم لئلا تكون عبادة الخاملين، بل عبادة من بدن نشط، وفكر نشيط صحيح، لذلك عاد يلتمس تحقيق هذه الجهة ليصل من وراء طلبه إلى هدفه المنشور، وغايته المتوخاة.

(يا سيدي. يا من عليه معولي. يا من إليه شكوت أحوالي يا رب، يا رب، يا رب).

وكما سبق من سياقية الدعاء في توجيه الداعي إلى أنه عند الشروع بمطالبة جديدة، أو مناجاة في أمر يريد تحقيقه من ربه يبدأ بندائات الاستغاثة، والتضرع لجلب العطف، والانتباه إليه والمعول: المعتمد، والمعنى للفقرات المذكورة واضح، والمقصود هو هذه الاستغاثة المتلاحقة ـ كما قلنا ـ.

(قوِّ على خدمتك جوارحي، واشدد على العزيمة جوانحي وهب لي الجد في خشيتك، والدوام في الاتصال بخدمتك).

وبعد الاستغاثات جاء مطلوب الداعي متمثلاً بهذه الفقرات «قو على خدمتك جوارحي» ليتمكن من أداء العبادة كل عضوٍ بحسب ما يوكل إليه من العمل فاللسان ـ كما بينا سابقاً ـ للذكر، والبدن للقيام، والقعود، وهكذا.

(واشدد على العزيمة جوانحي). والعزيمة: القصد على الفعل بعد أن يتصور الإنسان ذلك الفعل يصدق به، ويشتاق إليه، وبعدها يقصده، ومن ثم يفعله.

والجوانح: جمع جانحة، وهي الأضلاع تحت الترائب مما يلي الصدر كالضلوع مما يلي الظهر، والمعنى واضح، حيث يريد الداعي من ربه أن يصرف عنه كل معوق يقف حائلاً بين القصد، والفعل للأمور الخيرة، والطاعات، والعبادة، فهو يريد منه أن يجعل القصد كأنه محصور بين الجوانح لا مجال لتسربه، وعدم الاتيان به. بل مشدود عليه حتى يتحقق.

وقد ظهر مما سبق معنى طلب دوام الاتصال بخدمتك.

أما لماذا طلب الداعي من ربه كل هذه الاستعدادات وهذه التحضيرات؟ فالنتيجة تأتي معروضة في الفقرات التالية من قوله:

(حتى أسرح إليك في ميادين السابقين).

وإلى أين أسرح...؟ إلى نيل رضاك، والتقرب منك، ولعلني أسبق غيري في الحصول على شرف كسب رضاك، فيطمئن القلب بأنني: عدت إنساناً وديعاً مرضياً عنه، وهي أنشودتي في هذه الحياة لامهد بذلك طريقي إلى مقري الأخير في الدار الآخرة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1].

(وأسرع إليك في المبادرين).

والجملة عطف على ما سبقها من قوله: ـ أسرح إليك ـ أي أسرع في الاتيان إليك، ولكن الذي تلمح إليه هذه الفقرة هو الترقي عن أمنية الداعي في العمل على السبق في ميادين السابقين، بل يريد الداعي أن ينال قصب المبادرة، وهي المعالجة، فبدر إلى الشيء، بمعنى: عاجل إليه، فهذه المعاجلة هي التي يريد الداعي أن يوفقه الله إليها، ومعناه أدق من معنى ـ سبق إليه ـ.

(وأشتاق إلى قربك في المشتاقين).

فالشوق إلى قربه، والحنين له عزّ وجل هو نوع من العبادة، بل هو معنى العبادة إذ ليس العبادة الحقيقية هي القيام، والقعود بل هي المعنى الذي ترمز إليه هذه الأفعال من الخضوع، والإطاعة والتقرب إلى ساحته المقدسة:

(وأدنو منك دنو المخلصين).

الذين يعبدونه لوجهه، وشوقاً إليه لا يعتري عملهم رياء ولا تملق إلى آخرين، بل كل ما يقدمونه لوجهه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2].

فالعبادة لغيره شرك، والرياء، وإظهار العمل تقرباً إلى الغير شرك.

---

(١) سورة الشعراء: الآيتان، ٨٨ و ٨٩.

(٢) سورة الفاتحة: الآية، ٥.

وهذا ما يريده الدعاء للداعي أن يوفقه الله لنيل هذه المرتبة ليكون من عباده المقربين المخلصين.

وقد جاء عن الإمام أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) لأبان بن تغلب قوله: (يا أبان: إذا قدمت الكوفة فاروِ هذا الحديث: من شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً، وجبت له الجنة، قال: قلت له: إنه يأتيني من كل صنف من الأصناف. أفأروي لهم هذا الحديث؟

قال: نعم، يا أبان، انه إذا كان يوم القيامة، وجمع الله الأولين والآخرين فتسلب لا إله إلاّ الله منهم، إلاّ من كان عمل على هذا الأمر)[1].

(وأخافك مخافة الموقنين).

الموقن بالشيء: المتيقن به، من كل سبب كان.

والمقصود من هذه الفقرة هو تهيئة الداعي نفسه إلى الخوف من الله مخافة من أيقن بأن الله لا تخفى عليه كل صغيرة، ولا كبيرة، وهذا معناه أن الإنسان يعد نفسه لكل خير، ويجنب نفسه عن كل شر حتى ولو كان ذلك على نطاق النوايا، وما يخفيه بقلبه لأنه لو رزق حلاوة اليقين بأن الله هو الرقيب الحقيقي عليه، ولا تخفى عليه خافية لسار على الخط المستقيم، وانتهى منه كل شيء.

(وأجتمع في جوارك مع المؤمنين).

والمراد بالجوار هنا القرب منه تعالى المعنوي إذ يستحيل القرب الحقيقي منه لأن ذلك يستلزم الجسمية له، وحاشاه عن ذلك كما تقدم التنبيه عليه فيما سبق.

(اللهم: ومن أرادني بسوء، فأرده، ومن كادني، فكده).

والتوجه إلى الله، والانشغال بعبادته، والمواضبة على القيام بها يلزم للتائب مضافاً إلى الأعمال التي تتطلبها الحياة الاجتماعية والمعيشية كلها تتطلب أن يكون الشخص

---

(١) الشيخ الكليني: الكافي/ كتاب الدعاء، باب من قال لا إله إلاّ مخلصاً، حديث ١.

في أمن من جانب الآخرين، ومن الوقوع في حبالهم، وشراكهم ليتفرغ الإنسان إلى حياة جديدة مثلى.

لذلك يتوجه الدعاء بالداعي إلى الله في أن يكفيه شر الآخرين.

وينجيه من شرورهم ليكون في حرز الله، وأمانه فمن قصده بسوء يرد الله قصده، ويقف حائلاً دون تحققه بل إيقاع ذلك القصد به من باب من حفر بئراً لأخيه المؤمن وقع فيها.

ومن كادني: أي ومن سعى في إيذائي، فأوقعه بما أراده لي من الأذى لأسلم من أذى الغير، فأكمل شوطي في السير على ما عاهدتك به يا رب من توبتي، وخلوص نيتي.

(واجعلني من أحسن عبيدك نصيباً عندك).

ولابد أن يكون مثل هذا التائب الذي قد بدأ فتح مثل هذه الصفحة من أحسن العباد عند الله إذا وجد الله منه نية صافية، وقلباً طاهراً، وهذا الطلب منه تعالى مجاب إذا كان العبد قد أقدم عليه، وهو نقي الذيل من كل ذنب فإن الله يحب من مال إليه، وتوكل عليه، ولم يجد ملجأ له إلاّ فيض لطفه.

(وأقربهم منزلة منك وأخصهم زلفة لديك).

ومضافاً إلى نيل النصيب الأوفر يريد الداعي من ربه أن يجعله أقرب عباده درجة له، وأخصهم زلفة لديه، وهي نفس الفقرة الأولى، فإن الزلفة هي القربى، والمنزلة، والفرق بين الفقرتين هو: التفنن في التعبير، والانتقال من الأقرب إلى الأخص، وما في الثاني من شدة الاتصال أكثر من الأول.

(فإنه لا ينال ذلك إلاّ بفضلك).

ومن الواضح أنه لولا فضل الله لا يحصل الداعي بطلبه هذه المراتب الثلاث: النصيب، والمنزلة، والزلفة.

وذلك، لأن قيام الداعي بكل ما تمليه عليه الشريعة بكل الواجبات وترك

المحرمات، لا يوصله إلى مثل هذا القرب من الله بل يجعل منه إنساناً ممتثلاً لأحكامه الشرعية، وقائم بوظيفته. أما هذا النوع من الاتصال فإنه شيء آخر يحتاج إلى التوفيق لنيل مثل هذه الدرجات، ولا يكون ذلك إلاّ منه، وبفضله، وتفضله.

(وجد لي بجودك واعطف عليَّ بمجدك).

ومن جوده يطلب الداعي، وهو الجواد الكريم، لأن البخيل من يخاف النفاد، وما عند الله لا ينفد، ولا نهاية له.

والمجد: العز، والرفعة، ومن عز الله، ورفعته يريد الداعي أن يعطف الله عليه لينال بذلك شرف الدارين الدنيا، والآخرة.

(واحفظني برحمتك واجعل لساني بذكرك لهجاً).

وليس في هاتين الفقرتين ما هو جديد سواءً في طلب الحفظ، أو جعل لسانه لهجاً بذكره، وقد مر مثل هذا فيما سبق من الفقرات، ولعل التكرار لزيادة التأكيد.

(وقلبي بحبك متيماً).

المتيم: هو العاشق المتذلل، وفي هذا الطلب نوع من الانصهار في ذات الله، والذهاب إلى أبعد حد في الوله، والعشق، والشوق إلى الله عزّ وجل تدليلاً من الداعي بالتوجه الكامل إليه.

(ومُنَّ عليَّ بحسن إجابتك).

ولابد أن نفرق بين الإجابة من الله، وبين حسن الإجابة.

أما الإجابة: فتتحقق بالاستجابة لطلب الداعي. أما متى، وكم سيكون الفاصل بين الدعاء، وبين الاستجابة فذلك أمر لا يضر في البين لأن المهم هو حصول متعلق الطلب.

وأما حسن الإجابة: فيتحقق بسرعة اعطاء المطلوب، وعدم التخلف عن كل ما يطلبه الداعي.

(واقلني عثرتي، واغفر زلتي).

العثرة: هي الكبوة. وكبا الفرس، انكب على وجهه، وعثر سقط، وزل [١].

والمراد: هو قبول العثرات التي تصدر من الإنسان، وهكذا الحال في غفران الزلة، والزلة، والعثرة من وادٍ واحد.

وهما غير الذنوب الكبيرة، أو منها، ولكن صدورها لم يكن على نحو من القصد، والعناد، بل من باب حصول العثرة كما يعثر الإنسان بثوبه، فيسقط فإنه لم يكن قاصداً ذلك بل حصل منه ذلك.

(فإنك قضيت على عبادك بعبادتك، وأمرتهم بدعائك وضمنت لهم الإجابة).

والذي يلوح، ويظهر واضحاً من هذه الفقرات هو تبرير الداعي لطلباته المتلاحقة. فقد يكون في وضع محرج حيث أخذ يلح في الطلب ويكرر الاستغاثة، ولكنه ناشد المولى لتبرير عمله: بأنك الذي قضيت على عبادك بعبادتك في عدة آيات جاءت تصرح بأنه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٢].

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [٤].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [٥].

وفي الوقت الذي قضيت يا رب بالعبادة، وألزمت البشر بها أمرتهم أن لا ينقطعوا عنك، وجعلت الدعاء هو الخيط الذي يشدهم إليك، ويربطهم برباطك المقدس.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب: مادة (عثر).

(٢) سورة الذاريات: الآية، ٥٦.

(٣) سورة الإسراء: الآية، ٢٣.

(٤) سورة البيّنة: الآية، ٥.

(٥) سورة يس: الآية، ٦١.

ولكنك يا رب: كريم، وجواد، وعطوف. لم تخيب آمالهم عندما أمرتهم بدعائك، بل ضمنت لهم الإجابة، وقد صرحت آيات كتابك بذلك كما تقدم بيان الكثير منها.

وبناءاً على هذا الضمان الصادر منك يا رب توجه الداعي بضراعة فائقة، وهو يقول:

(فإليك يا رب نصبت وجهي، وإليك يا رب مددت يدي).

وتنطبع صورة خاشعة في الأذهان إلى الداعي، وهو يرفع بوجهه إلى الأعلى يرمق السماء بعينين ملؤهما الإنكسار، وبيدين مبسوطتين أمام وجهٍ عَلتهُ التجاعيد وتناثرت على أطرافه الدموع.

وكان الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) في مثل هذا الموقف يردد قائلاً: (وعزتك يا كريم، لأطلبن مما لديك، ولألحن عليك، ولأمدن يدي نحوك مع جرمها إليك. يا رب فبمن أعوذ، وبمن ألوذ، لا أحد لي إلاّ أنت. أفتردني، وأنت معولي، وعليك متكلي؟)[1].

وهكذا ينبغي أن يقف الداعي بين يدي ربه، وهو يناجيه بمثل هذه الدعوات التي تمثل الإنسان الهادئ الوديع المستسلم إلى خالقه بكل ما عنده، وليجد بعد ذلك من ربه صدراً واسعاً، وموجة عارمة من العطف، والحنان فقد أوحى الله إلى عبده النبي داود (عليه السلام): (ما اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي عرفت ذلك من نيته ثم تكيده السماوات، والأرض، ومن فيهن إلاّ جعلت له المخرج من بينهن، وما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيته إلاّ قطعت أسباب السماوات، والأرض من يديه، وأسخت الأرض من تحته، ولم أبال بأي وادٍ هلك)[2].

---

(١) فقرات من دعاء الجوشن الصغير كان الإمام الكاظم (عليه السلام) يقرأه في الشدائد.

(٢) الشيخ الكليني: الكافي/ باب التفويض إلى الله، والتوكل عليه، من كتاب الكفر، والإيمان، حديث ١.

(فبعزتك استجب لي دعائي وبلغني مناي).

وصحيح أن الله أمر بالدعاء، وضمن الإجابة، ولكن ذلك ليس إلزاماً عليه في التلبية، بل له الكلمة الأخيرة في كل شيء تبعاً للمصالح والمفاسد.

والداعي يخشى هذه الجهة من التخلف... لذلك أقسم على ربه بعزته أن يحقق أمله، ويستجيب دعاءه، ويوصله إلى ما يتمناه من رضا ربه، وعطفه عليه باستجابة كل ما طلبه منه في سبيل التوبة، والتجاوز.

(ولا تقطع من فضلك رجائي).

وحاشا له أن يقطع رجاء من رجاه، وهو الذي يطمع في مغفرته حتى إبليس، ولكنه أدب الدعاء حيث يوجه الداعي إلى الإلحاح في طلبه والتكرار لأنه تعالى: يحب العبد الملحاح في طلبه.

وقد جاء عن الإمام أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قوله: «إن الله عزّ وجل كره إلحاح الناس بعضهم على بعض في المسألة، وأحب ذلك لنفسه إن الله عزّ وجل يحب أن يُسأل، ويطلب ما عنده»[1].

وعن الإمام الباقر (عليه السلام) جاء قوله: (والله لا يلح عبد مؤمن على الله عزّ وجل في حاجته إلاّ قضاها له)[2].

(واكفني شر الجن والإنس من أعدائي).

ـ وكما قلنا ـ أن مسيرة الإنسان التائب العابد لابد لها من أن تحصل على تأمين من الله للحفظ من شر الجن، والإنس. وإلاّ فإن انشغال العبد بدفع مكائد الأعداء لا يدفع به إلى السير به لإكمال مسيرته ـ كما بينا ـ.

(يا سريع الرضا. اغفر لمن لا يملك إلاّ الدعاء).

وقد جاء في بعض الأدعية: (يا من يقبل اليسير، ويعفو عن الكثير اقبل مني

---

(١) أصول الكافي: باب الإلحاح في الدعاء، والتلبث، كتاب الدعاء، حديث ٤ .

(٢) المصدر السابق، والموضوع نفسه، حديث ٣ .

اليسير، واعفُ عني الكثير إنك أنت الرحيم الغفور) [١].

ويعترف الداعي بأنه لا يملك إلاّ الدعاء، وإلاّ فهو عاجز عن كل شيء وهذه بضاعة، وهي بضاعة ليست بمزجاة، بل هي مهمة عند الله لأن الله يحب العبد الداعي، ويعطيه ما يطلب.

(فإنك فعال لما تشاء).

ولا حاجة للتدليل على ذلك، فقدرته لا تحد بحد، وهو خالق كل شيء فإذا أراد أن يهب لسائله ذنوبه، ويبسط في رزقه فلا أحد يقف في سبيل تحقيق ذلك لأنه الأول، والآخر ـ وقد تقدم البحث في مثل هذا مفصلاً ـ.

(يا من اسمه دواء، وذكره شفاء).

وتعود القضية إلى اللهفة، والتوجه إلى الله، فإن المريض إذا التجأ إلى ربه في رفع يديه ليدفع عنه المرض، فإن الله لا يترك عبده بل يستجيب له، فيعافيه، وقد تضمنت أخبار كثيرة ما يجنيه المريض من الفائدة لو قرئت عنده بعض الآيات الكثيرة، أو تليت عليه أسماؤه الكريمة، ولم تقتصر كتب الدعاء للإمامية على ذلك، بل جاء ذلك في مصادر الدعاء لكافة الفرق الإسلامية، وهكذا في كثير من كتب التفسير.

(وطاعته غنى).

لأن الله هو القائل في كتابه: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [٢].

إنه يكفى عبده، ويغنيه، ولا يلجئه إلى أحد، ولكن ذلك يحتاج إلى التوجه الكامل من العبد إلى ربه، ولا خوف عليه بعد ذلك:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [٣].

---

(١) الشيخ الطوسي: مصباح المتهجد/ ٥٩٨، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت ـ لبنان.

(٢) سورة الزمر: الآية، ٣٦.

(٣) سورة الذاريات: الآية، ٥٨.

(ارحم من رأس ماله الرجاء).

ورجاء الله أثمن بضاعة يحويها العبد في حياته، لذلك نرى الإمام زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام) يناجي ربه، والرجاء ملء جوانحه قائلاً:

(يا من إذا سأله عبد أعطاه، وإذا أمل ما عنده بلغه مناه، وإذا أقبل عليه قربه، وأدناه، وإذا جاهر بالعصيان ستر على ذنبه، وغطاه، وإذا توكل عليه أحسبه، وكفاه.

إلهي من الذي نزل بك ملتمساً قراك فما قريته؟ ومن الذي أناخ ببابك مرتجياً نداك فما أوليته؟ أيحسن أن أرجع عن بابك بالخيبة مصروفاً ولست أعرف سواك مولىً بالاحسان موصوفاً؟ كيف أرجو غيرك والخير بيدك؟ وكيف أأمل سواك، والخلق والأمر لك؟ أأقطع رجائي منك، وقد أوليتني ما لم اسأله من فضلك؟ أم تفقرني إلى مثلي، وأنا اعتصم بحبلك)[1].

الإمام زين العابدين (عليه السلام) مثال العبد المؤمن الراجي، لذلك نراه يحاسب ربه حساباً تلذ له النفوس، فمن رجاه لا يخشى شيئاً عند مخلوق ولا يتكفف الأيدي، والله كافٍ عبده.

(وسلاحه البكاء).

البكاء من خشية الله، والبكاء حياءً من الله نتيجة مخالفاته وأعماله القبيحة. البكاء مما تجاوز به على الآخرين ليتنعم أياماً ثم مصيره إلى التراب إلى القبر، إلى الظلمة، وإلى الحساب اليسير أمام من لا تخفى عليه حتى أنفاسه.

ولكن مع كل ذلك فبوارق الأمل لن تموت، والأماني الحلوة بعد لا تزال تراود العبد ما دام في هذه الحياة فهو أمام رب غفور رحيم.

(يا سابغ النعم).

سبغ الشيء: تم، وأسبغ الله عليه نعمه: أتمها.

والله هو متمم النعم على عبده، وهو المتفضل فكيف يحصل القنوط للعبد؟

---

(١) فقرات من مناجات الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) الموسومة بمناجات الراجين.

(يا دافع النقم).

وقد قال الله عزّ وجل:

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾[1].

وهذه طبيعة الإنسان ينعم الله عليه بكل ما يحيطه من خير، ورزقٍ ومن ثم إذا مسه الضر فلا يجد ملجأ إلاّ إليه، فهو غياث المستغيثين، وهو رجاء الراجين. ومع ذلك يعود الإنسان إلى المخالفات لو أنجاه الله من الكرب التي تلم به ـ وفي الوقت نفسه ـ يجد من ربه رباً رحيماً يغفر له ما تجاوز به، ويقبل منه عذره، فينعم عليه، ويدفع عنه نقمه.

(يا نور المستوحشين في الظلم).

والظلم كثيرة: إذا أبقينا اللفظ على ما هو عليه من الظلمة الحقيقية. فهو نور لمن في بطون الأمهات حيث تحيط بهم الظلمة، وهو نور لمن في البحار، وهو نور لمن يسلك الطرقات المظلمة في الليالي غير المقمرة.

ولكن الظلم في هذه الفقرة، ربما كان المراد بها أوسع من ذلك.

فهو نور المستوحشين في الكرب، والمهمات، وكل من تظلم الدنيا بعينه إذا نزلت به نازلة، وحلت به كارثة ليجد نفسه، وقد توحد يعاني آلام الوحدة، وكرب الوحشة، وحينئذٍ يجد من نفسه، وقد لجأ إلى الله فهو حسبه، وهو الذي يأخذ بيده، فيزيح عنه ظلمات الهم، والغم.

(يا عالماً لا يعلم).

لأن علمه عزّ وجل غير مكتسب، بل هو طبيعي ذاتي قديم يعلم من نوايا العبد ما يخفى على الآخرين.

---

(١) سورة النحل: الآية، ٥٣.

(صلِّ على محمد وآل محمد).

والصلاة هي: الدعاء، والرحمة، والاستغفار.

والصلاة على النبي (ﷺ) هي: حسن الثناء من الله على الرسول، وقيل: الصلاة من الله هي الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار.

ومن المؤمنين الدعاء، ومن الطير والهوام التسبيح.

وهي لا تكون إلاّ في الخير بخلاف الدعاء فإنه يكون في الخير والشر.

وقد أخبر القرآن الكريم بأن الله عزّ وجل يصلي على النبي: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[1].

الله، وملائكته يصلون على النبي، والصلاة منه تعالى هي ذكره النبي بالثناء في السماوات، ومن ملائكته دعاؤهم له، واستغفارهم له.

ومن هذا المنطلق الرفيع يوجه الدعاء الداعي لأن يختم مناجاته بالدعاء لنبي الرحمة، ولآل بيته الأطهار الأئمة الاثني عشر بدأً من الامام: علي بن أبي طالب (أمير المؤمنين) وولديه الإمامين الحسن، والحسين، والأئمة التسعة من ذرية الحسين وهم:

علي بن الحسين، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق، وموسى الكاظم، وعلي بن موسى الرضا، ومحمد الجواد، وعلي الهادي، والحسن العسكري، وختاماً بن الحسن المهدي (عليهم السلام).

هؤلاء هم أوصياء النبي الأكرم، وحاملوا ثقل الرسالة بقاءً واستمراراً. فلهم تطلب الرحمة، ولجهودهم الخيرة تقدم آيات التعظيم والتمجيد

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا ﴾[2].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية، ٥٦ .

(٢) سورة الأحزاب: الآية، ٣٣.

(وافعل بي ما أنت أهله).

وهكذا تنتهي بالداعي هذه المسيرة الدعائية فقد بدأ مستغفراً خاضعاً متضرعاً، وقد كشف حاله أمام ربه، وبيّن نواياه، وطلب منه فتح صفحة جديدة من حياته يخلص له فيها التوبة، ويعاهده على أن يكون إنساناً على نحو ما تريده الشريعة المقدسة لكل البشر الخيرين.

كل هذا جعله الداعي بين يدي خالقه، ووشح دعاءه بكلمته الأخيرة (وافعل بي ما أنت أهله).

لا ما أنا أهله. فمني ما يليق بلؤمي، ومنك ما يليق بجودك، وكرمك.

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلاّ محسن ... فبمن يلوذ ويستجير المجرم

أدعوك رب كما أمرت تضرعاً ... فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم

خاتمة المطاف

وهكذا أحمد الله عزّ وجل، وأشكره شكراً يليق بكرمه على توفيقي لإكمال شرح هذا الدعاء الجليل **(دعاء كميل)**.

ولعلني قمت بخدمة لإخواني في تقديم بعض ما يتعلق بهذا الدعاء من جوانب غامضة، أو مواضيع كانت بحاجة إلى البحث والتنقيب.

ويسرني وأنا في نهاية الشوط أن أتصور ـ **قارئي الكريم** ـ وقد سرنا معاً خاشعين في رحاب الله نردد كلمات الاستغفار، ونطلب منه العفو، والمزيد من التوفيق.. إنه سميع مجيب.

عز الدين السيد علي بحر العلوم

مصادر الكتاب

١ـ القرآن الكريم.
٢ـ نهج البلاغة. تحقيق: الشيخ محمد عبدة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان.
٣ـ الصحيفة السجادية.

* * *

حرف الألف

١ـ إحياء علوم الدين

أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، مؤسسة الحلبي وشركاه ـ القاهرة

٢ـ أسرار العارفين

المرحوم السيد جعفر بحر العلوم، المطبعة الرضوية ـ النجف الأشرف

٣ـ الإصابة

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٤ـ الأعلام

خير الدين الزركلي ـ الطبعة الثالثة.

٥ـ إقبال الأعمال

رضي الدين أبي القاسم علي بن موسى بن جعفر بن طاووس، دار الكتب الإسلامية ـ طهران

٦ـ أقرب الموارد

سعيد الخوري الشرتوني ـ بيروت.

٧ـ الأمالي

محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المعروف بـ (الصدوق)، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف.

٨ـ أمالي الطوسي

أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المعروف بـ (شيخ الطائفة).

حرف الباء

٩ـ بحار الأنوار

المولى شيخ الإسلام: محمد باقر المجلسي، منشورات المكتبة الإسلامية ـ طهران.

دار إحياء التراث العربي: بيروت ـ لبنان.

١٠ـ البلد الأمين

تقي الدين بن الشيخ إبراهيم الكفعمي الجبعي، طبع أوفست مروي ـ طهران.

حرف التاء

١١ـ تاريخ الإسلام

أبو عبد الله شمس الدين الذهبي

١٢ـ التبيان في تفسير القرآن

الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، المطبعة العلمية ـ النجف الأشرف

١٣ـ تحف العقول

الشيخ أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين شعبة الحراني، طبع إيران

١٤ـ التحقيق في الإمامة وشؤونها

عبد اللطيف البغدادي

١٥ـ التخويف من النار

ابن رجب الحنبلي، دار الرشيد ـ دمشق

١٦ـ التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق

منشورات المكتبة العصرية.

١٧ـ تفسير القرطبي

أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، طبع دار الكتب المصرية.

١٨ـ التفسير الكبير

محمد بن العمر بن الحسين المعروف بـ (الفخر الرازي)، المطبعة البهية ـ مصر.

١٩ـ تنقيح المقال

الشيخ عبد الله المامقاني، انتشارات ـ طهران

٢٠ـ تهذيب التهذيب

شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، طبع حيدر آباد ـ الهند

٢١ـ التوحيد

محمد بن علي بن الحسين ابن بابويه القمي المعروف بـ (الشيخ الصدوق)، دار المعرفة ـ بيروت.

حرف الجيم

٢٢ـ جامع السعادات

المولى الجليل الشيخ محمد مهدي النراقي، مطبعة النجف ـ النجف الأشرف

٢٣ـ جمهرة أنساب العرب

أبو محمد علي بن سعيد بن حزم الأندلسي، دار المعارف ـ القاهرة

حرف الخاء

٢٤ـ الخصال

محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بـ (الشيخ الصدوق)، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العملية، قم المقدسة.

حرف الدال

٢٥ـ الدر المنثور

جلال الدين السيوطي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان.

محمد أمين دمجوشركاه.

٢٦ـ الدعاء

السيد رضي الشيرازي، منشورات مسجد الشفاء ـ طهران

حرف الذال

٢٧ـ الذريعة إلى تصانيف الشيعة

الشيخ أغا بزرك الطهراني، مطبعة القضاء ـ النجف الأشرف.

حرف الراء

٢٨ـ تفسير الآلوسي (روح المعاني)

الآلوسي

حرف الزاء

٢٩ـ الزاهر (في اللغة)

حرف السين

٣٠ـ سفينة البحار

الشيخ عباس القمي، منشورات مكتبة سنائي ـ طهران

٣١ـ سنن ابن ماجة

أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت.

٣٢ـ سنن الترمذي

الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت

حرف الشين

٣٣ـ شرح دعاء كميل

عبد الأعلى بن محمد القاضي السبزواري، المطبعة العلمية ـ طهران

٣٤ـ شرحي الإشارات

الخواجة نصير الدين الطوسي وفخر الدين الرازي، المطبعة الخيرية ـ القاهرة

حرف الصاد

٣٥ـ صحيح البخاري

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت.

٣٦ـ صحيح شرح العقيدة الطحاوية

حسن بن علي السقاف

حرف العين

٣٧ـ عقائد الإمامية

الشيخ محمد رضا المظفر، دار التربية ـ بغداد، ومطبعة النعمان ـ النجف الأشرف.

حرف الفاء

٣٨- في ظلال القرآن

سيد قطب، دار التراث العربي ـ بيروت

حرف القاف

٣٩- القاموس المحيط

مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروآبادي، دار الفكر ـ بيروت

حرف الكاف

٤٠- الكافي

أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، دار الكتب الإسلامية ـ طهران

٤١- الكامل في التاريخ

علي بن عبد الكريم محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بـ (ابن الأثير)، الطبعة الأولى/ المطبعة الأزهرية ـ القاهرة.

٤٢- الكشاف

الزمخشري

حرف اللام

٤٣- لسان العرب

محمد بن جلال الدين بن منظور، دار لسان العرب ـ بيروت

٤٤- لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية

سيدي عبد الوهاب الشعراني، الطبعة الثانية/ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ مصر.

حرف الميم

٤٥ـ المحجة البيضاء

محمد بن المرتضى المولى المحسن الكاشاني، مكتبة الصدق ـ طهران

٤٦ـ مجمع البيان في تفسير القرآن

أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.

٤٧ـ مجمع البحرين

الشيخ فخر الدين بن الشيخ محمد علي الطريحي، طبع إيران.

٤٨ـ مختار الصحاح

محمد بن أبي بكر الرازي، مطبعة الترقي ـ دمشق.

٤٩ـ مرآة العقول

المولى محمد باقر المجلسي، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

٥٠ـ مسند احمد بن حنبل

أحمد بن حنبل، دار صادر ـ بيروت.

٥١ـ مصابيح الجنان

السيد عباس الكاشاني، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف.

٥٢ـ مصباح المتهجد

الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المعروف بـ (شيخ الطائفة)، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت ـ لبنان.

٥٣ـ المصباح

تقي الدين الكفعمي، مؤسسة مطبوعات إسماعيليان ـ طهران.

٥٤ـ مع الأنبياء في القرآن الكريم

الطبعة السادسة.

٥٥ـ المفردات في غريب القرآن

أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بـ (الراغب الأصفهاني)، دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت.

٥٦ـ من علوم الطب في الإسلام

الدكتور عارف القرغولي، مطبعة النجف ـ النجف الأشرف.

٥٧ـ المناقب

رشيد الدين أبو جعفر محمد بنى علي ابن شهر آشوب، المطبعة الحيدرية ـ النجف الأشرف.

٥٨ـ الموسوعة الطبية الحديثة

مجموعة من الأطباء، مطابع سجل العرب ـ بيروت

٥٩ـ الميزان في تفسير القرآن

السيد محمد حسين الطباطبائي، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

حرف النون

٦٠ـ النهاية في غريب الحديث

محمد بن عبد الكريم المعروف بـ (ابن الأثير)، المطبعة الخيرية ـ مصر

٦١ـ نور الافهام (شرح أرجوزة مصباح الظلام)

حرف الواو

٦٢ـ وسائل الشيعة

الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، منشورات المكتبة الإسلامية ـ طهران

الفهـرست

الموضوع	الصفحة
المقدمة / قال ربكم ادعوني استجب لكم	٧
خصوصية دعاء كميل	١٠
مع القارئ	١٢
في رحاب الله	١٥
مع الدعاء	١٦
مع دعاء كميل	٦٥
كميل بن زياد النخعي	٧٠
النص الكامل لدعاء كميل	٧٥
شرح الدعاء	٨١
المقطع الأول	٨٣
المقطع الثاني	٩٦
المقطع الثالث	١١٣
المقطع الرابع	١٢١
المقطع الخامس	١٢٦
المقطع السادس	١٤١
المقطع السابع	١٤٨
المقطع الثامن	١٤٩
المقطع التاسع	١٥٣
المقطع العاشر	١٦٤
المقطع الحادي عشر	١٧٢

الموضوع	الصفحة
القضاء	١٧٧
القدر	١٧٨
بين القضاء والقدر	١٧٩
الامور التي تدفع القضاء	١٨٤
المقطع الثاني عشر	١٨٨
المقطع الثالث عشر	١٩٣
المقطع الرابع عشر	٢٢٩
الاحتضار، وسكرات الموت	٢٣٩
القيامة وأهوالها	٢٤٢
الشفاعة تعريفها	٢٤٨
الشفاعة بين الرفض والقبول	٢٤٩
الرد على القائلين بالرفض	٢٥٠
الشروط المطلوبة في الشفيع	٢٥٦
المقطع الخامس عشر	٢٦٣
المقطع السادس عشر	٢٧٤
المقطع السابع عشر	٢٩٨
الكرام الكاتبون	٣٠٤
الملائكة ما هي مهمتهم؟	٣٠٩
خاتمة المطاف	٣٣٥
مصادر الكتاب	٣٣٧
الفهرست	٣٤٥